حِلْمُ الأَنَانِيِّ

مجدي فتح الله - حلم الأناني ، رواية

رقم الإيداع : ٢٠١٧/١٧٥٤٧ ISBN : 978-977-798-083-8

إن دار الحلم للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره ، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

ولا يجوز طبع أو إعادة استخدام أي جزء من العمل في أي صورة كانت إلا بموجب موافقة خطية من الناشر .

© دار الحلم للنشر والتوزيع

عضو اتحاد الناشرين المصريين

القاهرة - جمهورية مصر العربية

Mob : 00201141824562

dar_el7elm@hotmail.com

info.darel7elm@Gmail.com

حِلمُ الأَنانيّ

رواية

مجدي فتح الله

الحلم
للنشر و التوزيع

رغم مشروعية أحلامنا
إلا أننا عندما نحسم أمرنا
ونشرع في تنفيذها
لا نفكر أو ننظر حولنا
ونتساءل: هل
على المدي البعيد ستعود بالنفع على الجميع؟
أم أن تحقيقها على أرض الواقع
سيكون وبالًا وخرابًا يطال أيضًا الجميع؟
لذا فحلم الأناني هو
حلم كل واحد منكم يتمنى تحقيقه
ولو كان على أنقاض وطن
وطن لم يعد بإمكانه تحمل المزيد من أنانيتكم
ألا تبًّا لكم ولأحلامكم
ألا تبًّا لكم ولأنانيتكم.

الكاتب والروائي: مجدي فتح الله

مقدمة

لم أكن أعني وأنا أكتب أحداث هذه الرواية بحلم شخص بعينه، أو أختص بمشكلة بذاتها، بل إني حفزت نفسي لكتابتها؛ لأن صفة الأنانية موجودة داخل الإنسان تلازمه منذ ولادته، ولا نستطيع إلصاق صفتها بأي شخص إلا من خلال أفعال معينة يأتي بها، وأيضًا في أوقات معينة، فنعلم على الفور أن هذا الشخص مكتسب بطبيعته لهذه الصفة، وما أكثر المواقف في حياتنا، والتي من خلالها نستطيع أن نحكم، بل نوجه الاتهام لجميع البشر من حولنا، ونصفهم بالأنانية.

إذًا فالأنانية جريمة متكاملة الأركان نرتكبها يوميًّا، سواء عن قصد متعمد أو عن طريق جهل مغلف بحسن النوايا، والأنانية ليست بمعضلة للكشف أو للبحث عن فاعلها أو مرتكبها، فالجميع- كما ذكرنا- يمتلك تلك الصفة، والتي ما إن توفرت أركانها وتهيأت الظروف لارتكابها؛ حل الخراب والدمار، وكانت العواقب وخيمة، والنتائج المرجوة من خلالها مخيبة ومدمرة ليس للشخص الأناني فحسب، بل ستطال أيضًا من يعيشون من البشر في محيطه.

ولقد أطلعنا التاريخ ونحن نقلب صفحاته، ونقرأ ما بين السطور بأشخاص لا حصر لهم منذ بداية الخليقة اكتسبوا تلك الصفة عن عمد، وبسبب أنانيتهم هذه عانى منهم جميع البشر، وحل الخراب والدمار على كوكب الأرض، وكانت جنة الخلد المكان الفعلي لولادة الأنانية وسماع النبضات الأولى لها؛ حيث لم تتخيل الأنانية نفسها أنها ستولد بداخلها، ومثلها مثل حواء ولدت الأنانية من ضلع أعوج لآدم،

واستقرت بداخل عقله لتهدي بذلك أغلى هدية للشيطان عندما وسوس لآدم أن يأكل من الشجرة المحرمة لتكون العقوبة الطرد من الجنة وهبوطه منها إلى الأرض هو وزوجته، وكالنار في الهشيم انتقلت الأنانية بين أبناء آدم فور طرده من الجنة برفقة الزوجين العاصيين لأوامر ربهما، ولم يتعظ قابيل ويأخذ حذره منها عندما تملكت منه، وجعلته يقتل أخاه هابيل، وبعد تلك الحادثة الشنيعة توغلت الأنانية وفرضت سيطرتها، لدرجة أنها استعمرت عقول البشر، أجيال تتعاقب وتنتقل بدورها كالسرطان لا تستطيع أي قوة على وجه الأرض وقف نفوذها المتمثل في الحروب المليئة بها كتب التاريخ، وكذلك الفتن والنزاعات بين الدول وبين الأشخاص أنفسهم داخل الدولة الواحدة.

والأنانية نجدها متمثلة في الأنا في الذاتية في الفردية، فأنا والطوفان من بعدي وما أمتلكه أو ما أستحوذ عليه إنما هو ملكي، يخصني، ليس لأي فرد أن ينازعني أو يلومني في كيفية التصرف بشأنه، حتى لو وصل الأمر لأضرار جسيمة ستطال مجتمعي.

وإذا تحدثنا عن الحلم، فالحلم عند البشر هو تمني الشيء البعيد المنال، أو الذي حرموا منه بسبب ظروف خارجة عن إرادتهم أو بسبب قوانين إلهية أو بسبب قوانين وضعها البشر أنفسهم، لذلك عندما يبدأ التطبيق الفعلي لهذه القوانين على البشر الذين ارتضوا تلك القوانين نجدهم متذمرين غير راضين، يحاولون بشتى السبل الالتفاف على هذه القوانين، وجعلها تؤيدهم فيما هم مقدمون على تحقيقه من أحلام يتمنونها واقعًا، ومن هنا تظهر الأنانية.

ونستنتج من ذلك أن الحلم والأنانية مرتبطان ببعضهما ارتباطًا لصيقًا.

وكسابق إصداراتي «فارس أحلامي» مجموعة قصصية، «مسمار جحا» رواية، «دائرة الاغتصاب» رواية؛ اجتهدت من خلالهم بتصدير بعضٍ من المشكلات المجتمعية الطافية على سطح الحياة اليومية، وهذه المشكلات لا يمكن لأي مواطن أن يعترض ويقول: لم أتعرض لأي منها كاندثار العادات والتقاليد في المجموعة القصصية «فارس أحلامي» أو كاحتلال العدو لجزء من أرضنا وزيارته لها كما يحلو له وفي أي وقت يشاء مدفئًا لمن يدعون أنه أحد الصالحين من بني جلدتهم «أبو حصيرة» اتخذوه مزارًا لهم الحق في المجيئ إليه وقتما شاءوا، مع أنه من المفترض ولا يجوز لهم تدنيس تراب طاهر لوطن يغلي الدم في عروق أبنائه عندما يسمعون دبيب تلك الأقدام النجسة وهي قادمة لزيارة ذلك المقام أو ذلك المزار، والذي نجده مزروعًا داخل العديد من دولنا العربية، وبهذه الطريقة نقف عاجزين أمام ذلك المسمار «مسمار جحا» والذي دق في رؤوسنا، ولا نستطيع انتزاعه بمرورٍ بما تطرقت إليه في رواية «دائرة الاغتصاب» من تدمير الأخلاق والقيم، وما يتبعهما من اغتصاب معنوي ومادي لا ينجو أي فرد من أفراد المجتمع من التعرض لأي منهما.

إليكم روايتي.

(١)
البداية

تجرأت على تدنيس كل ما هو جميل، غير مبالٍ بتبعات ما اتخذته من قرارات تخص أموري الخاصة دون الاهتمام بمجتمع تناسيت في لحظة غرور مني أنني لست منه، وقد انسلخت بكامل إرادتي عنه متناسيًا أني في يوم من الأيام كنت أنتمي إليه، وأن ما كنت أحلم بتحقيقه في الماضي قبل اكتسابي صفة الأنانية إنما هو لصالح ذلك المجتمع، أو قولوا حلم تمنيته واقعًا، لكن الرياح تأتي بما لا تشتهي به السفن، فتحطم على صخرة.. افعل كما آمرك، أو كما يحلو لمزاجي الخاص، وإياك أن تفعل؛ فهذا عيب وسيلومك عليه مجتمع ينتظر بشغف أول خطيئة تقترفها، لن تجد وقتها من يغفرها لك كما تظن؛ فهي حين اقترافك لها بحر تغوص فيه بأقدامك، لن تستطيع مجاراة أمواجه الهادرة، فذلك يا ابني اسمه التحرر والخروج عن المتبع والمألوف، وأنا والدك وما أرغمك عليه كما تظن فإنما هي تربية وتعليم وتهذيب وإصلاح، أو بالأحرى قوانين مجتمعك، ليس عليك مخالفتها وإلا ستكتب نهايتي قبل نهايتك.

لا زلت أتذكر جيدًا كلمات والدي عندما حذرني بألا أنساق وراء أحلامي ورغباتي، وأن أحكم صوت العقل لما هو فيه مصلحتي مستقبلًا، وكنت وقتها أزف إليه خبر نجاحي في الثانوية العامة، فقد وجدت الفرحة الغامرة تملأ وجنتيه نضارة وإشراقًا، ووجهه يتهلل بشرًا وسرورًا يحتضنني ويتركني، ثم يعيد الكرة، لا يصدق أذنيه وأنا أسمعه نبأ نجاحي بتفوق، لكن ما أقلقني تلك

النظرات التي تحولت إلى الصرامة وهي تتجه بسهامها نحوي عندما نبست بما لم ترتضيه رغبته من دخولي لكلية الزراعة لأفاجئه برغبتي في استكمال دراستي بكلية الهندسة، لأجده يربت على كتفي وابتسامة فاترة انطلقت من بين شفتيه، ويقول:

- خيبت رجائي يا ولد، كنت أظنك ستبهجني، وترد إلي الجميل بقولك سمعًا وطاعة يا أبي، فأراك بعد أربع سنوات دراسية مهندسًا زراعيًّا عظيمًا، وقد اكتسبت أساليب علمية حديثة في الزراعة والإدارة والإشراف على المحاصيل التي لا تخلو منها أرضك طوال العام، والتي بسببها فشلنا فشلًا ذريعًا في إقناع مهندس زراعي واحد من الوافدين إلينا من وزارة الزراعة في البقاء والاستقرار بيننا، أستحلفك بالله يا بني أن تكون كما أريدك مهندسًا زراعيًّا بجانب اهتمامك بأرضي وأرضك تحفر الآبار للبحث عن المياه الجوفية، فتكون بذلك مستعدًّا لنجدة أرضي وأرضك وأرض أجدادي من قبلي بالحفر واكتشاف المياه من باطنها لنستخدمها- لا قدر الله- وقت جفاف شريان حياتنا، ألا تعلم يا ولد أن الأشرار انتشروا منذ زمن حولنا كالأفاعي، ونحن للأسف نيام يسعون بكل جهدهم للنيل منا، وكان آخر مسعى لهم هو قطع نقطة المياه قبل وصولها إلينا، وأظنهم يوشكون على الفوز فيما خططوا ودبروا له، قولي ساعتها هتروي فدادينك الكثيرة والمترامية الأطراف ازاي يا وحيد والديك؟ ياللي ربنا مرزقنيش بغيرك.

ولما وجدني صامتًا لا أعير حديثه اهتمامًا جذب ذراعي بقوة نحوه، وهو يكسر ذلك الصنم الذي تلبسني، وكأن إحساسًا داخله بأني لم أفهم معنى ما يقوله، وأنه بذلك يستحث ما في داخل لبي من معلومات حرصت على الاستزادة منها بجانب ما درسته في الكتب المدرسية؛ على الانتباه والرد عليه،

وقال والغضب قد رأيته وقد تملك منه:

- قولي يا ولد، هو إيه شريان أرضك؟

فأجبته من فوري وأنا متوجس خيفة من انقلاب غضبه لإعصار يحولني لبقايا إنسان:

- إنها المياه يا والدي.

فأخذ يكرر:

- مية النيل يا ولد.

حتى خيل إلي أن نهر النيل ارتفعت أمواجه مسرعة هادرة، تركت كل ما حولها من أراضٍ وبيوت، واختارت باب منزلنا، واقتحمته في اندفاع غير متقهقر إلا بالقصاص مني، تردد أوامر والدي:

- كن مهندسًا زراعيًّا ينبش بأظافره الأرض، يبحث عن المياه في جوفها عندما يجف النيل ويصبح جيفة نتنة تتناثر الديدان من جوفه، لا مجيب لاستغاثته وهو يتحسر ألمًا ومرضًا بأعلى صوته ينادي: أجف يا مصري أمام عينيك ولا تداويني!، أرضك يا مصري تموت عطشى ولا تفتديني، بالله أستحلفك أنقذني؛ فأنت روحي وأنا كرامتك، فإن مت فلا عادت روحي، وأنت أصبحت بلا كرامة.

وفجأة، أفقت من تقوقعي على صفعة قوية تجتاح صفحة خدي من يد والدي، وهو يقول:

- تكلم يا ناقص التربية، أتجعلني أُحدث نفسي! أجبني وقل لي لا أرغب في إكمال علامي إلا بكلية الزراعة؛ لأكون فلاحًا ذا طرازٍعصري يزرع

أرضه بأساليب علمية حديثة، وفي ذات الوقت أسعى جاهدًا في الحفاظ على السلالات المحاصيلية التي تتعمد جهات بعينها- تنتمي لجهات خارجية- تهجينها، والقضاء عليها رويدًا رويدًا حتى يكون اعتمادنا- مع مرور سنوات قليلة- على نفس هذه الجهات، وواحدة واحدة قول يلا السلام على زراعتنا.

كنت وقتها غير مبالٍ بما يقوله والدي من تحذيرات أو وصايا، وهو يقول لي بعدما وجدني متعنتًا ومتشبثًا باستكمال دراستي فيما أحب وأنتوي أن أكون:

- اسمع يا ولد يا مروان، ما تزوجت بوالدتك كي تحملك في بطنك وتلدك بعد تسعة أشهر طال صبري وقتها، حتى خرجت إلى هذه الدنيا، ولا انتظرت طوال تلك السنوات الثمانية عشر حتى وقوفك أمامي الآن، وخلالهم كل طلباتك وأوامرك بل وأحلامك تجدها حقيقة ومجابة؛ إلا هذا الحلم، حلم أن يكون من صلبي ذرية تحافظ على أرض جدودي التي توارثتها عنهم، وما دام خالقي لم يرزقني غيرك؛ فلك الخيار إما هذه أو تلك.

واتتني الجرأة وقتها بعدما تملك الضيق مني، ولأول مرة أرفع رأسي عاليًا وعيناي في عينيه اتحدا من خلال شعاعهما، والتي كنت أظنها لن تنكسر بعدها أبدًا، وأسمعه:

- لا، إنه حلمي أنا وليس حلم أحد غيري، فهذه حياتي أنا، وليس لأحد شأن في رسم طريقي بعد الآن.

وجدت الانفعال وقد زادت حدته في نبرة صوته، غير مصدق ما ألقيته على مسامعه:

- ماذا تقول يا ولد يا مروان؟ إنك لن تفعل إلا ما أمليه عليك، وإلا..

هنا، سمعت صوت والدتي الحنون يخترق أذني، وهي تندفع نحونا خارجة من مخبئها خلف باب إحدى حجرات منزلنا الكثيرة:

- ولا كلمة يا مروان، ممكن تتفضل دلوقتي، اخرج روح لأصحابك، افرح وهيص معاهم، واللا اقولك روح للأنفار في الأرض أخبرهم بنجاحك، ومتنساش توزع عليهم الشيكولاته والساقع.

ولكزتني في كتفي وهي تحاول أن تكون بشوشة الوجه وتكمل يلا يا واد، لم يكن في إمكاني- وقتها- الرد عليه، بل زاد حنقي من تصرفه الأهوج بمد يده على وجهي وصفعي بقوة، جعلت دموعًا كثيرة تملأ صفحة خدي، فغادرتهما منصرفًا لحال سبيلي أهيم على وجهي، ليس في إمكاني رد تحية من يهنئوني بنجاحي، وظللت سائرًا حتى توقفت قدامي عند تلك الكائنة الضخمة الشامخة في مكانها منذ ما يقارب المائتي عام، أو يزيد، أتحداها بنظرة ملؤها الغرور وادًّا الفتك بها رغم الذكريات الجميلة التي طالما أستعيد أحداثها وأنا جالس تحت ظلها الوارف الممتد في كل الجهات الأربع من حواليها، وما كان علي فعله تجاهها أن نظرت لأعلى حتى وصلت بنظري لآخر ورقة في أعلى غصن منها، وناديتها:

- كلميني أيتها الجميزة العظيمة، أيروقك ما يفعله بي والدي من وأد لأحلامي وهي مازالت بكرًا لم تصبح جنينًا بعد، سيفرح به حتمًا إن تمهل حتى يكتمل تخرجي، ووقتها ستنمحي الغمامة من عينيه، ويرى موهبتي وفني كم سيجراه معي لاعتلاء أعلى درجة من الشهرة والنجاح، ليتك كنت تعلم يا والدي أن ما رزقني الله به من موهبة فهي تجري في دمي، ولطالما رويتها بالجهد والعرق، حتى أصبحت خبيرًا بها، وسهرت الليالي لا تذوق عيني النوم أحفظها في مخيلتي قبل رسمها على الورق؛ خوفًا عليها من السراب، لكن

واأسفاه وأدها أبي اليوم، وجئت أستسمحك كي أدفنها ما بين جذورك لتكوني شاهدة على كل ما يفعله بي.

وكأني أسمع هفيف الأوراق يصدر زمجرةً فيميل بالأغصان ليتصدر لهيب الشمس بقيظه على هيئتي الغضبى لا أعرف وقتها أهو في صفي يواسيني أم أنه غاضب مني؟ ولم أنتظر طويلًا حيث الرد جاءني سريعًا لأجد والدي يهزني من كتفي برفق ويأخذ بيدي، ويجلسني بجواره تحت ظل الجميزة ويقول أن أنصت يا ولدي لكلام قاله لي جدك من وصايا تناقلها بدوره من والده وجده، وجدِّ جده، وهلمَّ جرّا:

- إياك يا ولدي تفرط في أرضك، دي عرضك، دي شرفك، دي جدرك اللي لو انقطع انقطعت عنك كل أسباب الحياة، بص شوف.. تأمل شجرة الجميز اسألها يمكن عمرها من عمر جد جدودك، أنصت إليها وهي تتكلم، أنصت لهفيف أوراقها وتمايل أغصانها وهزّات فروعها، فتحكي لك- بشموخ وعظمة- أروع الحكايات عن الغزاة والطامعين في خيراتنا وكيف أن أجدادك قهروهم وطردوهم شر طردة، تعرف يا ولدي أرضي دي «واغترف بيده قطعة من الطين المتشبع بالمياه واعتصرها، وهو يقول» دي روحي، أول ما يشقشق الصبح وأفتح عيني أقوم واجري على الشباك، أفتحه وأبص عليها، وطول ما انا شايفها واقفة شامخة في مكانها ترد فيَّ روحي، فأحمد ربي وأشكر فضله، ياه يا ولدي تعرف أنا لو فتحت الشباك في يوم وملقتهاش واقفة صلبة مكانها تلاقيني أطب ساكت، وتقول الله يرحمك يابا.

انهمرت عيني بالدموع دون رغبة مني في ذلك، لكنها على كل حال أرغمتني وكذلك فعل لساني فقد نطق بما لم أكن أريده، وقلت رغم ما أنا فيه من قهر:

- ربنا يطول في عمرك يا والدي، ويديك الصحة والعافية.

- مش هيطول في عمري يا ابني إلا لما تطرد الأوهام والوساوس الشيطانية اللي بتقولك اكره أرضك واتخلى عنها.

- أنا مقولتش أتخلى عنها.

- بس خروجك عن طوعي وعدم تلبيتك لرغبتي بوأد حلم أصنامك وتماثيلك وبناياتك ورسوماتك يبقى بتتخلى عنها.

- بس..

- مفيش بس، ولا أي مبرر يا ابني تقوله هتقدر تقنعني بيه، يلا تقدر تتفضل تروح تغير رغبتك، وتحولها لما أرغبه وأريده لك.

ونظر إلي يتفحصني من أخمص قدمي حتى شعر رأسي وبنبرة ملؤها الخيلاء، أكمل يقول:

- عندما تذهب للبيت وتدخل حجرتك، اقترب من المرآة، وتأمل نفسك مليًا كما أتأملك أنا الآن، ستجد نفسك مازلت ضئيلًا، ولا يزال عقلك في حجم البعوضة، لم يكبر بالقدر الكافي لقراءة مستقبلك كما أقرأه أنا لك بعقلي.

وبعد تفكير لم يأخذ مني وقتًا طويلًا، اتخذت قرارًا بعدم إكمال دراستي والاكتفاء بالشهادة الثانوية، وتوفيرًا للجهد والمشقة والذل والهوان والفشل الذي سيلاحقني أينما ذهبت، وكذلك العار الذي سأجلبه للعائلة بأكملها إن سرت في طريق عصيان أوامر والدي؛ حسمت الأمر وطويت كل ما دون تلك اللحظات التي أعلنت فيها قراري طي النسيان ضاربًا عرض الحائط بأحلامي، وقد رأى والدي هذا القرار صائبًا وربت على كتفي مبتسمًا، وهو يردد عين العقل يا ولدي، ووقتها كانت المرة الأولى التي تجرأت فيها ونظرت في عينيه

أتحداه بنظراتي، ولسان حالي يقول: سامحك الله يا والدي، إلا أنني- كعادتي- رأيت الهدوء والسكينة في عينيه يتحداني هو الآخر برسالة بعثها لي في التو واللحظة مفادها رضائي عنك سيكون شريطة الالتحاق بجامعتي الخاصة، وعهدًا علي يا سيدي بعد أربع سنوات أخرجك منها رجلًا صاحب أحسن شهادة، بها تعرف كيف تتعامل مع البشر من حولك، إنها يا بني شهادة فن التعامل معهم كي تتقي شرهم وتعلم بنواياهم، وهل يحملون في صدورهم تجاهك شرًّا أم خيرًا، أيضًا سأعلمك كيف تتحدث؟ وكيف تكتسب الثقة بنفسك؟ وأيضًا كيف تكون لبقًا في حديثك مع من تتعامل معهم، وهكذا عاد الهدوء مرة أخرى لبيتنا، ومرت أيامي سعيدة جميلة لا يعكر صفوها أي شيء ما دمت منصاعًا لأوامر والدي، أنفذ رغباته سمعًا وطاعة دون حتى المناقشة. وبالتالي فقد طويت صفحة أول حلم لي وأده والدي.

* * *

(٢)
من أنا؟

وكما أعلمتكم في بداية سردي لحلمي باسمي، سوف أعرفكم بشخصي؛ حيث ستتجسد ملامحي أمامكم، وأنتم تقرأون ما بين السطور، وستجدوني ومن لم يستطع فليرسمني في مخيلته كما يريد، لذلك فليس لزامًا علي إعطاء وصف تفصيلي لشخصي أو عمري، فإن أردتم نبذة مختصرة عني فأنا أشبهكم في الشكل والهيئة، وكذلك عمري يماثل أعماركم؛ حيث أني لا أحكي عن نفسي، بل أحكي عن صفة لطالما وجدت فينا جميعًا، ألا وهي الأنانية، أنانية قروي النشأة والنخاع، وبالطبع هذا يبين لكم أني ريفي ابن لرجل سلك طريقًا وعرًا حتى اكتسب منزلته ورفعته وشأنه ومكانته بين الناس، ودفع ثمنًا باهظًا لينال الاحترام والتقدير والمهابة والرفعة، وحتى وصوله لتلك المكانة كان قد دفع فيها سنوات عمره بأكملها، ويا ليته في نهاية الأمر أرضى كل من حوله، فتصرف طائش كالذي فعله معي يهوي بمنزلته وما بناه ويسوي به الأرض، أما أنا فقد سلكت طريقًا سهلًا مكتوبٌ على يافطة كبيرة في أوله، وبخط واضح: «هذا الطريق ممنوع فيه بيع الكلام، إذا أردت الوصول لمبتغاك؛ فادفع المال بسخاء لكل من تقابله، ولا تسألن أحدًا منهم عن كيف وأين ومتي ولماذا، فكل هذه الأسئلة ستكشف مدى غبائك، ولن تصل أبدًا، فقط ادفع واصمت وانتظر» فمن خلال رشاوى نقدية دفعتها عن طيب خاطر لأناس باعوا وطنهم من قبلي حيث الوصول سريعًا لهدفك؛ عليك بيع وطنك في مزاد علني، وأمام الجميع،

دعهم يشاهدون ما تفعله، ولا تخف من شرهم؛ فهم مثلك أيضًا يتحينون الفرصة لفعل ما تفعله، ولا عزاء لمن يوصفون أو ينسبون لأنفسهم الانتماء، فإنهم أول الخونة، إن شققت صدورهم واطلعت على سرهم الدفين لوجدتهم كاذبين فيما يدعون من حبهم لأوطانهم، فهذا الحب زائف وهو فقط أول درجة من درجات اعتلاء سلم تحقيق الأحلام، وبعدها تجد النكران والجحود والخيانة، وباعتراف لا ينقصه الشهود أقر وأعترف أني انضممت لهؤلاء، فما يدور في خلد الجاهلين أن بيع الوطن يكون من خلال تسليم العدو وثائق أو معلومات عسكرية كما كنا نسمع ونشاهد المسلسلات القديمة «رأفت الهجان، ودموع في عيون وقحة، وبئر الخيانة».. الخ؛ فالخيانة هذه الأيام ليست كما الماضي، فقد تنوعت أساليبها وتعددت، فالتهرب من دفع الضرائب خيانة، وتدمير الاقتصاد من خلال الاعتماد على استيراد شتى أنواع السلع وتفضيلها على المنتج المحلي خيانة، وإلقاء الزبالة في الشوارع خيانة، وعدم احترام إشارات المرور خيانة، ودفع رشوة للموظف لتخليص أوراقي بطرق ملتوية خيانة، وتعطيل الموظف لمصالح المواطنين خيانة، وإن كنت أسمعه يبرر أن مرتبه لا يكفي فهو خائن أيضًا لضميره ولأسرته؛ لأنه كان لديه علم بذلك المرتب قبل استلامه مهام عمله، فهو بذلك يدخل المال الحرام على أولاده، وكان من الأولى به أن يلتحق بأي وظيفة أخرى حتى لا يكون خائنًا، وإن تمعَّنا جيدًا فيما نفعله من أفعال سيئة، حتى ولو كانت مشاجرة بين اثنين استخدما بسببها السباب أثناء تعاملاتهما أو هزارهما لينقلب حتمًا إلى الشجار وما يتبعه من قتل أحدهما للآخر؛ لوجدنا أننا جميعًا لا نخلو من الخيانة لوطننا بعدم اتباعنا سلوك الأدب والاحترام أثناء تعاملاتنا مع بعضنا البعض، والأخطر من ذلك كله ما استجد على الساحة من تطور سريع لتكنولوجيا المعلومات؛

حيث أمدنا الغرب بوسائل حديثة أخذناها منه بلهفة، واستخدمناها فرحين بإيجابياتها القليلة، دون معرفة مخاطرها وسلبياتها الجمة، ولهي أشد وأفتك من تلك المدافع والرشاشات والقنابل التي كانوا يحاربوننا بها لتكون الحروب الآن حروبًا تكنولوجية يدمروننا من خلالها؛ حيث وسائل التواصل الاجتماعي «فيس بوك، وتويتر، وواتساب، والياهو، وماسنجر.. الخ» وكل هذه الوسائل أشد فتكًا بنا؛ حيث العدو استطاع من خلال هذه الوسائل التحكم في اقتصادنا، وبالتبعية إملاء قراراته السياسية علينا، فلا هي من أنفسنا نتخذها بل مفروضة علينا، وحتى ثقافتنا التي نظن أننا بأيدينا لا بيد عمرو غيرناها لتواكب تطورات العصر حيث العادات والتقاليد؛ اندثرت ولم يعد لها وجود وما هي إلا إغراءات دفعنا الغرب لتجربتها دون الأخذ في الاعتبار ما ستجلبه لنا من تغيرات قبيحة حدثت لتلك التركيبة الداخلية لذلك الجسد الفرعوني المحافظ على هويته منذ آلاف السنين، فلم يعد ذلك الاحترام الذي يحمله الصغير للكبير، ولا ذاك العطف والحنو من الكبير للصغير؛ فاعتملت النفوس بداخلها الشر والتربص، وبين يوم وليلة تشابكت الأمور وتعقدت لنجد أنفسنا أمام قرارات سياسية ضعيفة واقتصاد مهلهل لن تقوم له قائمة، ومع مرور الوقت تندثر الثقافة، ولنضرب كل هذا في الخلاط نستخلص منه الفوضى والخراب وحروبًا أهلية طالت جيراننا، وتطل برأسها علينا، وتقول لنا لست ببعيدة عنكم فإن عاجلًا أو آجلًا سأزوركم. وليكن في علمكم جميعًا أن ما سببته من خيانة لم يكن في يوم من الأيام حلمي من بعيد أو قريب، لكني وجدته الأنسب لإرضاء نوازع داخلية كانت تقول لي ثراؤك الآن يفوق بكثير ما كنت تحلم به، فدع أموالك نصب عينيك، زدها، نمِّها، كثرها واجعلها قوتك الحقيقية، وما أحلامك التي توهمت أنك تخليت عنها وقت لحظات انهزامية؛

تملكت منك، ما هي إلا سبيل يسعى المحرومون من خلاله للوصول إلى ما تملكه أيضًا من ثروات، وأنت مولود وفي فمك ملعقة من ذهب، فأي ترَّهات تحاول إجبارك على تركها للناهبين والطماعين، وهكذا كانت حجة الشيطان للسطو على تفكيري وإجباري على السير في دروب وعرة لم أجنِ من ورائها إلا التحسر والندامة على ما ارتكبته من أخطاء في حق نفسي قبل حق مجتمعي، فالمصلحة أو مشروعية حلمي كانت تقتضي تغيير شكلي الخارجي، فلم يكن لأحد ليعرفني بعدما اتخذت من «الأنانية» قاعدتي الأساسية؛ حيث الكراهية والحقد والبغض لكل من حولي، وهذه القاعدة أو تلك الصفة لم تكن تخصني أنا فقط، بل هي بالفعل أفضل طباع لدى البشر عندما يريدون الوصول لما يريدونه، ولست وحدي من اتصف بها؛ حيث استخدمت ما يقابلها في المعني من الإيثار وما شابهه من التقرب والتودد لمن وجدتهم حجر عثرة في طريقي ودفعني غروري لتلبس عباءة النفاق، بل ودفع رشاوى لهم على هيئة هدايا مختلفة الأشكال والأنواع لتحقيق حلمي الذي كنت أظنه مشروعًا، ومن حقي رؤيته على أرض الواقع لن ينازعني أو يشاركني فيه أحد، ولم يخطرعلى بالي أن آخرين سيقفون في وجهي، ويقولون لي: لا، توقف، وابتعد بحلمك بعيدًا؛ فأنت خائن لوطنك.

* * *

(٣)

حياتي كما أردتها

تحت شجرة الجميز الكبيرة، كان اختياري المفضل لجلوسي أنا وصديق عمري محمود، الذي لم أتخيل ابتعادي عنه ولو ليوم واحد منذ أن وعيت على الدنيا، فمحمود يقاربني عمرًا، بل ويشبهني لحد ما في الهيئة والشكل، فيجعل من لا يعرفنا يقول عنا بأننا أخوان من دم واحد، ومع أن هذا الغريب أخطأ في قوله، لكنه جانبه الصواب لأننا بنشأتنا سويًّا وبحكم الجيرة أصبحنا مع مرور الأيام أخوين بالفعل، كان مجلسنا اليومي والمعتاد أنا ومحمود بعيدًا عن أي تطفل، نتسامر نتجادل نتناقش في أمور حياتنا اليومية تحت تلك الشجرة الجميزية الكبيرة العمر الضخمة الشكل والهيئة، المورقة بأوراقها، وأني بوصفي لها لأنها سخية لم تبخل على من يجلس تحتها بظلها الوارف الممتد تملؤها الحيوية والنشاط، رغم كهولتها المتخطية بها المائتي عام، وإن اختلفنا تحت ظلها الوارف أنا ومحمود؛ حيث نتخاصم لكنه الخصام الذي لا يدوم سوى للحظات نتصالح بعده بثوانٍ معدودات؛ لأنه لا يوجد في قاموسنا الخاص شيء اسمه الخصام، فيوميًّا وتحت ظلها نستلقي على ظهرينا يضع كل منا يديه مشتبكتين تحت رأسه، نستحضر أحلامنا الوردية وسط الخضرة؛ حيث الصفاء والنقاء والجو البديع، والمياه الجارية من حولنا هنا وهناك في جداول تسقي النباتات والزروع والثمار المنتظرة مثلي في اشتياق ولهفة للقاء الأحبة، فنجد الغيرة تملأ المكان من حولنا من تلك النباتات والزروع والثمار الشاهدة والسامعة لجميع حواراتنا تعانق المياه بسيقانها، فتهب نسمات الرياح المستمدة حيويتها ونشاطها في

جيئتها ورواحها هواءً رطبًا نقيًّا، لن يكون بمقدرة أي دواء صناعي اليد الإنسانية لشفاء أي مرض يلم بجسد أي إنسان أمام هذا الجو البديع الرباني الذي لم تعمل فيه معاول الهدم بعد، وبسبب تلك الحالة المنتشية فيها النباتات والزروع والثمار من حولنا؛ يمتلأ الجو بهجة وسرورًا، فتهتز الأغصان في تمايل مثير وعجيب متراقصة فرحة، فتصنع سيمفونية ولا أروع مما ألفه بيتهوفن وأعجب به العالم، وليست تلك المنطقة المتواجدين فيها والتي يحلم أي إنسان بتواجده فيها تكون ببهجتها هذه من أجلنا لا إنما بما يتراءى لها من لقاء الأحبة والعشاق هناك على مقربة؛ حيث أترك محمود بمفرده لألتقي بمن جعلتني أسيرًا لحبها، فبين أشجار الفاكهة أتوارى، وأنتظر مرورها، أنادي عليها هامسًا حتى لا تسمعني أيٌّ من زميلاتها السائرات أمامها؛ حيث تعمدها إبطاء خطواتها ليسبقنها من أجلي؛ حيث أناديها هامسًا:

- نعمات، بس.. بسسس.. نعمات.

تتلفت حولها، وعندما تجدني تشير لي بيدها، مرسلةً لي تحذيرها:

- خليك مكانك ثواني.

وكأني أسمعها تتعلل لصاحباتها بالذهاب لري ظمئها من ذلك الجدول المائي العذب، والذي لا يبعد عنها سوى أمتار قليلة.

ولا تمر الثواني وأجدها أمامي، وبصوتها الحنون الشجي الذي يروي ظمئي كلما سمعته، وبسحر ودلال تقول:

- أنا جيت أهوه، عاوز مني إيه يا مروان يا ابن عمي؟
- يا سلام يا ولاد! كلمة مروان طالعة من بقك زي العسل.
- يوه يا مروان، عيب.
- ما عيب إلا العيب يا نعمات، لحد إمتى هنفضل نستخبى كده زي

الحرامية واحنا بنقابل بعض!؟

- لحد ما تيجي تقابل عمك نجيب، وتخطبني منه.
- وحياتك يا نعمات، نفسي يكون اليوم دا النهارده قبل بكره.
- وإيه اللي مانعك؟
- مفيش، بس مستني الوقت المناسب اللي أفاتح فيه أبويا، زي ما انتِ شايفة المحصول محتاج رعاية وخدمة، وهو يا دوب مشغول لشوشته، وزي ما انتِ عارفة أزمة السماد بتاع كل موسم.
- طيب يا مروان، عن إذنك دلوقتي.
- رايحة فين يا نعمات؟ أهون عليك تسيبيني لوحدي!
- سيب إيدي يا مروان، زمان البنات بيدوروا علي، ثم أنا سامعة محمود صاحبك بينادي عليك.
- محمود! هو فين ده؟
- بينادي.. بينادي، هو انتَ مش سامعه؟
- أنا سامع صوتك انتِ بس.

انتزعت نعمات يدها من كف يدي، وكالكروان طارت من أمامي بعدما أسمعتني مقدمة لحن جميل، رفرفت بجناحيها لتشدو به وحدها، ما دمت لم أوفي بوعدي لها بالتقدم لخطبتها.

* * *

ياه يا نعمات، أتذكر الآن

- كل كلمة حب خرجت من فمي اعترفت بها لك بشعوري نحوك وهيامي بك.

- كل لمسة من يدي وهي تلمس يدك، مازلت أشعر بها لوقتنا هذا.

- كل همسة وأنا أناديك متخفيًا حتى لا يراني أيٌّ من زميلاتك في العمل مازالت محفورة في ذاكرتي.

- كل نظرة من عيني تنطلق منتشرة بسهامها تجوب الأرض من أولها لآخرها تبحث عنكِ، وتفتش بين الزروع والثمار خوفًا من معاقبتي لها إن لم تعثر عليكِ.

- كل ما كان يحدث بيني وبينك يا نعمات من لقاءات وأحاديث عابرة وابتسامات لا يعرف غيرنا سواها، كانت تدور بي في فلك من الأحلام الوردية انتظارًا لليوم الذي يتحقق فيه الأمل والمراد المرجو.

* * *

كل ما يدور بيني وبين نعمات كنت أحكيه لصديقي وخلي الوفي محمود، وعندما يخيم الليل بسواده، وتكون للجفون رغبة حقيقية للنوم؛ وقتها نفترق أنا ومحمود إلى أن تشرق الشمس مصطحبة معها يومًا جديدًا، فيجتمع شملنا مرة أخرى، خمس وثلاثون عامًا هي عمر صداقتنا، وإني لأتذكر بداية صداقتنا عن طريق أول يوم دراسي جمعنا سويًّا، وكان بعد انتهاء آخر حصة مشينا متجاورين يؤكد كل منا للآخر أن الطريق السائرين فيه هو طريق العودة لمنازلنا، ومنذ هذا اليوم لم يتخلف كلانا عن الاطمئنان على صاحبه، ولشدة تعلقنا بتلك الصداقة صرنا- مع مرور الأيام- كأخوين، سرُّنا لا يطلع عليه غيرنا، وأصبح كل ما يدور في فلك يومنا نبوح به لبعضنا، ورغم الفارق الطبقي بيني وبينه فأنا ابنٌ وحيد لسليمان أحد أعيان المجتمع الريفي الذي نعيش بداخله، أما محمود فهو ابن عمي خفاجة فقير مثل الأغلبية، مع أن والده في يوم ما

من الأيام كان من الأعيان مثل والدي، لا يختلف عنه في شيء، لديه أموال وطين، لكن لتبذيره وإسرافه لم يبقَ شيء لأولاده سوى الفقر.

* * *

وكما تعلمون، فقد اكتفيت بشهادتي الثانوية، وكذلك فعل محمود، لكن كل منا كانت ظروفه مختلفة عن الآخر أجبرته على عدم إكمال تعليمه ونيل الشهادة الجامعية، سواء كانت بكالوريوسًا أو ليسانسًا، وتحقيق أحلامنا التي كُفّنت وأهيل عليها التراب داخل جوف القبر الموحش بظلمته وحكاويه الكثيرة التي سمعناها ونحن صغارًا من أن داخله لا يمكن له الخروج حتى ولو فاتته فوته، فإنه حتمًا سيصعق وتصيبه قشعريرة الصدمة المتمثلة في الخوف الشديد المودي للموت الفوري، وحدّث ولا حرج بعدها من حكايات تقشعر لها الأبدان من الرائين لذلك الجسد الذي دبت في أوصاله الحياة لمدة دقائق أو ساعات ليكون عبرة لمن لم يعتبر، ويعمل حسابًا للموت بعد؛ فأنا من نلت أعلى الدرجات والتي تؤهلني للالتحاق بأي كلية أريدها، وقد كان أول حلم في حياتي قد وأده والدي وأهال عليه التراب؛ هو التحاقي بكلية الهندسة، والتي طالما حلمت بدخولها لأكون مهندسًا معماريًّا أرسم وأصمم على الورق لتكون واقعًا من أجمل الرسومات لبنايات فاخرة وأنيقة تفوق في جمالها البنايات التي شاهدتها على شاشة التلفاز وعلى صفحات الجرائد والمجلات متمنيًا في يوم ما نيل شهرة مصممين كبارٍ كحسن فتحي صاحب عمارة الفقراء الذي كان الدافع الرئيسي لتصميمي على إكمال تعليمي في هذا المجال، وقلت وقتها لزملائي المحاولين التقليل من موهبتي بكل فخر: ولم لا!؟ فهو من أسرة ثرية مثلي- أي حسن فتحي- ومن ناحية أخرى أحببته لتأثره بالمجتمع القروي، ووده العيش بينهم، وذلك من خلال تمنيه أن يكون مهندسًا زراعيًّا، لكن لعدم استطاعته حينها

الإجابة في امتحان القبول؛ فشل في الالتحاق بها، وكان تعلقي الشديد به منذ تلك اللحظة التي قرأت فيها عنه للدرجة التي جعلتني أبحث عن كل مؤلفاته وأقتنيها، وتسلية وقت فراغي بالاطلاع على ما فيها من رسومات بداية من عمارة الفقراء- العمارة الإنسانية- العمارة من أجل الناس- الطاقات الطبيعية والعمارة التقليدية- قصة مشربية- وانتهاءً بيوطوبيا، هذا غير الكثير من أبحاثه في مجال العمارة والإسكان والتخطيط العمراني، بالإضافة لتصماميمه لجميع المنازل والفيلل والاستراحات والمستشفيات، وكذلك الأضرحة والمصانع والمدارس والشقق السكنية التي صممها كانت في حوزتي وبين يدي، إلى أن وصل بي الأمر بشعوري كوني أنا حسن فتحي القرن الواحد والعشرين، الذي وصل إلى العالمية من خلال فنه المعروف عالميًّا، وبسببه فقد برزت موهبتي في كراسات الرسم، ومن أجمل الرسومات الهندسية لأبنية متنوعة الأشكال من عمارات وفيلل وقصور وأبراج سكنية من تصميمه أتقنت رسمها متمنيًا في الواقع تصميمي لمثيلاتها، بل وحمل إحداها لاسمي بارزًا عليها، وليس كحسن فتحي فقط، بل والمثّال الراحل محمود مختار صاحب تمثال نهضة مصر، والذي لطالما تكرر اسمه على مسامعي من والدي، من أنه ابن قرية طنبارة التي لا تبعد عنا إلا القليل؛ حيث كان والده العمدة إبراهيم العيسوي صاحب جد والدي الروح بالروح، ومن خلال إذعاني لأحاديث والدي المتكررة عنه، ومن أن جدي لوالدي زاره مرات كثيرة في مسكنه القاهري، حيث كان يذهب إلى هناك لبيع محصوله لتجار سوق الخضار بروض الفرج، ومن خلال حكايات كثيرة سمعتها عن شهرته التي وصلت للعالمية؛ كانت الدافع لأولى بدايات اهتمامي بأعماله، والتي مهما مرَّ عليها الزمن فإنها خالدة مثله خاصةً تمثال نهضة مصر، والذي برعت أيّما براعة في رسمه في كراسات الرسم، ومن خلال اهتمامي وشغفي بأعمال هذين

الخالدَيْن بأعمالهما رغم رحيلهما عن دنيانا منذ عشرات السنين حبّبا إلى قلبي هوايتي المفضلة، وكنت أحلم يوميًّا بالوصول يومًا ما لمثل شهرتهما، وأذكرعندما زار موجه الرياضيات مدرستي الثانوية- وأنا في الصف الثالث الثانوي- ورأى رسوماتي الهندسية الجميلة التي تدل على موهبة فذة سيكون لها شأن كبير؛ أشار علي بتنميتها بجانب الرسم من خلال القراءة والاطلاع على أعمال مشاهير عديدين في مجال فن الهندسة المعمارية، فلم أُكذب خبرًا وحولت نهمي الذي لا يشبع من هذا الفن وأصبح شغلي الشاغل البحث عن أعمال وتصاميم وكتب الرواد، بداية ببونانو بيزانو مصمم برج بيزا المائل، والفرنسي غوستاف إيفل مصمم برج إيفل، والأمريكي فرانك لويد رايت رائد العمارة العضوية، وإفرايم غولدبرج الكندي، وفوميهيكو ماكي الياباني، والألمانيَّيْن غوتفريت بوم وألبرت كان، ورائد الهندسة المعمارية الحديثة النمساوي أدولف لوس، والإيطاليَّيْن ألدو روسي وكارلو سكاريا، وأبو الحداثة الفنلندي ألفارآلتو والفاروسيزا أشهر معماري البرتغال، وغيرهم من المعماريِّين العرب الذين لم يقلوا شهرة عن هؤلاء، ومنهم- على سبيل الذكر لا الحصر- أستاذ الأجيال محمد كمال إسماعيل الذي أوكلت إليه أعمال توسعة المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، وتصميمه للعديد من الهيئات كدار القضاء العالي ومجمع التحرير، وكذلك المعماري نعوم شبيب مصمم برج القاهرة، وعلي أحمد رأفت ورمسيس ويصا واصف، والمعماريان الفليسطينيان راسم بدران وجعفر طوقان، والمعماريان العراقيان رفعت الجارحي ومحمد صالح مكية، بالإضافة إلى الراحلة زها حديد الحاصلة على جائزة بريتزكر (نوبل الهندسة المعمارية) في مجال التصميم المعماري، فكل واحد من هؤلاء- وغيرهم- نال قسطًا من وقتي، اطلعت فيه على أعمالهم وتصاميمهم، وقرأت عنهم، وتمنيت نيل ربع ما نالوه من شهرة وصيت.

أحلام تمنيتها، لكن ما وقف حجرعثرة أمام تحقيقها هو أنانية والدي نفسه الذي ما إن سمع من أساتذتي عن أحلامي هذه التي لم أكن بعد لأطلعه عليها، فكنت منتظرًا الوقت المناسب، وتحديدًا بمجرد ظهور نتيجة شهادة الثانوية لأتفاخر أمامه بمجموعي الذي لم يحصده مثلي إلا القليلون من زملائي، لأفاجئ به وبدون سابق إنذار، بل ومحاولته بقدر الإمكان إثنائي عن تحقيقه، ولأدخل الكلية التي يريدها لأدرس فيها بدلًا من مجال المعمار الذي سيأخذني حتمًا منه إلى حيث تنفيذ المشروعات السكنية التي بدأت الدولة توليها الاهتمام في محاولة منها لتسكين آلاف الفقراء، الذين يسكنون العشوائيات التي تنخر كالسوس في كل مدينة سكنية، حاول مصممها أن تكون أحسن من مثيلاتها في الجوار، لكن ذلك المصمم نسي أو تجاهل أناس تلك الفئة المهمشة المنسية الساكنة ذلك الجانب الجنوبي المسمَّى بالصعيد، نازحين تحت وطأة الفقر باحثين عن عمل يسدون به جوعهم وجوع أطفالهم، فهم كالنار في الهشيم تجدهم بأعداد كثيرة منتشرين في كل مكان، يرضون بأقل القليل في كل شيء بدءًا من الأجر والطعام، وحتى المسكن الذي يكون في الغالب عشًا من الصفيح في البداية، وعلى أطراف تلك المدن يبنونها، وخطوة خطوة وتحت كنف الليل تتحول العشش إلى مساكن تبنى بدون تخطيط أو دراسة أوعمل مجسات للتربة، التي تكون في الغالب تربة صخرية أقل منها تربة جيرية لا تصلح لتحمل تلك الأعداد الهائلة التي أصبحت بين ليلة وضحاها تستوطنها وتدعي أنها ملك لها توارثتها من الآباء والأجداد، ناهيكم عن آلاف الشباب الذين يتخرجون كل عام، ويتمنون الزواج والاستقرار، فيصطدمون بمشكلة السكن الواقف حجر عثرة في تحقيق مشروعية أحلامهم، ولكن محاولات والدي فشلت معي في إثنائي عن تحقيق حلمي، وبعدما يئس مني وباءت محاولاته جميعها معي بالفشل؛ اشترط علي إن كنت أُريد دخول كلية

الهندسة فلأدخل فقط لنيل الشهادة وليس للعمل بها كما أريد، ومن خلال الشد والجذب بيننا فترت عزيمتي بعدما سمّم فكر والدتي لأجدها هي الأخرى بين يوم وليلة تقف ضدي وفي صفه، ورؤيتي لعينيها الباكيتين تدعو في كل صلواتها أن أغير وجهتي، ومع صدها لمحاولاتي بإفهامها لم تستجب، وصممت على مجافاتي إن لم أستمع لرأي والدي والنزول عند رغبته بدخول كلية الزراعة، وأمام هذا الموقف ونزولًا عند رغبتها، بل وعندًا مني حسمت الأمر وأرحتهما نهائيًّا من كل هذه الزوابع التي أقلقتهما بها على مستقبلي، مفضلًا عدم إتمام دراستي والاكتفاء بما درست رغبة في عدم خسارة والدي وغضبه علي، وعدم فقدان والدتي أيضًا التي ظلت طريحة الفراش، لم أعرف وقتها في هذا الوقت هل كانت مدعية المرض، أم أنها كانت مريضة بالفعل؟ لكن على كل حال عندما علمت بتغيير موقفي وجدتها معافة تمامًا مما أصابها من أمراض، وتضامنًا مني من جهة ثانية، بل وإشفاقًا على محمود الذي فضل هو الآخر عدم إكمال دراسته الجامعية، مع أنه كان يحلم بأن يكون طبيبًا لكن مجموعه لم يؤهله لذلك لأسباب كثيرة منها عدم وصول المعلومة الناقصة التي كان يلقيها أساتذتنا الأفاضل على مسامعه وإيصالها ناقصة مبتورة، ومن يريد استكمالها فعليه بأخذ دروسٍ خصوصية تُكلف وتثقل كاهل الأسر المصرية مجتمعة مليارات الجنيهات سنويًّا، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ضيق ذات اليد والانهيار المفاجئ في ثروة والده، والتي لم يتبقَّ منها شيء، ففضل هو الآخر نسيان ما كان يحلم به، والنظر للواقع المرير الذي فرض نفسه بقوة على أسرته التي حولت نظرها فجأة إليه تقول له: لا تخلع جلبابك ولا تغير جلدك أرجوك امسك الفأس، وعد إلينا آخر النهار وبيدك جنيهات قليلة ستكفينا حتمًا شر الحاجة.

في ذلك الوقت، أراد محمود من خلال محاولاته المتكررة معي أن يعيدني

من عالم الأحلام الذي أذهب إليه يوميًّا للقاء نعمات، وأتركه وحيدًا دون أن أُعيره أي اهتمام، فقال لي ممسكًا دفة الحوار لاستثارتي بعد إعلامي له بقرار عدم استكمال تعليمي الجامعي:

- أيوه يا عم تكمل تعليمك متكملش ما هي مش فارقة معاك، اتولدت وفي بقك ملعقة دهب، مال وعز وجاه وعزوة، ووحيد والديك، أطيان كثيرة تيجي مية وخمسين فدان من أجود أراضي السنطة، بل في الغربية كلها.

- اللهم لا حسد، قل أعوذ برب الفلق.

استأذنت العالم الذي كنت أفضل العيش بداخله مختليًا بنفسي لدقائق أفكر في نعمات، كان يتركني محمود وقت دخولي إليه لإعداد دور شاي مضبوط يعدل الدماغ الملسوع لسعًا من أشعة الشمس المتوهجة والمتعامدة علينا في ساعة الظهيرة مجبرة الظل الجميزي التزحزح عن مكانه بعيدًا هناك، يظلل الجدول المائي كي لا يصاب هو الآخر بذلك القيظ الصيفي، واعتدلت في جلستي مكملًا كلامي:

- في إيه يا محمود؟ مالك النهارده!

- لا مالي ولا غيره، دا مالك انت، وأنا يادوب شغال عندك، هو أنا مش من حقي أقولك ع اللي في قلبي زي ما انت كمان بتخرج اللي في قلبك.

أمسكت بدفة الحوار هذه المرة وغيرتها تمامًا في المسار الذي أريده أنا لا الذي يريده محمود:

- يا بني هو الحب عيب؟

وأجبت على نفسي بعدما تحجرت الكلمات في فم محمود رافضةً الخروج كما الدموع المتحجرة داخل مقلة عينيه رافضةً هي الأخرى سماع كلامه

بالانهمار على خديه:

- لا عيب ولا حاجة.

- العيب هي من ترضي بك وتحبك من أصله وأنت فقير دُقّة.

- يا محمود، الفقر مش عيب، والحب مالوش دعوة بالغني ولا بالفقير، ولا بالعلم أو بالجهل، والدليل حبي لنعمات، أنا زي ما بتقول غني وهي بنت نجيب ابن عم والدي الذي لا يملك من الدنيا إلا فأسه، بها يسد جوع أولاده، وزد على ذلك أني كنت سأبقى في يوم من الأيام مهندسًا معماريًّا أملأ الدنيا صيتًا بموهبتي التي وأدت لتعنت غير واضح وغير مفهوم من والدي، أضف إلى ذلك أن نعمات اكتفت بالشهادة الابتدائية ولم تستطع إكمال تعليمها لنفس ظروفك.

- آه، اشجيني يا فالح وقلب المواجع قلّب، آه لو تجرب مرة إنك تبات من غير عشا. "واعتدل محمود في جلسته ولكزني بيده في كتفي قائلًا: ربنا ما يحكمك على ولايا.

أردت تلطيف جو الكآبة الذي سحبه محمود من فوقنا مباشرةً من سحابة كانت مارة من فوقنا مباشرةً أظنها سمعت كلامه فأشفقت عليه ظانة أن أشعة الشمس هي من جعلته يلفظ همومه من فمه هكذا دون مقدمات أو دون سبب واضح:

- بقولك إيه يا محمود، فضنا من سيرة الغنى والفقر دي لاحسن والله العظيم إنت عارف مش هصاحبك تاني، ولا هفضفضلك باللي في قلبي من هنا ورايح.

- وعلي إيه يا عم، قول يا فالح وفضفض، لعل وعسى يمكن ربنا يستجيب

لدعائي وأبقى من الأعيان زيك، مع إن دا من رابع المستحيلات، ربنا يسامحك يا خفاجة يا والدي، كان ليه بس التبذير والإسراف!

- اسكت يا محمود، وسيبني لحالي، أنا مش فاضيلك ولا فاضي لغمك دلوقتي.

أذعن محمود وسكت صابًّا غضبه على دور الشاي متطلعًا بفضول لفورانه:

- يادي دور الشاي، هي ناقصاك إنت كمان، يا سلام وآدي الولعة اتطفت، ودا من إيه.. الهوا عمال يهفهف من حوالينا.

تركته يكلم نفسه، وعدت أتذكر حديثي اليومي والمعتاد، وما يدور بيني وبين حبيبتي نعمات من اللقاءات العابرة، وما يحدث خلالها من نظرات إعجاب متبادلة، فهمس للشفاة المتمنية الاقتراب من شفتيها، وتقابل وجهينا يلفح لهب أنفاسنا الزروع والثمار من حولنا لدرجة لو اشتعلت النيران فيها فلن نبالي وتتلاقى أيدينا فتتشابك في تحدٍّ عجيب لإرادتنا الخجولة التي لم تفكر في فعل ذلك، لكن الرغبة الجامحة التي ليس من الممكن في هذا الوقت التحكم في لجامها، ثم يحدث الالتصاق الذي يكون للحظات ويتراجع احترامًا لما بيننا من حب ننوي بإرادتنا تحويله لزواج أبدي، فنبتعد انحناءً لحبنا، ورويدًا رويدًا مع ابتعادنا كل إلى طريقه ترتفع الأيادي التي تشير من بعيد خلسة وخوفًا من أن يراها أيٌّ ممن حولنا، وهلمّ جرّا إلى الهمهمات التي لا تقول غير كلمة أحبك أحبك أحبك.

استعادني محمود من عالمي بلكزة من قبضة يده في كتفي، وهو يقول:

- الشاي يا مروان، هاييييييي.. ما قولنا الشاي يا بشر.

ولما وجدني لا أرد عليه رغم هزاره الذي بدا لي ثقيلًا؛ استفزني وقال لي بمباغتة منه:

- كلامك عن حبيبة القلب مكرر منذ أيام، لا تنتقص منه شيئًا، ولكنك تزيد عليه من بعض خيالاتك وتوهماتك، وما تمليه عليك أحلامك.

وبذكائه المعهود وسرعة بديهته أراد أن يعلمني أنني لم آت بجديد اليوم، وأن ما بحت به له مما دار بيني وبين نعمات هو ما أُكرره على مسامعه منذ أيام، وكان صادقًا عندما قال لي وهو يكمل كلامه:

- وأنا بمنأي من أن أخسرك يا مروان، لو أخبرتك أن نعمات أعرضت عنك وصدتك من أسبوع فات، فاكر لما نبهتك بالكف عن ملاحقتها في كل مكان تذهب إليه؟

- وله يا محمود، إنت جبت الكلام دا منين ياوله؟

- سيبني أكملك يا فالح، خد عندك كمان لما أفكرك هي قالتلك إيه كمان..

- قالت إيه يخرب بيتك؟

- هو انت جيبت جديد يا فالح! ما هو عمك خفاجة خربها بالفعل من زمان وقعد على تلها، المهم متحاولش تغير الموضوع، فاكر لما قالتلك إنها تخشى من القيل والقال بعدما بدأت عيون صاحباتها من الفتيات يلاحظن ما يحدث بينكما، لكنها صدتهم بقولها لهم إن لم يطردوا الوساوس والأوهام التي يتخيلونها لتكون السبب الرئيسي في طردهم من عملهم، من خلال شكوى ستقدمها شفاهةً لأبوك سليمان، فالتزمت الفتيات الصمت خوفًا من ضياع الأجرة التي يتقاضونها يوميًا جرّاء عملهم لديه.

فقاطعته، وأكملت أقول:

- فبها يحاولون مساعدة أهاليهم في جهازعرسهم الذي يأتي لا محالة، ويخيب ظنهم ودعاءهم بأن يتمهل وينتظر حتى يكملن عامهن الثامن عشر، فلا يكذب الوالد خبرًا، ويجري مهرولًا إلى الوحدة الصحية لاستخراج شهادة تسنين، تؤكد أنهن أكملن السن القانوني للزواج، وهكذا يتم تحايل الجميع على القوانين التي وضعت من أجل حمايتهن، بدايةً من الأم التي لا تكون إلا غراب سلام، ولا يهدأ نعيقها إلا برؤية ابنتها بفستان الفرح، حتى ولو كان عمرها اثني عشر عامًا، فهي بذلك انتصرت أمام مجتمعها بتلك الزيجة رافعة رأسها، تقول للأرض اتهدي ما عليك قدي خارجة لسانها لجاراتها تقول لهم- صراحة-: تعرفي تبقي زيي وتصطادي عريس وتجوزيه لبنتك، مرورًا بالآباء الذين ما يزالون في عصر الظلام والجهل والتخلف، والسير خلف أناس جهلة أيضًا لم يكونوا يومًا يحملون شهادة أزهرية، ولم يتلقوا علمًا بل فقط يرتدون عباءة الدين، ويتخفون خلف ذقون زائفة، متخذين طريق الدين لتحقيق أغراضهم الدنيوية الحقيرة، وقد لقبهم الجهلة بالشيخ فلان يفتي بأن قوانين الدولة حرام، والحق زوج بنتك قبل ما تبور وتفضل في «أرابيزك» ومحدش يرضى بيها، وهكذا هو الحال يا سادة في كل القرى، وحدث ولا حرج.

دارت بمخيلتي تلك المشكلة التي باتت الأخطر في المجتمع القروي، فرغم اهتمام الدولة في الآونة الأخيرة ببناء المدارس والتأكيد على مجانية التعليم وأحقية جميع أبناء الوطن في تعليم أبنائهم، حيث لا فرق بين غني وفقير؛ فالجميع سواسية إلا أننا نجد أن الثقافة الغالبة في المجتمع القروي هي توقف البنت عند سن معين في التعليم كحصولها مثلًا على الابتدائية أو الإعدادية، وبعدها "هوب استوب جوازك أحسن من تعليمك"، وإذا تحدثنا عن أمور أخرى كثيرة فآهٍ وآه من تلك الأمور التي لا تستطيع القوانين وحدها تغييرها؛

حيث الناس بجهلهم يتحايلون على تلك القوانين، إذًا فالمشكلة الحقيقية تكمن في التوعية بتسليط الضوء على المخاطر المستقبلية من تلك التحايلات، وكذلك مخاطرالجهل الذي أصبح جاثمًا على مجتمعنا، لا يريد الابتعاد عنه إلا بتدميره، لكن آهٍ وآه من لكن- لا حياة لمن تنادي.

- وله يا محمود، قوم من هنا الله يلعنك، أنا نفسي أعرف انت عرفت ازاي، إوعى تكون كنت بتتصنت علينا.

- هأو، استدرجتك يا خايب، علي النعمة انت واد خايب.

- ماشي يا محمود.

قام مهرولًا من أمامي وأنا أبحث عن حصيات أقذفه بها، وعندما وجدته قد ابتعد عني متفاديًا كل الحصيات لم أجد أمامي إلا دور الشاي الذي بذل مجهودًا في صنعه لأكبه على الأرض:

- وآدي شايك يا محمود أهووووه، يلا بقى يا فالح روح شوف شغلك.

وعندما وجدته وقد تاه عن عيني وسط المحصول، عدت لمخيلتي أناجي نعمات أتخيلها أمامي، فأقول لها أحلى ما أتصيده من كلام في هذا الوقت،

نعمات حبيبتي يا بنت العم يا جميلة الجميلات، يا ذات الوجه الملائكي الوديعة الهادئة المتأنية في كلامك لا تخرجيه من فمك إلا وأنت تعلمين أنك ستحاسبين عليه إن كان خطأ، أو تجازي عليه بالشكر والثناء إن كنت تضعينه موضعه الصحيح.

نعم، فنعمات قليلة الكلام، شديدة الذكاء، كل كلمة تقولها تدل على موقف بأكمله، لكن شتان الفارق بيننا من حيث المستوى والمكانة الاجتماعية، فوالدها عمي نجيب ما هو إلا أجير يعمل بحقل والدي سليمان، يُشرف معي

على أرض والدي، يأتي بالأنفار التي تزرع وتحصد وتجمع، وفي آخر اليوم يمد يده إلى والدي ليأخذ يوميته مثل باقي الأنفار، فكيف لي بمقابلتها بعدما أسمعتني هذا الكلام؟ وزادته بأننا لابد لنا من أن نفيق من أوهامنا التي لن يكتب لها التحقق مادامت هي ابنة لنجيب الأجير وأنا ابن لسليمان صاحب الأطيان والجاه والحسب والنسب!

عاد محمود من مخبئه في مفاجأة لم أتوقعها، وهو يلقي بكرة من اللهب في وجهي، فأسقطتها من فوري لتسخن الأرض فجعلتني أغلي وأفور كغليان القدر فوق النار، انتفضت وهببت واقفًا أُريد منه توضيح كلامه الملئ بالألغاز، فأعاد محمود على مسمعي لكن بطريقة أوضح، ودون طرق ملتوية أو متعرجة:

- يكون في علمك يا مروان، مش هتتجوز من نعمات إلا إذا وافق أبوك الحاج سليمان الذي لن يرضى بأن يزوج ابنه الوحيد إلا من ابنة أحد الأعيان مثله، وأنه لن ينظر تحت قدميه ويمد يده لمن يعمل لديه أجيرًا، ويقول له أرجوك ابني مروان يريد الزواج من ابنتك فوافق ولا تردني خائبًا، حتى ولو كان هذا الشخص نجيب ابن عمه الأمين الحافظ لماله وهو غائب عنه، وبسببه ماله هذا يزيد وينمو.

استشطت غيظًا وغضبًا من كلام محمود، وأقسمت له ألا يمر اليوم إلا وأهل السنطة جميعًا، بل والبلاد المجاورة يعلمون بأمر خطبتي من نعمات، وتركته لأشق طريقي وسط الزروع والثمار قاصدًا بيت نعمات.

أسرع محمود ورائي يستحثني على التمهل والانتظار قائلًا لي- وهو يهرول ورائي- أنه من العيب أن أذهب هكذا وأنا حافي القدمين، هذا غير ملابسي

التي لا تناسب حدثًا سعيدًا مثل هذا، ناهيكم عن هيئتي وهندامي اللذيْن يدلان على أنني أنزل وسط الأنفار أعمل مثلهم حتى لا يصلهم إحساس بأنني أفضل منهم، وأني مثلهم أشاركهم أفراحهم وأحزانهم، وسأتزوج حتمًا من ابنة فقير مثلهم، فنظرت له والغيظ يأكلني أريد كتمانه لكني لا أستطيع، علمت- وقتها- أن محمود يهزر معي، لكن هذه المرة ليست بهزار، وأنه بالتأكيد كان على علم بطريقة أو بأخرى من خلال طريقة كلامي معه وبوحي له بمكنون أسراري مما دار بيني وبين نعمات آخر مرة قابلتها فيها، وهي بالتأكيد من أفشت له بسر هذه المقابلة عندما كانت تشتكي له همهمات صاحباتها التي كانت حتمًا ستفضحها بعدما أهملوا تهديدها لهم وخوفها من طرح الشكوى على والدي ففهمت وقتها أن المغزى من شكواها هي أن أقطع الألسنة هذه بتقدمي لأبيها لخطبتها، وهذا لن يحدث فهي تعرف والدي وما قد يفعله وقتها من طردها وطرد والدها قبلها بادّعاء أنها ترمي بحبائلها على ولده الوحيد كي أتزوجها، ولولا طمأنة محمود لها عندما اعترف لي بعد ذلك أنها بالفعل أسرت إليه بما دار بيني وبينها من أنه سيعمل كل ما في وسعه من تهديد صريح لهن إن كن لن يلتزمن الصمت أثناء عملهن؛ لكان مصيرهن الحتمي الطرد.

* * *

وجدت نفسي أحمل بين يدي نعلي، فذهبت ببصري إلى حيث تقف قدمي الحافيتين، فهدأت وبادلت ابتسامة محمود بابتسامة رسمتها على شفتي، وقلت له:

- والله من غيرك مش عارف أعمل إيه؟!

واحتضنته وشكرته، فربت محمود على كتفي، وأمرني بالذهاب لنيل مرادي، ودعا لي بالتوفيق.

شققت طريقي نحو المرجو والمأمول بخطًى ملؤها الثقة والطمأنينة تاركًا خلفي أوفى الأوفياء، فلولاه ما كنت مقدمًا على تلك الخطوة الجريئة.

أحلام وردية بدأت تلوح لي في الأفق، مرتسمة على لوحة مزركشة بألوان الطيف، تزين قلبها نعمات جالسة بفستان الزفاف تنتظرني مادة يدها، تقول لي بكل ودٍّ: تعال قرّب يا مروان يا حبيبي.

جعلت كل تركيزي منصبًّا على كيف وماذا سأقول، ومن ستفتح لي الباب، ومن سيكون في استقبالي والترحيب بي؟ هل هي نعمات أم والدتها عيشة أم والدها عمي نجيب؟

رددت على نفسي بإشارة من يدي بأن والدها ليس بالإمكان أن يكون هو أول مستقبِلي، فأنا أعرف أنه الآن في فترة نوم عميق، إنها فترة القيلولة ولابد له من راحة جسده المنهك منذ الصباح الباكر في إشرافه على العمال، أجابني عقلي الباطن إذًا ستكون نعمات أو والدتها، أيٌّ منهما ستفتح لك الباب، وارتفعت يداي معًا تؤمم ورائي بأن تكون نعمات هي من تفتح لي، وتستقبلني بوجهها البشوش، وفي أثناء تجولي بين أماني وأمنياتي مرقت من جواري سيارة كادت تفتك بي لولا عناية الله وانتباهي لمجيئها في اللحظة الحاسمة، توقفت السيارة على بعد أمتار قليلة مني، نظر السائق ومَن بجواره للخلف ليريا إن كان حدث مكروه للشخص الذي كان سيدهسانه، وعندما تأكدا أنني بخير، وأنني مروان ابن عمهما أشارا لي وأكملا طريقهما يشقان العباب دون أن يأبها لما سبباه لي من شعور وإحساس بالمرارة، ليس لي فقط

بل عندما يمرقان بسيارتهما بجوار أي سائر بالطريق وما يحدثانه من إثارة للأتربة تجعل من البيئة النظيفة النقية المتسمة بالهدوء؛ بيئة يغلب عليها الضجيج والضوضاء، تراجعت عن نهرهما عندما ثبت لي أنهما التوأمان وليد وياسر أولاد عمي يونس كبير العائلة، أشحت لهما بيدي ولولا أن كل تركيزي منصبٌّ فيما أنا ماضٍ إليه؛ لكان هناك كلام آخر معهما، فكثيرًا ما سمعت من الأُجرية والأنفار العاملين في حقلي بل وفي حقل والدهما يونس الذي تعادل مساحته مساحة أرض والدي بأفعال التوأمين الشنيعة من مطاردتهما لهم وسط الطريق بسيارتهما غير عابئين بما يحدث لهم، فأقسمت أمام الأُجرية عندما سمعت منهم ذلك بملء فيهي إن حدث ما يقصونه علي أمام عيني فلن أتركهما إلا وقد أتيت تهشيمًا على سيارتهما التي يتكبرون بها على خلق الله في الرايحة والجاية، وأنني لن أعمل حسابًا لكبيرٍ أو صغيرٍ في العائلة، ما دام الحال قد وصل لهذا الحد، فمنذ إتيان عمي لهما بهذه السيارة التي تقلهم لجامعتهم، وهم ينظرون للخلق باستعلاء وعلياء، يحاولون دهس الناس دون أي اهتمام بشعورهم، فإن كان التعليم يوصل الإنسان لهذه الدرجة من الكبر فليذهب التعليم والتحصيل الدراسي إلى غير رجعة، تلفت حولي يمنةً ويسرةً، ولما لم أجد في الطريق غيري تنهدت وحمدت الله أنه لم يرني أحد، وإلا لكانت الأقاويل تتناثر هنا وهناك بأنني لم أنفذ وعدي، وحنثت بيميني، وتركت هذين الشابين يمران من تحت يدي دون عقاب.

* * *

تشجعت، ونحيت الخجل جانبًا، وتنفست الصعداء عندما سمعت صوت نعمات من خلف الباب، تقول:

- حاضر ياللي ع الباب، حاضر.. أنا جاية اهوه.

فتحت الحبيبة الباب، فقابلتها بابتسامة مشرقة عذبة، فيها الحياء والحب، فيها الصفاء والوفاء، تسمرت الأقدام مكانها، ولم يعرف لساني طريقه للكلام، هي النظرات وحدها الكفيلة بالبوح بكل شيء:

- حبيبتي نعمات.
- حبيبي مروان.
- فراقك عني لأسبوع كان كالدهر الذي... أحبك، أحبك.
- إيه اللي جابك دلوقتي؟
- جاي عشان أطلب إيدك.
- تطلب إيدي! يعني إيه يا سي مروان؟
- يعني أتجوزك على سنة الله ورسوله يا نعمات.

أفقنا على صوت عيشة والدتها، تقول:

- مين يا نعمات؟

ولما لم تجب نعمات العائشة في أحلام وردية مثلي خائفة من الرد على والدتها فيغيب عنها حلم جلوسنا ملتصقين بلباس العرس، والناس من حولنا يهنئوننا ويدعون لنا بدوام السعادة والسرور، تقدمت عيشة نحونا ووقفت مدهوشة مذهولة مزبهلة، تنظر لنا وقد وجدتنا جسدين أُفرغا علينا طبقة من مادة الجبس الممزوج بالماء، فأصبحنا كتمثالين من تماثيل محمود مختار لا نتحرك، نظراتنا وتعبيرات وجهينا ويدانا الموشكتان على التلامس، فالتشابك؛ تفضحنا أمامها، نظرت لها بطرف عيني التي لا تني البعد بنظرها عن نعمات خشية افتقادها، وقد رأيت السعادة الغامرة، وقد شملتها وتهللت أساريرها،

ورفعت وجهها عاليًا تدعو الله في سرها أن يلم شملنا، وألا يقف في طريق حبنا شيء يكون عثرة في تحقيق حلمنا وتتويجه بالزواج، وتأهبت لتستعيد دورها الأمومي الذي تخلت عنه لمدة لا يعرف مداها إلا الله من خلال هذه الدقائق الغير معلومة العدد، والتي رأتنا خلالها أمام عينيها نتبادل الحب الذي طالما قصته عليها نعمات بحذافيره، وتمنت دوام تلك الدقائق أبد الدهر، تنحنحت عيشة فعلمت نعمات بأمر مجيئها، وبدورها أرادت نعمات الغير عالمة بأني أعلم بأمر مجيئي والدتها تنبيهي وأن تفيقني من أحلامي، لكني لم أعد أبالي بوجودها، فحركت شفتيها بصوت غير مسموع: فوق يا مروان، أمي واقفة ورايا. فاستفقت مستجيبًا لتوسلاتها؛ لأكون في مواجهة والدتها التي انتزعتني من عالمي الآخر، وهي تقول بكل ود:

- اتفضل يا سي مروان.

- السلام عليكم يا مرات عمي نجيب.

- اتفضل يا بني، ادخل وقفتك طالت ع الباب.

مددت بعنقي خلفها أبحث عن نعمات، فلم أجد لها أثرًا، فأخذت أُوالي كلماتي وأنا مشرئب أكثر بعنقي أبحث عنها، وأقول:

- بقولك إيه يامرات عمي، قبل ما ادخل أنا هطلب منك طلب، وياريت مترفضيش.

- خير يا سي مروان.

- سي إيه يا مرات عمي! أنا مروان وبس.

- العين متعلاش على الجاحب يا بني، إنت سيدي وسيد الناس كلها.

- الله يكرم أصلك يا مرات عمي.

سكتُّ لبرهة لأزيد من حيرة عيشة، التي قالت:

- اتكلم يا مروان، في حاجة؟

- أيوه يا مرات عمي، أنا م الآخر كده عاوز...

سكتُّ لأبلع ريقي، فقالت:

- اتكلم يا مروان، عاوز إيه؟ حيرتني معاك!

- عاوز أتجوز نعمات على سنة الله ورسوله يا مرات عمي.

قلت جملتي بسرعة لم يعهدها لساني مني وأنا المتهمل المتأني، والمفكر في كل حرف آمر لساني بإطلاقه خارجًا من فيهي.

- يا ألف بركة، دا يوم المنى.

انطلقت نصف زغرودة من فم عيشة، تنبهت على أثر انشطارها أنه من الواجب والأصول والمعقول أن تأتي والدتي الست خيرة أولًا تجلس معها ليهيئا الجو لربيِّ الأسرتين كما هو المعروف والمتبع.

- العين ما تعلاش على الحاجب، لكن ما تفعله يا مروان الآن ما هو إلا لعب عيال أو طيش شباب.

سمعت عينيها تفضحها بتلك الجملة التي تود قولها لي، لكنها راجعت نفسها وكتمت فرحتها داخل صدرها، وقالت لي:

- والله يا بني مانا عارفة أقولك إيه! إن كان علي دا يبقي يوم المنى، لكن يا بني كان من الأصول...

وانقطعت عن الكلام، تود أن تقول لي أين الست الوالدة؟ وأين السيد الوالد؟ لكنها لم تزد عن أنها ليس بيدها شيء، وأن الكلمة هي كلمة راجل البيت عمي نجيب، وتركتني وحيدًا أصحو من أحلامي الوردية على حقيقة الواقع المر الذي يفرض نفسه بكل قوة، فرحت ألعن نفسي وأتوعد صاحبي محمود لأنه من جعلني أقدم وأتجرأ لأخذ هذه الخطوة التي ما كانت تؤخذ بهذه الطريقة، تنبهت إلى أنه كان من الأولى بدلًا من أن آتي إلى هنا أن أكون في بيتي، وبدلًا من مصارحة والدة حبيبتي بما قلته منذ لحظات، فالأولى أن تكون والدتي هي من أبادرها بهذا الكلام، وبدلًا من أن.. هنا تذكرت أن عمي نجيب الموشك على الخروج لمصافحتي والجلوس معي كي توضع النقاط فوق الحروف، وتذكرت- أيضًا- والدي، وتهت مع عقلي مرة أخرى الذي نبهني بالفضيحة التي سأعاير بها طول عمري إن كللت هذه المقابلة بالزواج دون موافقته، ضربت جبهتي ببطن يدي، وأحسست أني آتي بجرم سأعاقب عليه أشد العقاب، فأخذت أحدث نفسي صابًّا جام غضبي مرة أخرى على محمود وعلى نفسي أيضًا قائلًا:

- الله يلعنك يا محمود، ماشي لما أشوفك، الله يلعني أنا كمان، ما الذي فعلته؟ هل أنا مجنون! ما الحل الآن؟ ما الحل؟

دخلت عيشة لتوقظ نجيب، والسعادة والسرور يملأن وجهها، ووجنتاها تتلئلآن بالبشر، انحنت على الجسد الشبه ميت، جثة تحييها أنفاسه التي تعلن عن وجوده في الحياة لتوقظه، وهي تقول:

- اصحى يا نجيب، اصحى يا أبو نعمات، قوم يا راجل، قوم يا أبو العيال.

ونجيب لا يستجيب لتوسلاتها من شدة التعب والإرهاق البادييْن على

وجهه وجسده المنهكيْن.

نظرت عيشة له، وتفحصته بعدما رفعت يديها عنه، وتذكرت النقاش الحاد بينها وبين نفسها منذ قليل، وهي واقفة وراء نعمات، أليس من الأولى أن تأتي الست خيرة والدة مروان؛ لتبادر وتطلب مني أولًا يد نعمات لمروان، أم أننا مش قد المقام واللا إيه؟!

نهض نجيب نصف نهضة منحني الظهر، يسأل عيشة عما تريده منه، فانتبهت عيشة لمناداته، فربتت على كتفه ترجوه استكمال قيلولته، قائلة:

- مفيش حاجة يا أبو نعمات، كمل نومك انت شقيان وتعبان طول النهار، كمل نومك يا خويا، وبعدين هحكيلك على كل حاجة.

عاد نجيب ليغط في نوم عميق دون أي مبالاة منه في مشاركتها حيرتها سوى صوت شخيره المهيمن على المكان.

خرجت عيشة وفي قرارة نفسها مواجهتي ومعرفة مني ما إذا كان والدي ووالدتي يعلمان بأمر مجيئي إلى دارها من عدمه أم لا!، ولو كانا يعلمان فهل هما راضيان عما أقدمت عليه، أم أنني آتي إلى هنا بعدما رفضوا طلبي؟ لأن نجيب وعيشة ونعمات ليسوا من مقامهم.

- عين العقل، لابد أولًا من مصارحته ومعرفة الحقيقة دون نقصان.

قالت هذه الجملة التي هداها إلى قولها عقلها، وخرجت مشمرة عن ساعديها شامخة الرأس مرة، ومهزومة الرأس مرة أخرى، تقدم قدمًا وتؤخر الأخرى فرحة وحزينة في آن واحد، حدسها يخبرها بأن شيئًا ما بالغريب في الأمر، فما هو! ستعرفه مني بعد قليل، وحتمًا ستعرفه عندما تكون في مواجهتي وجهًا لوجه.

خرجت تتلفت حواليها، وهي تنادي على نعمات بعدما رأت صحن الدار خاليًا ليس به أحد:

- يا نعمات..... يا نعمات....
- نعم يا أمي.
- هو مروان راح فين؟
- معرفش يا أمي.

وبعد بحث عني في جحرات الدار المختلفة، قالت لها:

- قوليلي يا بنتي، هو جه من أصله واللا احنا بيتهئ لنا؟!

* * *

(٤)
البوح بالسر

سرت في الطريق أتخبط كالسكران، أكاد لا أصدق نفسي أني أصبحت بتلك الجرأة التي جعلتني أخطو تلك الخطوات دون تمهل أو معرفة عواقبها، إن انتظرت حتى خروج عمي نجيب ومقابلته لي ومعرفة طلبي بالزواج من نعمات وحتمًا كان سيقول لي.. والله يا بني مانا عارف أقولك إيه، من ناحيتي أنا مش ممانع، هو في ديك الساعة لما تتجوز نعمات بس كان من المفروض يا مروان كان والدك ولي نعمتي ييجي بنفسه يطلبها مني واللا إيه يا مروان؟ فأقول له وأنا منكس الرأس.. عندك حق يا عمي نجيب.

تخيلت هذا الحوار منه، وقد رد عقلي إلى رشده، صحاني من أحلامي ليصدمني بالواقع الملئ بالأشواك التي اضطرتني النظر لقدمي في كل خطوة أخطوها نحو المنزل؛ لأتأكد إن كنت أو مازلت مرتديًا فردتي حذائي أم أني في غياب من عقلي خلعتهما انصياعًا لبعض الأشواك القوية التي لم تكن لتتركني إلا وقد أرغمتني على فعل ذلك بسبب صلابتها التي هزمت النعل، محاولة النيل من بطن قدمي لتعيدني إلى الواقع المرير..

- حظي السئ أني ولدت سعيدًا، حظي السئ أني ولدت وفي فمي ملعقة من ذهب كما تقول يا محمود، لماذا لم تخلقني يا أله فقيرًا مثل باقي الفقراء؟!

* * *

ضربت والدتي صدرها بيدها عندما دخلت علي وسمعت كلامي هذا، وقالت لي لتطمئن على حالي:

- مروان يا بني، مالك؟!!

- مين... ماما!

اقتربت منها منحنيًا أُقبل يدها، ولم أمتنع إلا عندما مسحت برفق على شعر رأسي بيدها، وهي تقول ضاحكة: "خلاص ياوله، سيب إيدي هرتها بوس"، ولأن قلب الأم دليله- كما يقول المثل- فقد أحست بأن شيئًا ما يقلق فلذة كبدها ويجعلني مشتت الفكر هكذا لدرجة هذياني بهذا الكلام المقلق، لكن ما هو هذا الشيء؟ أهو معاتبتي لوالدي بيني وبين نفسي لأنه لم يتركني أُكمل تعليمي مثل أولاد عمي يونس الأربعة "التوأميْن ياسر ووليد، وأختيهما البنتين ناهد ونجوي"؟

تستاهل.. قالتها وهي تتأملني وتتفحصني، وهي جالسة قبالتي في الصالة الفسيحة الرحبة، وراحت تستمع لباقي حديث عقلها الباطن.

أيوه تستاهل يا بني ما أنت فيه، ياما اتحايلنا عليك أنا ووالدك لكنك نشفت دماغك، وركبت راسك وقلت يا مجال المعمار يا بلاش، قال إيه يطلع مهندس نجار مسلح، ولما والده طلع فيه وقال له إلا كده اختار أي كلية كالزراعة مثلًا لتكون مهندسًا زراعيًّا، قال إيه كفاية علي الثانوية العامة هاعمل إيه لما أكمل تعليمي، مستورة والحمد لله، أعمال الحقل ورفع الكاهل عنك يا والدي أفضل من ألف شهادة ومليون تعليم، أم أن هناك أمرًا ما جعلك لأول مرة مشتت الفكر شارد الذهن هكذا! هذه ليست عادتك يا ابن بطني.

وبمجرد انتهائها من حديثها الهامس لنفسها، بادرتني قائلة:

- رد علي يا مروان.
- خير يا أم مروان.
- شيفاك مهموم ومشتت الفكر، في إيه يا ضنايا؟
- مفيش حاجة أصل الـ..

وتلعثمت أريد إعلامها وهي المشتاقة لمعرفة ما سيبوح به لساني كعادتي إن حدثت بعض المناوشات بيني وبين والدي، لكنني وحدي أعلم بأنها ليست بالمناوشات هذه المرة، بل أريد إخبارها بشأن رغبتي في الفوز بنعمات زوجة دون غيرها، فهي من اختارها قلبي وتعلقت بها وأُحبها منذ صباي، وذلك عندما بدأت أسمع عن الحب من زملائي في المدرسة، وأتذكر أول مرة أنصت بسمعي لصوت أم كلثوم وأنا مغلق باب حجرتي علي، معلومة التقطها سمعي من أحد الزملاء، من يريد أن يتعرف على الحب فليستمع لأغانيها منفردًا وليعش كما يحلو له بخيالاته وأحلامه التي سيجدها تتحقق وتتجسد حقيقة أمامه من خلال صوتها الذي يعبر بكل صدق عن الحب، وسريعًا ما عدت إلى المنزل، ألقيت بكتبي جانبًا وبحثت عن موجة أغانيها والتي تحمل اسمها "راديو أم كلثوم"، كانت حيرتي شديدة عندما سمعت كلامًا بدايته "رق الحبيب" فتساءلت.. لكن أين الحبيب الذي رق ولان؟ إنه كلام لا يمت للوجود بصلة، وخرجت من حجرتي وأنا مصمم على عدم تصديق هذا الهراء المسمى بالحب، فزميلاتي يملأن المدرسة وأكثرهن فائقات الجمال، ولم أنجذب لواحدة منهن رغم تعرضهن لي في الرايحة والجاية لاستمالتي، لكن أيًّا منهن لم تفلح في نيل مرادها مني، خرجت لأجد أمامي نعمات التي لم تكن بالغريبة علي؛ فهي ابنة عمي أعرفها جيدًا، إنها أمام عيني أغلب الوقت لكنها بدت

وكأنها المرة الأولى التي أراها فيها رؤية المدقق في الكيان في القسمات في سحر العيون والإنصات لدقات القلب التي أحسبها تلقت أولى الإشارات بالخفقان كلما رأت نعمات بعد ذلك، ومن وقتها ونظرات الحب ينبوعها لم يجف كل يوم يزداد تفجرًا تجاهها.

استفقت من عالمي على صوت والدتي شبه الباكية، تستحلفني إن لم أبح لها بما يؤرقني؛ فستقتل نفسها.

هدأتها وقبلت رأسها، ووعدتها بالبوح لها بكل شيء بعد استبدال لوحة الحزن المرسومة بتصنع متقن على وجهها بلوحة الابتسام والسرور، ففعلت وانتظرت بفارغ الصبر تحدثي:

- يا واد قول.. يا واد اتكلم.
- حاضر.. حاضر يا ماما. م الآخر، أنا قررت.. عايز أتأهل.
- يعني إيه تتأهل مش فاهمة!
- يا ماما يا حبيبتي، يا نورعيني، يعني أنا عايز أتجوز.
- هي تتأهل يعني تتجوز؟

وعلى الفور أطلقت زغرودة مطولة، واحتضنتني وهي تقول:

- يا ألف بركة، يا ألف مليون مبروك، هو أنا في ديك الساعة.

وأطلقت زغرودة أخرى أقوى من الأولى، جعلتني أصم أذني بسبابتي أفركهما من شدة وقوة صوت الزغرودة، وأنا أقول:

- كفاية يا ماما، كفاية.
- سيبني أفرح يا حبيبي، ابني روحي، حياتي، أخيرًا هشيل ولاده

وألاعبهم زي ما كنت بلاعبه وأهشكه وهو صغير، ألف ألف مبروك.

واقتربت مني تلثم وجنتي، فأخذت أتصنع الضجر، وأتوعدها بإن لم تهدأ فلن أخبرها بمن هي العروسة التي لزامًا عليها الذهاب إلى أهلها في التو واللحظة لخطبتها لي.

* * *

(٥)
شيال الهموم

أقبل الليل، ونقيق الضفادع يتناثر هنا وهناك، ولأول مرة منذ فترة طويلة يكون محمود وحيدًا بدون رفقتي سائرًا في الظلام، يبحث عمن يسليه في وحدته فلا يجد إلا الأصوات النشاذ الصادرة عن مجموعات من الحشرات الليلية التي لن تفقه شيئًا إن أسر إليها بما يكتمه في مكنون صدره من هموم تنوء الجبال عن حملها، أربعة إخوة صغار أفواههم مفتوحة طيلة الوقت، ينتظرون يدًا تمتد لتطعمهم بما تجود به من طعام، لا يهمهم نوعه أو لونه أو حتى طعمه، المهم أن يأكلوا فقط، يخشون أن يأتي يوم وينضب هذا الطعام وتشح اليد الممدودة به، لذا فهم يأكلون بنَهَمٍ، هم كالأنعام بل هم أضل سبيلًا، ومعهم العذر هم أطفال ينظرون لحالهم ويقارنوه بحال من هم في مثل أعمارهم من أطفال الجيران، يشكون لمن والأب عليل ضرير، فقد ماله رويدًا رويدًا من خلال لهاثه وراء الراقصات والغوازي في الأفراح والموالد، بين ليلة وضحاها من الثراء إلى الحضيض، من الغنى إلى الفقر، بذخ وإسراف وارتشاف للخمور ليل نهار، أب لم يعبأ ولم يحمل همًّا، لم يأخذ حذره من تقلبات الأيام وغدر الزمن، لم ينظر لأولاده وهم ينبتون من رحم أمهم واحدًا تلو الآخر، لم يفكر في أمر محمود الذي كان يستعد للدخول في مرحلة التباهي بين أقرانه بأن والده لا يقل مكانة عن آبائهم، لكن هيهات.. اصطدم محمود بالواقع المؤلم فكان لزامًا عليه تحمل المسئولية، وليدع أحلامه وتطلعاته المستقبلية جانبًا أو فليوئدها في أقرب حفرة تقابله.

وصل للمنزل، وليته ما وصل، رأى إخوته مكومين وراء الباب يغطون في نوم عميق، تذكر أنهم كانوا ينتظرونه لإعطائهم ما تجود به يده عليهم من جنيهات ليشتروا الحلوي في الصباح مثل أطفال الجيران، فحملهم على كتفه واحدًا تلو الآخر، ومدد أجسامهم في أماكن نومهم المعتادة، نظر لهم وتفحص أجسادهم النحيلة؛ فكَرِهَ الدنيا وما فيها، ضرب رأسه في الحائط وهو يقول:

- حرام عليك يا عم خفاجة، ضيعت نفسك وضيعتنا معاك، الله يسامحك.

سمع صوت أنين والده من الحجرة المجاورة والممزوج بسعال دموي لا يريد ترك جسده المتقهقرة دفاعاته في صد أي هجوم جرثومي يصيبه، فمسح دموعًا تراكمت على خديه، وذهب ليطمئن عليه، فوجده في حال يرثى له يحتضن زجاجة خمر فارغة، ويقول مالي وأنا حر فيه، شاهده يبول على نفسه فهزَّ رأسه من الحزن والأسى لذهاب عقله، يظن أن ماله مازال موجودًا وليس في استطاعة أحد أن يمنعه عنه، لا يدري أن محمود ترك دراسته نهائيًّا وتخلى عن تحقيق حلم حياته بأن يكون دكتورًا يداويه ويعالج المرضى مثله وارتضى أن يكون عاملًا أجيرًا في أراضي الغير؛ لكي يوفر لقيمات يقمن صلب إخوته الصغار.

(٦)
المواجهة والرفض

حيرة ما بعدها حيرة، كيف أصارحه بما أسر به فلذة كبدي، آه يا حبة عيني أعلم أنك لن تتحمل صدمة رفض ما أسررت به اليوم لي، لذا فقد قررت التمهل حتى الصباح وإعلامك برأي والدك في شأن هذه الزيجة مع معرفتي لقراره ورأيه منذ زمن بعيد.

إنها والدتي خيرة من كانت في حيرتها هذه، وهي من قالت هذا الكلام، رآها والدي مشتتة الفكر، وهو يبدل ملابسه بجلباب النوم؛ فسألها:

- مالك يا خيرة؟ إيه اللي شاغل بالك؟ مش عوايدك!

ردت عليه:

- مفيش حاجة... وكررتها وهي تسمح دمعة فرت من عينيها.

- مش هتنامي؟

- النوم مخاصم جفوني.

- طيب، تصبحي على خير.

- وأنت من أهل الخير، لكن... لكن في موضوع يخص مروان عاوزه أطلعك عليه.

رد والدي عليها بكل برود يحسد عليه، وهو مغمض العينين:

- الصباح رباح يا خيرة.

- لكنه استحلفني ألّا يمر اليوم إلا وقد فاتحتك فيما يريد.

وسكتت هنيهة لتكمل بعدها:

- مروان فاتحني في أمر زواجه اليوم.

- بس كده يا ست! هو دا اللي شاغلك، م العين دي قبل العين دي، في الصباح إن شاء الله سأفاتح والدها وأخطبها له.

كتمت والدتي آهة ملؤها الحزن والأسى، لم تشأ أن يسمعها والدي فتحشرج الكلام يأبى الخروج، تلعثمت تنحنحت، قاومت خوفها وخجلها وترددها، وقالت:

- سليمان، مروان يريد الزواج من نعمات بنت نجيب ابن عمك منصور.

لكن هيهات، لم تسمع إلا صوت شخيره يتردد بقوة في كل ركن من أركان الحجرة، فتنهدت وقالت حسنًا ما فعلت، وحسنًا أيضًا ما قلت، الصباح رباح يا خيرة.

لم تنم والدتي ليلتها هذه، نوم متقطع يملؤه الخوف من المجهول القادم على حصان أسود يقف على باب البيت يصهل ويضرب الأرض بقوة بقدميه الخلفيتين يمنعني من الدخول، كابوس راودها صحت على إثره، وهي تحدث نفسها تقطع أرض الحجرة ذهابًا وجيئة، ليه يا مروان؟، ملقتش غير نعمات ابنة الأجري، والدك يتطلع للأحسن ينظر للمستقبل ويرسمه لك، يهيئ ويمهد لك الطريق كي تكون الأفضل من بعده بعد عمر طويل إن شاء الله، لقد اختار لك ناهد ابنة عمك يونس منذ زمن بعيد، وبالتحديد يوم ولادتها، أسرها في نفسه ولم يشأ إطلاع أحد على سره سواي، ناهد لمروان ومروان لناهد، آه لو

تدري يا فلذة كبدي لم هو يمدحها يوميًّا دونًا عن إخوتها؛ إلا ليحببها إلى قلبك، وظن أنه باستمراره ذكر اسمها أمامك يوميًّا أنك حتمًا ستحبها وتهيم بها، مثلما أحبها واختارها أن تكون زوجةً لك، يريدك أن تكون مثل عمك يونس نسخة طبق الأصل منه في حلمه وأناته، في أخلاقه وأدبه، في قدرته على احتواء غضب من حوله وحل مشاكلهم، هذا هو كل أمله، أسترضى يا بني بقراره في الصباح عندما تجمعنا مائدة واحدة، يا رب صبرني.. وهات العواقب سليمة.

ليلة صعبة انقضت عليها وكأنها امرأة في ولادة متعثرة اضطرت لنقض اتفاقها مع والدتي ببقاء وليدها داخل رحمها ليومين أو ثلاث أخرى تحاول خلالهم إقناع والدي بعدم رفض طلبي، وإلا لن تريه وجه ذلك الوليد المنتظر بشغف خروجه للحياة، لكن هيهات آلام المخاض كانت أقوى منها فالوليد يرفس بقدميه بكل قوته، إنها لحظة خروجه للحياة التي لا يعلم أنها تخبئ له ما لا يتمناه، وبسبب أمنياته هذه سيهل عليه يومٌ يتمنى فيه لو أنه ظل داخل الرحم يسمع مداعبات والده له، مداعبات يسمع خلالها كلامًا ووعودًا من نوعية.. اخرج انت بس للدنيا وأنا أحقق لك كل اللي نفسك فيه، وها أنا ذلك الوليد الذي أقول لوالدي.. صحيح والنبي يابا، طب احلف، فيحلف والدي، لأخرج طالبًا منه يد نعمات، فماذا سيكون رده إذن؟!

وهكذا هي والدتي التي كانت تتمنى ألا تمر هذه الليلة ويأتي بعدها نور الصباح الذي تعلم أنه ومن خلاله ستحدث المواجهة، وسيحدث ما لا تحمد عقباه، دقائق انقضت ومرت وقلب والدتي يدق دقات متسارعة ملؤها الوجل ملؤها الأسى ملؤها الصبر ملؤها الانتظار الذي يضرب بدقات قلبي أنا الآخر عنفًا أن اسكتي أيتها الدقات، أو تريثي وتمهلي حتى تسمعي نتيجة قرارٍ سيكون نتيجته صدامًا سيزلزل أركان البيت الهادئ، الذي لم يعهد للصوت

العالي فيه طريقًا.

* * *

اجتمعنا ثلاثتنا سويًّا حول المائدة، لكن والدتي كان لها رأيٌ آخر عندما تراجعت وقامت من مكانها مصرة على عدم الجلوس، وظلت واقفة تتمتم وتدعو بمرور هذه الساعة على خير، زادت النظرات بينها وبيني، تنظر لي وأنا ألتهم لقيماتي بفرح منتظرًا بفارغ الصبر أن تستهل كلامها كما وعدتني بالأمس بمفاتحة والدي المتابع بين لحظة وأخرى لنظراتنا، لكنه لا يعرف بعد كما ظننت ما السبب، أنهى على ما أمامه من طعام ووالدتي كما هي ساكنة لا تتحرك، ولا يبدو عليها أنها ستتكلم.

سألت نفسي من سيبدأ بالكلام ويفاتح والدي أنا أم هي، هي أم أنا؟ أود إفراغ كل ما تلقته معدتي من طعام إن لم تتكلم، إنا لأول مرة آكل بهذا النهم لدرجة ظننت فيها أن والدي ينظر إلي متعجبًا من نهمي هذا، ويقول لي.. إيه الفجعة اللي حطت عليك دي مرة واحدة كده؟ كل على مهلك مفيش حد بيجري وراك، وانتبه لصحتك لا اللقمة تقف في زورك.

صمت رهيب لم يقطعه سوى صوت رب الأسرة بعدما انتهى من طعامه، تذكر أن زوجته الواقفة أمامه أسرت إليه ببعض كلمات سمع آخرها بليلة الأمس وهو بين اليقظة والنوم، إنها كلمة زواج.

- صحيح يا مروان ما قالته والدتك ليلة الأمس بأنك تريد الزواج؟

تنهدت، وقلت في سري.. الحمد لله أتى الفرج.

رددت عليه تملؤني الغبطة:

- نعم يا والدي صحيح ما قالته والدتي.

وتبادل ووالدتي النظرات مطولًا، وحل الصمت الرهيب مرة أخرى قبل أن يقطعه والدي مرة أخرى بقوله:

- ألف مبروك.

تهلل وجهي وبُهت وجه والدتي وامتقع امتقاعًا وبرزت مقلتا عينيها المغرورقتين بالدموع منصتة بتركيز شديد لكل حرف يخرج من فم والدي، وهو يقول:

- سأفاتح والدها اليوم في الموضوع، وعقبال ما تخاوي ولادك يا عكروت.

- في حياتك يا والدي، وربنا يديك طولة العمر، وتشوف ولاد ولادهم.

- المهم من دا كله إنك متسبنيش وتروح تعيش وياها في مصر، فهذا كل ما يقلقني، عمك يونس ذات نفسه حلال العقد والمشاكل لم يستطع حل هذه المشكلة، فهي مصممة على الابتعاد عن البلدة نهائيًا، ومنتظرة بفارغ الصبر انتهاء دراستها لتنفيذ رغبتها.

- حضرتك تقصد مين يا بابا؟

- ناهد طبعًا بنت عمك يونس.

- لكن أنا..

ألجمتني الدهشة، ولم أجد غير والدتي الصامتة هي الأخرى، وأنا العالم الآن لم تغيرت قسمات وجهها هكذا لأوجه إليها كلامي:

- ما تتكلمي يا ماما.

انجزع والدي بكل حمله للخلف على كرسيه، وهو يقول بكل ثقة:

- إيه انت خايف متوافقش، سيب كل حاجة علي يا خايب، ما هو

انت لو كملت تعليمك ودخلت كلية الزراعة كنت زمانك باشمهندس زراعي قد الدنيا، ومكونتش حطيت نفسك وحططتني في الموقف ده.

لملمت والدتي الأطباق من أمامنا، وذهبت بعيدًا ومن خلف الستار بدأت تترقب ما سيحدث، أنصتت لكلامي وأنا أحاول إفهام ربان السفينة أني أقصد طريقًا آخر غير الذي يقصده، وبه سنصل جميعًا لبر الأمان.

- يا والدي، أنا لما فاتحت ماما لم يكن قصدي ناهد.

- أمال قصدك مين؟ إياك عينك على أختها نجوى، لا يا سيدي أنا اخترت لك ناهد، ومفيش غير ناهد اللي هتتجوزها.

- يا بابا أنا لا قصدي ناهد ولا نجوى، أنا بحب... قصدي أنا رايد أتجوز من نعما...

قاطعني والدي:

- خلاص يا خلبوص، هي ناهد ومفيش غيرها، وفي أقرب فرصة سأكلم عمك يونس كبير الأكابر وكبير الناحية كلها.

غلب علي الانفعال والعصبية المجموحة بلجام الأدب الموشك على الانفلات:

- يا والدي، أنا قصدي نعمات بنت عمي نجيب.

- أنت اتجننت يا ولد! أنا أقولك اخترت لك ناهد بنت عمك يونس، وأنت تقول لي نعمات بنت نجيب! إش جاب لجاب يا خايب؟ بنت كبير العيلة واللا بنت الـ... فقير الأجري.

- آهو دا عمي، ودا عمي وآهم الاثنين أولاد عمك، وأنا بحب نعمات.

- حبك برص وثلاثة خرس، اسمع يا ولد أنا مش فاضي للعب العيال دا، أنا أخذت قرار ومش هرجع فيه، وهتتجوز من ناهد يعني هتتجوزها.

اشتد النقاش واحتدم بيني وبينه، أنا مصمم على موقفي بالرفض، وهو مصمم على تزويجي ممن اختارها لي، ولم يوقف اشتعال الموقف بيننا أكثر من ذلك سوى الخادمة جمالات أرسلتها والدتي لتخبر والدي أن إقبال زوجة صديقه مخيمر البقال توفيت، وأن المنادي يقول إن جنازتها بعد صلاة الظهر.

كان خبر وفاة إقبال الفكرة الوحيدة المتبقية في ذهن والدتي لإخراج والدي في هذا التوقيت من المنزل، وإلا تطور الموقف وتأزم أكثر من ذلك بعدما سمعته يخبرني إن لم أُنفذ أوامره فإني قد خرجت عن طوعه، ومن يخرج عن طوعه فليس من حقه العيش معه تحت سقف واحد، وحسنًا ما فعلت والدتي، بل الحمد الله المدبر لكل شيء قبل حدوثه، فقد هدأت ثائرة والدي علي بعد سماعه لنبأ الوفاة بنفسه، والآتي من صوت المنادي مجلجلًا من الخارج، وأخذ يردد لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون (عدة مرات)، ووجدها هو الآخر فرصة للخروج كي لا ينفعل أكثر من ذلك فيتطاول بمد يده على الغالي الوحيد الذي لم يخرج من الدنيا إلا به، إنه يريد لي الخير ويعمل على ذلك ليل نهار من أجل مصلحتي، وأنا لا أعي ولا أفهم كما يظن، وبإشارة من يده اتضح لي أنه يحاول احتوائي من خلالها وعدم الخروج عن طوعه، فقال لي محذرًا:

- اللي انت بتعمله دا اسمه طيش شباب، فاهم يا مروان؟ يا ريتك تفكر في مصلحتك فهي الأهم، وسيبك من كلام الحب اللي عمره ما هيأكلك عيش حاف دا، بالعكس هيخليك تشحت.

قال ذلك وهو متجه خارجًا، وأكمل يقول بعدما وطئت قدماه للخارج:

- شباب أهوج، لا يعرفون أين مصلحتهم، قال حب قال!!

* * *

(٧)
لا كان على البال ولا الخاطر

دلف والدي من البوابة الكبيرة لقصر يونس ابن عمه، فوجده جالسًا في الحديقة مع ولديه التوأمين وليد وياسر، اقتربت خطواته منهم فاستأذن التوأمان والديهما في الذهاب، فقال والدي معقبًا:

- إذا حضرت الشياطين ذهبت الملائكة!

رد عليه يونس:

- لا سمح الله يا سليمان، إنهما تأخرا فقط على كليتهما.

جلس والدي يتأمل التوأمين المتشابهين في كل شيء.. الطول والشكل والهيئة حتى الملابس وماركة النظارة واحدة، هي الشامة فقط في خد وليد من تميزه عن ياسر، استقلا سيارتهما ورآها تنطلق بهما بعيدًا يتحسر علي وأنا الذي أفوقهما ذكاءً ورجولة، يعلم أنهما تافهان أقرب للجنس الناعم في تعاملاتهما، لم يرهما من وجهة نظره ينتميان لعالم الرجولة، فمشيتهما وطريقة كلامهما وضحكتهما وغيرها من الحركات التي ما يأتيان بها كثيرًا أمامه تدلان على صدق كلامه من أنهما بنتان لا رجلان» وإن تركتهما هكذا يا يونس يا ابن عمي فلن تجني إلا الحسرة والندامة» أباح مرة بكلامه الصريح هذا فما كان من عمي يونس إلا أن انفعل عليه قائلًا «وانت مالك يا سليمان! دا شأن خاص بي، ثم دول ولادي وأنا حر في تربيتهم، وأنا راضي عن تصرفاتهم، فلا دخل لك بشأنهم أو بتصرفاتهم»، وقاطعه لمدة تزيد عن الشهر ولم يعِدِ المياه لمجاريها بينهم إلا اعتذارٌ من والدي له، « اقبل اعتذاري

وأسفي يا يونس، فأنا لم أعرف أن ما هم عليه من تصرفات لا تعجبني إنما هي من المدنية والتحضر والرقي» فقط قال له ذلك وهو يقبل رأسه، غير مقتنع بما يقوله له، لكنه مخيمر صديقهما أفهمه بقول ذلك حتى تعود المياه لمجاريها بينهما.

- مالكش حق يا سليمان! ترضى إن حد يتدخل في شئون بيتك الخاصة.

- لأ بس تصرفات الأولاد مش عجباني يا مخيمر.

- وبعدين يا سليمان، قلنا إيه؟

- حاضر يا مخيمر.

- يلا روح وحاول تصالح ابن عمك بكلمتين، حتى لو كانوا الكلمتين فارغين ومش مقتنع بيهم وأنت بتقولهم.

قال في سره "خلفة عار، خسارة يا يونس كل اللي بنيته في سنين عمرك هينهد في لحظة وانت مش داري، واللا انت شكلك عارف بس عامل نفسك مش واخد بالك!".

نبهه عمي يونس بقوله له:

- اللي واخد عقلك يا سليمان، في حاجة واللا إيه؟

- أبدًا مفيش، قلت أعدي عليك نروح سوا نحضر جنازة إقبال مرات مخيمر.

- مرات مخيمر! "إنا لله وإنا إليه راجعون" الله يرحم أمواتنا وأموات المسلمين. ياه يا مخيمر دوام الحال من المحال.

خيم الصمت على المكان لتذكر الاثنين أيام الطفولة، وما كان يفعلانه من مقالب في مخيمر، من ربطه في شجرة الجميزالمكان المفضل للعبهم وهم

صغارٌ، وكيف كانا يلقيان به في الترعة فلا يريان له أثرًا لدرجة يظنان فيها أنه غرق، فيأتي مخيمر من الخلف بكل خفة ورشاقة، ويقذف بهما ليقعا في المياه بكامل ملابسهما.

ضحك الاثنان، وكادا ينسيان أمر الجنازة لولا سماعهما لصوت أذان الظهر فقاما، وقد أكد والدي لعمي يونس أن يأمر أهل بيته بإعداد الطعام لأنه قرر عزم نفسه في وجبة الغداء اليوم عنده، وذلك لمعرفة رأيه في أمر هام يخص الأسرة بأكملها.

* * *

كانت جنازة إقبال ولا كل الجنازات التي شهدتها البلدة، كادت تنقلب إلى فرح لولا عناية الله وستره والتزام العقلاء بالأدب والتمسك بالأصول والتقاليد وما أكثرهم، أما القلة الباقية التي لم تلتزم بهذه الآداب هم الشباب صغار السن والذين لم يعوا بعدُ أن للميت حرمته، وذلك عندما تقدمت خشبة المرحومة إقبال الجميع، يحملها أولادها الأربعة يتبادل معهم رفع الحمل من يريد الأجر والثواب، كان والدي ويونس في المقدمة بجوار مخيمر صديق الطفولة يشدان من أزره ويتلقيان العزاء بدلًا منه، وإذا بهم يلحظان وكل من يسير خلف النعش من ينحشر بينهم يلكز هذا ويدفع هذا، إلى أن وصل في المقدمة بجوارهم، إنه ريان ابن عمهما والأكبر سنًّا من والدي بأعوام عشر، لذلك يحاول بشتى السبل إلصاق لقب كبير العائلة لشخصه، ولا يجوز لأحد نيل هذا اللقب غيره من وجهة نظره، والملقب أيضًا بشبر ونص، نأب أطلقه أهل البلدة عليه فالتصق به منذ بلوغه ففاقه أصحابه من الأولاد وزادوا عنه طولًا وبقي هو محلك سر، توقف نموه عند المتر ونصف لا زيادة ولا نقصان، فأبدلوا المتر بالشبر، استقر في مقدمة الجنازة ومن خلفه ولداه

التوأمان سمعان وخلفان بسلاحيهما المرخصين، هما كظله في كل مكان خلفه لا يفارقانه، وهو بدوره متباهيًا بهما، فهما خلفته التي تفوقه طولًا يستعين بهما في حمايته من المتنطعين الجالسين في دوائر أمام مداخل الشوارع وعلى جنبات الطرق لا يجدون ما يسلي جلستهم سوى الاستهزاء وفضح عيوب خلق الله المخلوقين بها جاهلين أن من يستهزئون بهم ليس لهم يد في خلقهم هكذا إنما هي آية من الخالق حتى يحمد المكتمل الخلقة خالقه ويتعظ، "يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيرًا منهم...."، لذلك فالويل كل الويل لمن ينادي عمي ريان بشبر ونص أمام توأميه، ولولا عناية الله وستره لحدثت بسببه مصائب وجرائم قتل لا تعد ولا تحصى؛ فهو طيب القلب لكنه انفعالي عصبي المزاج اندفاعي لا يستطيع التحكم في رابطة جأش لسانه، فالكذاب يقول له في وجهه أنت كذاب، وكذلك الحرامي والمنافق حتى شيخ المسجد لا يسلم منه إن لم تعجبه خطبته يقوم من مكانه ولا ينتظر حتى تنتهي الصلاة فيحاوره ويناقشه ويجادله، وإن وجد أنه مغلوب على أمره يشوح له بيده ويترك المسجد دون إكمال الصلاة، ويقول له وهو يخطو خطواته نحو الخروج.. شيخ منافق كذاب ابقى خلي الدنيا تنفعك، وآدي دقني آهه لو دخلت الجنة برجليك، والله حتى لو ربنا غفر لك كل ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وسمح للملايكة بإيصالك لباب الجنة لكون أنا واقفلك بالمرصاد، وأخليهم يرجعوك تاني لربنا يعيد حسابك ويدخلك النار، فيهم شيخ المسجد بالإسراع بعد فراغه من الصلاة بالذهاب إليه في بيته والتودد إليه لمسامحته، بل والتوسل إليه بالسير معه في شوارع القرية حتى يرى الجميع أنه قد عفا عنه وسامحه.

صمم ريان أن يكون بجوار مخيمر ليواسيه ويقول له البقية في حياتك،

أو بالمعني الأدق أراد أن يقول له أنا هنا كالجميع في المقدمة، لم ولن أتخلف عن أي جنازة أو فرح أو أي مناسبة تحدث في البلدة، أوَ لست رأسًا كبيرة مثل أولاد أعمامي يونس وسليمان، وإنني لأكبرهم سنًّا، فلابد وحتمًا أن أكون كبيرهم وكبير العائلة بأكملها، بل كبيرالأكابر كما يلقب يونس، فأنا أولى بهذا اللقب منه لدرجة أنه عاند وكابر وقت بوادر ظهور هذه الأزمة التي افتعلها في الماضي دون معرفة السبب الحقيقي لظهورها هكذا فجأة بدون مقدمات ولا سابق إنذار من أنه الأكبر سنًّا، لذلك فله الحق فيما يطالب به كما يظن الأكثرية، بل أن المشكلة الحقيقية تكمن في أنها مشكلة نفسية تمكنت منه وأصبحت عقدة ترافقه بسبب توقف نمو طوله، لدرجة حلفانه وتهديده لزوجته عديلة إن لم تأتِ له بتوأمين مثل فريدة زوجة يونس ليطلقنها في التوِّ واللحظة، فاستجاب الله لدعاء عديلة المغلوبة على أمرها، ورزقه الله بالتوأمين سمعان وخلفان، لكنها لم توفق فيما بعد بالإتيان ببنتين كناهد ونجوى لرغبتها في خلفة البنات، فوقتها اكتفى ريان وقال لها لو كانت الخلفة بعد التوأم بنات فبلاها خلفة من أصله.

نظر والدي ويونس لبعضهما عندما رأياه، فهَمَّا بالضحك لولا ستر الله ليلجما فمهما في اللحظة المناسبة، فكتمان الضحك لرؤية ريان لهو بالأمر غير الهين فما بالكم إذا تحدث وطال حديثه عن غزواته وبطولاته الوهمية التي ينسجها من محض خياله، والتي يتفاخر بها إذا جلس في مجلس من المجالس كل من في البلدة يحبونه "شيء لله في الله يتحب" لم يكرهه أحد ولم ولن يكرهه أيضًا أحد، فالخوف كل الخوف فقط من ولديه سمعان وخلفان، ومن تهورهما من أن يجيئ يوم ويستخدمان فيه سلاحيهما ضد أي شخص يتطاول على والديهما.

مد ريان يده لمخيمر، وبدلًا من قوله له البقية في حياتك يا مخيمر، أخذ نفسًا عميقًا كي يخرج الصوت من جوفه عاليًا فيسمعه الجميع، لكنه قال عقبالك يا مخيمر، كاد مخيمر أن يهم بالضحك بل بالقهقهة، لكنه أطبق على شفتيه بكلتا يديه، وردَّ عليه يتصنع الانفعال كلنا لها يا حاج ريان، ولولا أنها جنازة زوجته لرد عليه وقال له ربنا يكتر من أفراحك، فهو ابن نكتة مثله حريف مقالب لم يسلم منه أحد، ففي وقت خف أرجل الزبائن عن الشراء من بقالته يربط ورقة مالية من الفئات الكبيرة بخيط رفيع ويلقيها أمام الحانوت، فيميل عليها صاحب الحظ الذي يمر في هذا الوقت، وكلما يهم بمد يده لأخذها يسحب مخيمر الخيط رويدًا رويدًا إلى أن يستقر المبلغ المالي في يده، فيجد صاحب الحظ نفسه في مواجهة مخيمر.

توعده مخيمر في سرّه، وهو يقول صبرك علي يا ريان يا شبر ونص، لما أتلم عليك في مجلس سمر، اصبر على بعدين بعدييييييييين.

انتهت الجنازة وعاد كل حي إلى حيث كان، وكأن شيئًا لم يحدث.

* * *

(٨)
قرار الرحيل

أمر غريب حقًّا أن تأتي الخادمة جمالات وقت الظهيرة وسط الحقول تبحث وتفتش بناظريها عن شيء ما، ولولا أن غالبية من في الحقول ذهبوا لحضور الجنازة لكانت للعيون الناظرة لها أسئلة كثيرة تبحث لها عن إجابة، يوجد أمرٌ خطير إذًا هو من جعلها تترك خدمة منزل سيدها، وتأتي إلى هنا، وفي هذه الساعة! ولم تدم التساؤلات كثيرًا من قبل من رأوها وهم قلة ظلوا أماكنهم بأوامر من محمود.. خليكوا انتوا معايا، تحولوا المية من أناية لأناية.

وصلت جمالات لمرادها، وها هي أخيرًا تعثر على صديقي محمود، وقفت أمامه لاهثة وهو يشق رأس الأناية بفأسه ليسمح للماء بمعانقة الزرع، اعتدلت قامته دون رغبته من شدة التعب، وهو يسأل جمالات في فزع:

- اتكلمي يا جمالات، هل حدث مكروه لمروان؟

واندفع كالمجنون يهرول أمامها عندما أخبرته أني قررت ترك المنزل والرحيل عن البلدة نهائيًّا.

ظل يلوم نفسه طول مدة طريق وصوله للمنزل..

- أنا السبب، أنا السبب، كان لازم اقوله لو كنت راجل روح اخطب نعمات، سامحني يا صديقي العزيز، سامحني.

وصل ليجد الباب مغلقًا ومن ورائه جسد شخص يحول دون فتحه، وإذ به يسمع شد وجذب بيني وبين والدتي، فنادى يقول:

- افتحي يا خالتي خيرة، أنا محمود ابن خفاجة، افتحي أرجوكِ.

فتحت والدتي الباب، وهي تعمل على عدم خروجي، تحاول إقناعي بدموعها قبل كلامها، لكني كنت مصممًا ومصرًّا على الخروج، وقف محمود يتوسطنا يحاول تهدئة والدتي وإقناعها بأن تتركنا منفردين متعهدًا لها بأنه لن يتركني أرحل وأهجر البلدة كما أقول.

استجابت والدتي له، لكنها اشترطت بأخذ شنطة ملابسي معها، فتركتها من يدي نزولًا على رغبتها، وما هي إلا دقائق معدودات إلا وكنت أدق باب حجرتها وخلفي محمود، لثمت جبينها وقلت لها أُطمئنها بضعة أيام فقط سأقضيها لدى واحد صاحبي يقيم في بلدة مجاورة، وبعدها سأعود حتى تهدأ الأمور، فأقبلت والدتي على يدي تقبلها وهي خائفة من عدم رؤيتها لي مرة أخرى، ترجوني بعدم تركها لوحدتها التي ستقتلها حتمًا، ولأصبرن حتى يأتي والدي وتعهدها لي بأنها ستعمل على إقناعه بالعدول عما اتخذه من قرار، بل هي بنفسها ستسعى في أمر تزويجي من نعمات ما دامت هذه رغبتي، لثمت جبينها مرة أخرى أُطمئنها بألا تخاف علي؛ لأنها أنجبت رجلًا ولزامًا علي الاعتماد على نفسي من هنا ورايح، وانحنيت أمامها وقد أخذت شنطة ملابسي وهي خلفي تستحث محمود القيام بدوره الذي أرسلته ليقوم به، ربت محمود على كتفها وهو يتبادل معها الدموع يرجوها الدعاء لي بألا يصيبني أي مكروه، وأن يحفظني الله الذي وحده سيرعاني ويهديني ويردني إليها سالمًا.

خرجت برفقة محمود متلازمين، ووالدتي وراءنا أراها واقفة على الباب تنهنه من كثرة البكاء، وتدعو الله بحفظي والعودة لها مرة أخرى سالمًا كما طلب منها محمود.

(٩)
ميتم دا واللا فرح

دنا المغيب من الشمس مثقلًا كاهلها يزاحمها، يجر ليله خلفه ليخيم بكآبة آخذًا مكان النهارعنوة وقوة، فيتوعده النهار بأنه لابد وحتمًا سيأتي فجرًا ليأخذ مكانه مرة أخرى، وهكذا فرٌّ وكرٌّ بين الليل والنهار، في شبه لعبة يومية كالتي تحدث بين عمي يونس وريان والحكم بينهما والدي سليمان وسط الملعب يعد أخطاءهما ويدوّن الأهداف، كل منهما يتحفز للآخر، كل الحيل يستعملاها ضد بعضهما، وإن كانت تزداد من جانب ريان صاحب الموقف الضعيف والغير مبرر لأفعاله وكرهه ليونس، فلا يتزحزح هذا عن مكانه ولا ذاك يتراجع عن أخذ مكان الآخر في أقرب فرصة تواتيه، يونس بمفرده وحيدًا يعلم أن ولديه لن يرثا مكانته من بعده، والتي اجتهد وبناها طوبة طوبة حتى وصل لما هو فيه من مكانة ورفعة وشأن، كل ما في استطاعته يفعله كي يحافظ على مكانته، عقلُه رفيقُه الوحيد يستخدمه في إقناع من حوله أنه هو ولا غيره كبير الأكابر كبير العائلة حلال العقد والمشاكل المستعصية سواء كبرت أم صغرت، يستخدم كل الحيل والألاعيب، إنه ماكر مثل الثعلب، يلدغ مثل الثعبان فلدغاته سامة مميتة، ولم يسلم منها أحد، فكل من عامله وخصوصًا في البيع والشراء يبعد عنه ولا يعامله مرة أخرى بسبب بيع محاصيل أرضه بأثمان باهظة تفوق أثمان نفس المحاصيل في أراضي الغير، إنه لماهر في الإقناع، بارع في إيقاع الجالس أمامه في بحر مراده يناوله من معسول الكلام ويظل يزيده ويزيده حتى يقع كلامه كالسحرعلى الجالس أمامه فيرتضي بما يقول

ولايصدق أي شخص أحدًا مما يرمونه بالكذب والإفك والبهتان إلا إذا تعامل معه شخصيًّا، لكن مع كل هذا فالكل يرتضي به حلّالًا لمشاكلهم؛ لأنهم اعتادوا عليه رغم ما نالوه منه من لدغات سامة متمثلة في خسائر مالية بسبب شرائهم محصوله دون حصولهم على ربح يذكر، وفي أحيان أخرى يتعرضون للخسارة..

- عوضنا يا حاج يونس.

- وأنا مالي، دا سوق، والكل متعرض للربح والخسارة، هو أنتم لما بتكسبوا الطاق طاقين أنا بجيلكم أمد إيدي واقولكم نقسم الأرباح بينا بالنص!.. متردّوا.

- لأ يا حاج.

- طب خلاص، يبقي ربنا يخلف عليكم، وتتعوض في المحصول الجاي إن شاء الله.

يلعنونه، ومن داخل قلوبهم لا يتمنون له إلا كل شر، لكنهم- رغم ذلك- في الأوقات الحرجة يحتاجونه، تخرج من أفواههم بعفوية لنذهب للحاج يونس وهو يحل ما بيننا من مشاكل وخلافات ويحكم بيننا، حتى ولو جاء على طرف منا لحساب طرف آخر يكون حكمه على قلوبهم زي العسل؛ لأنه الوحيد القادر على تجنيبهم شر الاقتتال، وقدرته على التأليف بينهم بصنيعته التي أصبح يتقنها بحرفية لا يقدر أحد أن يجاريه فيها.

ومن ناحية أخرى، نراه يواجه صراعًا داخليًّا يعانيه وحده دون غيره من صلف وعجرفة زوجته فريدة تجاهه، والتي كرهها ويزداد كرهه لها مع كل يوم تطلع فيه شمس الصباح، ولأنها أسرار عائلية ولا يمكن لأحد الاطلاع عليها فقد

بنى القصر الذي يعيش فيه، شيده وبالغ في تشييده بارتفاع أسواره كي لا يتجرأ متلصص بأن يسمع ما يدور من ورائها من فضائح وعراك وشجار وشتائم بين الزوجين من ناحية، وبين الزوج والأبناء من ناحية أخرى، أبناء كرهوا ويكرهون عيشته، بل وبلدته وكل ناسها، ليس إلا لأنهم أحبوا حياة والدتهم ومدنيتها التي أتت منها على غير رضاها، ولذلك فيونس "شرابة خرج" عديم الحيلة، لا بيحل ولا بيرط، أو قل خيخة داخل البيت لا بيهش ولا بينش.

لا تُسمع له كلمة، ولا يُعمل له حساب، وعلى النقيض تمامًا من ريان ابن عمه الآمر الناهي داخل بيته، يُعمل له ألف حساب، فكل حرف من كلام صادر من فيه أوامرٌ، ولابد من أن تنفذ، أما خارج البيت لا يأبه له أحد ولا لكلامه ولا لحكمه ولو كان عدلًا، فهو معروف بين الناس بالفشار المضخم للأمور، لكنه المشهور بينهم بأنه الجريء الذي يقول للحرامي في عينه بأنه حرامي، حتى ولو كان على حساب مصالحه الخاصة فلا يأبه لذلك، ولا يعمل حسابًا لأحد، ومما يزيد من أموره طينًا وبلة- كما ذكرنا- ولداه التوأمان سمعان وخلفان وبحملهما لسلاحيهما في الجيئة والرائحة، واللذان كلفا ريان لترخيصهما لهما ثمن خمسة أفدنة، يتعجب أهل البلدة كيف وافقت القيادات الأمنية على ترخيصهما له! فيقسم لهما أنه ما قال غير اسمه عندما طلب منه الإجابة على أول سؤال وجه إليه، يحكي أنه دخل مكتب مدير الأمن وسلم عليه، جلس بعدها دون استئذان، ووضع ساقًا فوق الأخرى، فرأى مدير الأمن ينظر له مطولًا ويمدحه على شجاعته وعدم خوفه منه، وما كان منه إلا أن طلب من الحارس أن يأتي له بكوب شاي، فقطع ريان أمره وطلب من الحارس استبدال كوب الشاي بزجاجة حاجة ساقعة، فضحك مدير الأمن وتبادل معه النكات والقفشات، وهذا كل ما حدث لا أكثر ولا أقل، حصل بعدها على

رخصة السلاحين، والشيء الوحيد الذي يتميز به ريان عن يونس طيبة قلبه، وبالتالي عدم حمله ضغينة لأي فرد مهما كان ما فعله به، لدرجة أنه لو قامت بينه وبين أي شخص مشاجرة وحتى لو وصل الشقاق بينهما لقتل أحد ولديه التوأم؛ فإنه بعدها بدقائق من هدوئه يعترف بأنه المخطئ، ويذهب ليصالح من تشاجر معه ويقبل رأسه، ولو كان هذا الشخص هو المخطئ في حقه، ويعمل كل هذا حتى لا يعطي فرصة ليونس للشماتة فيه أو للجلوس أمامه للإصلاح بينه وبين خصومه، والوحيد الذي يتمنى مقاطعته للأبد هو مخيمر، الذي يفعل فيه مقالب كثيرة تجعل الغادي والرائح يضحك عليه لكنه لا يفعل، هو- شخصيًّا- مع مرور الوقت ألف مقالبه، ويُذكر مخيمر بها إن نسي من جلسات السمر الليلية المعتادة.

* * *

وبسبب ذكر مخيمر يلتقي والدي للمرة الثانية بيونس، مرة وقت تشييع الجنازة ومرة أخرى وقت تلقي العزاء في المتوفاة إقبال، ود مخيمر ألا يكون ريان حاضرًا في هذه الفترة بالتحديد، يلعنه ويسبه في سره "روح الله يخرب بيتك يا ريان بسببك جنازة المرحومة كانت على وشك تتحول لزفة عروس يوم دخلتها مش يوم دخولها قبرها ليسألها الملكان من ربك وما دينك ومن نبيك.. وبسببك أيضًا شكلها كده سيتحول صوان تلقي عزائي فيها إلى ليلة حناء، مش ناقصها غير غازية ترقص وأنت المطرب الشعبي الذي يتنطط أمام المعازيم في حركات بهلوانية، فتجعلهم يتركون الغازية لرقصها، فلديهم زوجاتهم يكفونهم ما تفعله أمامهم فرحين بحركاتك الصادرة منك بتلقائية، روح يا شيخ إلهي ما تعدي ليلتك إلا وأنا شايلك بإيدي دول لقبرك، أرميك جنب المرحومة واستريح منك"

وكما توقع، بدأت المسرحية الهزلية بأولى فصولها، فكل من جاء لتعزيته ويرى ريان يتبدل الحزن المرسوم على وجهه لابتسامة بسبب ما صدر منه بالظهيرة، وخيل لمخيمر أن العزاء انقلب لخشبة مسرح بالفعل، فضرب كفًّا بكف، وسلم أمره لله، وبدلًا من قوله شكر الله سعيكم يا جماعة وهو سائر بين صفوف المعزين، أخذ يردد "لله الأمر من قبل ومن بعد، هو عاوز كده، لا راد لقضائه" ففهم الناس مقصده، وسدوا أفواههم رغمًا عنهم وأحكموا إغلاقها، ومرة أخرى بدلوا مكان ابتساماتهم التي أتوا بها من بيوتهم إلى علامات الحزن المفتعلة، إلا ريان وولداه لا يعون لما يدور من حولهم، يتصنعون البرود واللا مبالاة، وكأن لسان حال مخيمر يقول له كل ما فعلته من مقالب في شخصك يا ريان أنت الآن تنتقم مني، لكن على طريقتك الخاصة التي اعتادها الناس منك.

* * *

كاد الليل يذهب بعيداً عن منتصفه، ورغم عودة المعزّون جميعهم إلى منازلهم بلا رجعة إلا خمسة منهم صمموا على عدم ترك مخيمر وحيدًا في محنته لدرجة أن أولاده تركوه ولم ينتظروا معه لخلافهم معه منذ مرض والدتهم الذي تجاوز العامين، وبوْحِه لهم بأنه لم يعد قادرًا على العيش هكذا "أنا ناوي والنية لله أتجوز على أمكم المريضة اللي لا باين لها شفى أبدًا" هم في واد مشغولون عنه وعن والدتهم بزوجاتهم وأولادهم وبأعمالهم، لذلك فقد اتخذ قرار الزواج من امرأة سيتزوجها حتمًا للسهر على مرض والدتهم، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى عدم زيارة النوم لجفونهم منذ أرسلت والدتهم في طلبهم وهي في لحظات الاحتضار الأخيرة.

أنهى عاملو الفراشة لملمة قماش الصوان، ورصوا الكراسي على السيارة مستأذنين في الذهاب أيضًا بلا رجعة لحين جنازة أخرى، إلا الخمسة ينتظر مخيمر بفارغ الصبر ذهابهم أيضًا بلا رجعة مؤقتة لحين سطوع شمس يوم جديد، وإلا وقد حملوه هو الآخر لدفنه بجوار زوجته الراحلة، تنحنح والخمسة مازالوا في أماكنهم لا يتزحزحون، أولهم يونس يتمنى عدم العودة لمنزله ينظر في ساعة يده، هناك وقت معلوم يريد العودة خلاله إلى قصره متمنيًا عدم وجود أحدٍ منتظرٍ قدومه سواء أكانوا أولاده أو زوجته فريدة، فكل ما يهمه وقت رجوعه هو أن يجدهم يغطون في نوم عميق كي لا يزعجوه، وبالأخص فريدة وابنته ناهد، وما سمعوه عصرًا من والدي عندما جلس معهم على مائدة واحدة عندما تجرأ طالبًا خطبة ناهد لشخصي، وقتها انسحبوا وراء بعضهم وصعدوا للدور العلوي دونما إكمال طعامهم، بل إنهم لم يمدوا أيديهم إلى أطباق الطعام لخوفهم من إصابتهم بأية أمراض معدية إن دس أي فلاح يده في أطباقهم، وذلك بإيحاء من فريدة التي نشأت وربتهم على كره أي شيء يمس القرية، وخصوصًا أهلها الطيبين، أسكنتهم في برج عالٍ وعبأت قلوبهم غلًا وغرورًا، وملأت عقولهم أفكارًا ظالمة لمجتمع لا يريد منهم شيئًا سوى صلة الرحم، والنزول من البرج العاجي والسير مثلهم وبجوارهم على الأرض كما يسيرون، وتناست أن الأغلبية من أفراد ذلك المجتمع الذي تعيش بداخله تنطبق عليهم الآية الكريمة "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا" وحتمًا يونس يعلم أنه سيسمع كلامًا يسمم بدنه؛ لذلك فهو يفضل ألا يعود من عدمه إلى المنزل، والثاني والدي سليمان بجواره ملاصقًا له كظله، لم يكن في نيته الجلوس لهذه الساعة برفقة صديقه مخيمر فالود وده أن يكون أول المنصرفين من المعزين، لذلك

فهو ملاصق ليونس يمني نفسه أن يكون صهرًا له مغترًا بوجاهته وبمظهره الخارجي وبعظمته التي ألبسها الناس عليه دون وجه حق، فلو كان يدري ما يحتويه المثل القائل "من بره الله الله ومن جوه يعلم الله" لكان مبتعدًا عنه كل البعد، أو أنه يعلم بكل ما يدور لابن عمه ويتعامى أو يتغاضى، مادام البشر كل البشر لا يعلمون إلا هو، ولا كان فكر في إصدار حكمٍ ديكتاتوريٍّ علي أنا ابنه الوحيد بتزويجي دون إرادتي ممن اختارها لي زوجة، وانتظار والدي سببه تمنيه سماع رنين تليفون يونس يتصاعد من داخل جيبه كما أعلمه وقت الغداء عندما استأذنه في الصعود وراء أولاده لا يدري أنه كان يهدئهم ويرجوهم ألا يحدثوا ضجة ولا جلبة، وأنه سينفذ أمرهم بطرد هذا المجنون- والمقصود والدي الجالس بالأسفل- والذي وصل به الحد لطلب يد ناهد لشخصي، نزل وقتها يونس من أعلى يتصنع الضحك، وقد رسم الابتسامة الزائفة على خديه قائلًا لوالدي:

- انت أدرى يا سليمان يا ابن عمي بشباب اليومين دول، البنت الخلبوصة قالت لي سأعطيك الرد خلال ساعات، ولن يمر اليوم إلا وقد أعلمتك برأيها، شكلها كده- والله أعلم- هتصلي صلاة استخارة.

فتعجب والدي من قوله «صلاة استخارة» وهز كتفيه غير مصدق، لكنه قال يكذب نفسه «يمكن.. وليه لأ!» ومن وقتها وهو لا يفارقه كظله، يدعو الله ألا يخيب رجاءه، ويعود ورأسه منكفئة على كتفيه كما يظن لا يقوى على رفع عينيه في عيني، يقول لي مستسلمًا لرغبتي.. سأخطب لك نعمات كما تتمنى وترغب، إنه والدي ولا يعرفه أحد غيري.

والثالث ريان مصمم على رأيه ألا يرحل إلا بعد رحيل يونس وسليمان، ولداه بجواره يغطّان في نوم عميق، صوت شخيرهم يطغى على صوت حشرات

الليل الضئيلة الحجم الكبيرة الأصوات، والتي تسلي الليل في وحدته ووحشته.

ود مخيمر القولَ لعمي ريان «قوم روح انت وولديك» لكنه كلما هم بالذهاب ناحيته يتذكر أنه لن يكف عن الضحك، وسيضطره لأن يتحول ضحكه لقهقهات ليس موعدها في هذه المناسبة الحزينة، يتذكر ما يصدر منه من قفشات ونكات يرمي بها في حجره كل ليلة من خلال مجلسهما المعتاد في شرب الشيشة المرصوص على حجرها المعسل الممزوج بفتات مخدر الحشيش، فيعود أدراجه ويسكت.

وودَّ مخيمر القولَ أيضًا لوالدي ويونس أن اذهبا، لكنهما صديقاه ورفيقا عمره فأحدهما واجهة البلدة ومن كبرائها، وإنه لشرف له أن يظل هكذا مكانه حتى ولو بزغت الشمس بأشعتها، والآخر سليمان ابن عمه لا يقل مكانة عنه.

تجرأ ولم يجد بدًّا من تجرئه، وقال بصوت شبه واضح:

- اللي ينكسف من بنت عمه يا جماعة ما يجيبش منها إيه..!؟

فسمعه ريان، وردَّ عليه تلقائيًّا:

- ما يجيبش منها عيال يا مخيمر.

- عليك نور يا ريان، قوم بقى روح لدارك، وحلّ عني أنت وولديك التوأم انت مش واخد بالك.. دول نايمين وبيشخروا كمان جنبك، وانت مثلهما عنيك باين فيهم النوم، قوم يا راجل شكر الله سعيك.

رد عليه ريان يلكز ولديه، وهو الجالس بينهما في خديهما بكتفيه:

- بصراحة يا مخيمر، مش ماشي قبل رحيل هذين الشخصين الجالسين هناك.

وأشار بذراعه كاملًا نحو والدي ويونس، ليعلمهما بما يدور في رأسه الناشف فهما يعلمان ويعرفان ويحفظان أفعاله وأفكاره عن ظهر قلب، ولم يأتي بتلك التصرفات التي تشبه تصرفات الأطفال الصغار، وكان حتمًا أن تختتم هذه الليلة بالضحك الذي لا مفر منه، فقام الاثنان واحتضنا مخيمر الذي بادلهما الضحك ناسيًا أمر زوجته الراحلة يبادرهما قبل اعتذارهما له قائلًا لهما:

- الله جاب، الله خد، الله عليه العوض، وبكره واللا بعده هنساها، هنساها، ومن الأولى أن أنساها الآن، والله يرحمها ويشملنا جميعًا برحمته.

ردّ عليه ريان وهو يتجه نحوه بعد أن نفض كتفيه من الحمل الثقيل الجاثم عليهما لتصطدم رأسي ولديه ببعضهما وينقلبا على الأرض في موقف كوميدي ليضاف إلى مواقفه المضحكة التي حتمًا ستضيفها الألسن نادرة من نوادره، والتي تملأ صفحات عدة كتب:

- أيوه صح، الرحمة تجوز على الحي زي الميت، تمام وعين العقل يا مخيمر، كل شيء يكون صغير في أوله، ومع مرور الوقت يكبر ويكبر إلا مصيبة الموت تكون في أولها كبيرة، ومع مرور الوقت تصغر وتتلاشى.

ردّ عليه مخيمر وضحكاته تعلو حتى كادت لتتحول لقهقهات عالية:

- والله صدقت يا ريان، وأشهد لك أنك انتصرت على هذين الرجلين الليلة.

سُرّ ريان بشهادة مخيمر، وفتح صدره ليعبئه من عليل الهواء الممتلئ بنسيم الليل وهدوئه رافعًا هامته القصيرة عاليًا متخطيًا كتفيه المتعاظمين الممتلئين بالسرور، وانكب على ولديه بالصفع والركل لإيقاظهما غيرعابئ

لضحكات وقهقهات ثلاثتهم؛ لأنه خرج منتصرًا في هذه الجولة على يونس غريمه اللدود، وذهب بعيدًا ليختفي رويدًا وسط ظلمة الليل يرافقه التوأمان.

* * *

ودّع والدي ويونس مخيمر، ولم يتركاه إلا وغلقه باب بيته عليه، وذهبا يتمخطران في أناة وتؤدة غير عابئين بصمتهما، كل منهما بداخله رجاء وأمل يتمنيا تحقيقه، وصلا إلى منتصف الطريق بين منزليهما، صمم والدي على ملازمة يونس لقصره؛ لعله يسمع منه الرد الذي حتمًا سيثلج صدره، اقتربا من السور المشيد العالي البناء حول القصر، فأراد يونس أن ينهي على الخجل الملازم له طوال اليوم من إخبار والدي بالرفض التام والقاطع من ابنته بالزواج مني، وذلك من خلال رسالة قصيرة بعثت بها على تليفونه المحمول كما ادّعى وقت ذاك:

- البت مش موافقة يا سليمان يا خويا، وبتقول مبفكرش غير في دراستي وبس.

وبهذا الرد الصادم، عاد والدي وحيدًا يتجرع كأس الهزيمة، مرارة ما بعدها مرارة تجرعها وهو لا يكاد يصدق رد يونس عليه، وهو يحاول تبرير كذبته "البنت رفضت يا سليمان، ومش عارف أودي وشي منك فين، ملعون أبو دي خلفة ودا جيل" وبدأ يتساءل في حيرة، كيف لهذا المعتوه الأبله أن يرفض طلبي؟ لا أصدق أن ابنته رفضت، أسيجد زوجًا لابنته أفضل من ابني؟ ثم لو صدق فعلًا ورفضت ابنته أليس من الأولى قطع رقبتها وهي تخبره أنها ترفض هذه الزيجة؟! ثم أين سطوته التي يفرضها على الكبير قبل الصغير عندما يقر بحكمه الصادر فيلتزمون به ولو كان ظالمًا!؟

وكيف.. ولماذا.. ولم.. وحيثما.. وهكذا.. ودواليك من الأسئلة التي شغلت باله حتى وصوله لباب المنزل.

* * *

(١٠)
أصبحت حرًّا

في هذه الأثناء، كان قطار الليل يشق العباب، يصدر ضجيجًا مضاعفًا كلما خطا إلى الأمام نحو هدفه فيسمعه القاصي قبل الداني، جالس أنا بداخله مهمومًا أسترجع بذاكرتي كل لحظاتي الحلوة مع من بسببها قررت الرحيل دون عودة، مرَّ طيفها من أمامي حتى آخر العربة واختفت، فقمت أبحث عنها ولما لم أجدها؛ قلت بصوت لم يسمعه غيري وسط النائمين.. أين أنتِ الآن؟ فكل ما أسررت به لي وما بحت به لكِ لم يكن صحيحًا، الحب ثم الحب ثم الحب، الله يلعنك يآدي الحب وسنينك السودا، إنه ما أوصلني الآن إلى ما أنا فيه، هذا ما جنيته وما سأجنيه، كل ما يقلقني الآن قطع عيش والدك، فأبي لن يتردد في طرده شر طردة، لن يهمه أنه ابن عمه، ولن يهمه أنه فقير بالكاد تكفي يوميته إطعام أولاده، ولن يهمه أنه مريض، وأي صدمة ستودي بحياته حتمًا..

- ليتني يا نعمات ما أحببتك.

ليتني ما انجذبت لسحر أنوثتك وعشقتك.

ليتني ما انسقت وراء أوهامي ورغبتك.

ليتني ما صدقت أحلامي، ولا همت بك، ولا أحببتك.

ليتني قطعت أوصالي فأموت الآن قبل سماعي أي خبر يسيء إليكِ.

تذكرت بعدها محمود وما كان من حديث مني موجه له..

- الأسى علامة من علامات الحزن المشبع بالقهر، فأي قرار سليم هو الصحيح

من وجهة نظرك يا محمود، قرار إرضاء والدي على حساب قلبي وعقلي ووجداني، أم قرار الفرار بعيدًا عنه لينفذ ما يحلو له من قرارات على أي شخص آخر غيري، نعم يا محمود إني أعقه الآن، لكني سأذهب بعيدًا لفترة لا أعلم كم ستطول، ودون أن أدري أين سأقضيها، لكن صدقني عندما يستقر بي الحال ستكون أنت أول من يعلم، هذا التليفون احتفظ به وأرجوك لا تحاول الاتصال بي؛ لأني لن أرد عليك إلا عندما أقرر أنا.

وداعًا صديقي العزيز محمود.

وداعًا أيها الخل الوفي محمود.

* * *

كان مزاجي العام وقتها لا يسمح بتعكيره من أي دخيل حتى لو كانا جفناي الآبيان تذوق طعم النوم، وقد مددت بجسدي فوق أحد الأسرة بغرفة استأجرتها بأحد فنادق بورسعيد، طمأنت محمود عن طريق رسالة بعثت بها إليه، اطمئن يا صديقي إني الآن حر، والحر لا يعيش إلا في المكان الحر، إنها المدينة الباسلة الحرة التي وقفت في وجه الطغيان، وصدته إلى أن نالت حريتها، إنها بورسعيد وجهتي التي قصدتها، سأظل بداخلها حتى أنال حريتي مثلها، وسأعود حتمًا عندما أحس أنه لا سلطان على قراراتي التي أتخذها وتخصني وحدي.

(١١)
عُد وإلا

ها هي الشمس من جديد هلت بإشراقتها المعهودة، انتقمت من ظلمة الليل الموحشة وطردتها شر طردة، متوسمة خيرًا لعل أفعال البشر تجعل اليوم يمر بإشراقة صافية لا تشوبها أية شائبة، وإنه لتناقض عجيب بين الليل وسكونه ذي الظلمة الموحشة وبين الشمس وضيائها ونهارها المزعج، هي المقارنة ذاتها بين يونس داخل قصره وضعفه ووهنه الشديد أمام سطوة زوجته ومن ورائها الأبناء، وخارج قصره من قوة وسطوة من جهة، وبين والدي سليمان على النقيض تمامًا من قوة الشخصية والسيطرة والهيمنة على أهل بيته من الزوجة والابن، وكل ما يقع تحت يديه من أملاك، إنه الطغيان نفسه متمثل في شخصه، وخارج البيت شخص لا حول له ولا قوة يتظاهر بالطيبة يتصف بالجود والكرم يتسم بالسخاء، إنهما شخصان متناقضان، لا يمكن أن يغيرا من صفاتهما هذه في وقتهما الحالي أو بين ليلة وضحاها، وإذا أراد أحدهما ذلك فإن بذله الجهد الشاق لهو بالوقت الطويل الذي لن يستطيعه لأنهما أقلَمَا حياتهما على هذا المنوال المتكرر في الأحداث اليومية، لكنهما يتقاسمان الآن شيئًا لابد لهما من كتمانه وعدم البوح به؛ لأنه الخراب والدمار الذي حل بهما بسبب أفعال النفاق التي يأتيانها كل دقيقة وكل ساعة تمر في شريط حياتهما اليومي.

نهض الاثنان والدي ويونس في توقيت واحد، وكأن القدر ينظر لهما باستياء ويقول لهما ما حيلتكما الآن!، أذان الظهر هو في ميعاد الأمس لم يتغير،

لكن الأمس نفسه في نفس التوقيت بأحداثه ليس كاليوم في نفس التوقيت بأحداثه، شخصان اجتمعا بالأمس وتفرقا منتصف الليل، ومازالا نائمين يغطان في نوم عميق، يفيقان على حدث متشابه لدرجة كبيرة، لكن مع بعض الزيادة والنقصان؛ فعمي يونس أفاق ليجد قصره خاليًا إلا من ورقة ملقاة بجواره على حافة السرير ومحتواها «رحلنا جميعاً إلى السكن الآخر؛ حيث التحضر والمدنية، لذا نرجو عدم الإزعاج، وإلا... زوجتك وأولادك»

ووالدي سليمان يفق ليجد هو الآخر رسالة مني، لكنها ليست مكتوبة كسابقتها ليونس من زوجته وأولاده، إنها مكتوبة على وجه والدتي ومرسومة على قسمات وتعابير وجهها المعبر عن كل شيء، سألته:

- مش عاوز تعرف ابنك فين دلوقتي؟
- مش عاوز اعرف.
- يوصل بيك الجفاء للدرجادي!
- إنه تحداني، ولابد من عقابه ومحاسبته.
- هون عليك، خلاص مش هتشوف وشه من هنا ورايح.
- تقصدي إيه بكلامك ده؟
- ابنك لم كل ملابسه ورحل امبارح.
- رحل! يعني إيه يا ولية؟!
- رحل يعني هج طفش من أفعالك.
- وانتِ طبعًا عارفة طفش على فين!
- هو دا اللي عاوزه أعرفه منك، إنت من ضيعته ولزامًا عليك أن تبحث

عنه وتأتيني به.

* * *

طأطأ والدي برأسه، وفي الحقل جلس يتمتم والمسبحة بين يديه يكرُّها كرًّا لا يفكر في شيء سوى طلبه الذي قوبل بالرفض من ابن عمه، ومحمود جالس بين يديه ينتظر بفارغ الصبر توجيه إليه السؤال المعدة إجابته مسبقًا:

- مروان صاحبك راح فين يا محمود؟

- والله يا حاج لو أعلم بمكانه لما تأخرت في الانتظار لأن تسألني هذا السؤال.. ودعته بالأمس و...

وقطع كلام محمود صوت رنين التليفون المتصاعد من داخل جيبه، فأمره والدي بنبرة متهكمة لا تخلو من السخرية منه لحمله تليفون، بأن يرد على المتصل.

ازدرد محمود ريقه، وأدخل يده في جيبه يبحث عن زر الكنسلة فلم يعرف بسبب الرعشة التي سيطرت على يده وعلى كيانه أجمع من جراء تلك النظرات التي لا تعرف شفقة ولا رحمة، ويراها لأول مرة خارجة من عيني والدي المتسم بالوداعة والهدوء، لكن الغيظ يأكله أكلًا من داخله.

- مالك يا محمود! طلع تليفونك ورد على المتصل.

تطلعت الأعين مرة أخرى لبعضها، وخرجت المقلات متحدية في إصرار على ألا ينال طرف من الآخر.

مد والدي يده وخطف التليفون من يد محمود يتأمل الرقم، فوجده رقم هاتفي فأمره أن يرد علي مع تشغيل السماعة الخارجية، رمى محمود بصره

أرضًا يعلن العصيان والتمرد، فما كان من والدي إلا أنه أمره بحزم؛ فاستجاب محمود تحت تهديد ووعيد، ورد عليّ.

هدأت نفس والدي عندما سمع صوتي واطمئنانه علي، لكنه جذب التليفون من يد محمود، وكلمني بلهجة آمرة حازمة يقول لي وأنا منصت له أتجرع المرارة والعلقم من معاملته الجافة لي هذه:

- اسمع يا ولد يا مستهتر، لن أسألك أين أنت الآن، كل ما أطلبه منك أن تعود الليلة وتبات في حجرتك، وهذا من أجل خاطر والدتك فقط، وإلا والله لأطين عيشتك أكثر مما هي مطينة.

ورمى بالتليفون في حجر محمود المتململ في مكانه، قائلًا له:

- مبروك عليك التليفون يا محمود.

وذهب بعيدًا حتى اختفى عن نظره.

(١٢)
بداية الشر

الاسم حسيب والشهرة حمادة، تبرأت منه العائلة لاقتران أي جريمة سرقة بشخصه، فوالده محفوظ أخو جبريل والد يونس، داهم المرض محفوظ فمات وتركه يتيمًا فتكفل برعايته جبريل ورباه مع يونس، تحت سقف واحد تنشئا وتربيا، لم يكن في نيته التفرقة بينهما في المعاملة، وبمرور الأيام فهم ووعى الولد حسيب الذي كان صغيرًا؛ أن نصف ما يقع تحت يد عمه من أملاك يخصه، انقلب حاله وأصبح شخصًا لا يطاق، وقف في وجه من هم أكبر منه، تحداهم وكرر على مسامعهم.. ليس لأحد سلطان علي، ومن خلال تركتي التي ورثتها عن والدي سأفعل ما يحلو لي، وفعل ما يحلو له ليضيع ميراثه سُدًى تذروه الرياح، وبعد إفاقته على حقيقة ضياع كل تركته تحول إلى السرقة فيُؤتى به مكبلًا من قدميه، فيعلق ويضرب حتى يقر بأنه السارق وأين يخبئ ما سرقه، وعندما يُجبر خاطر المسروق منه يُحل وثاق حماده، ويقبل جبينه بل ويجمع له مبلغ مالي، فيأخذه وقد نسي ما فعل به من ضرب وإهانات لدرجة أنه اعتاد الأمر، لا يمد يده ليسرق إلا عندما يكون محتاجًا ووقت المزاج فقط، لذلك من وجهة نظره أنه ليس بسارق، لكنه يأكل من عرق جبينه، فهؤلاء الوجهاء والكبراء من العائلة إنما بنوا ومازالوا يبنون مجدهم وشهرتهم من خلال أفعاله التي لا يرضى بها عدو ولا حبيب، وليس وحده فقط بل أيضًا بسبب المتسرعين في أخذ حقهم بأيديهم دون الرجوع أو الرد على من يأتيهم به، وبسبب هؤلاء المتهورين أيضًا الرافعي أصواتهم بالسباب والشتائم

فيظنون أنهم بذلك يأخذون حقًّا، أو أن حقهم سيعود إليهم فيفيقون على حقيقة ضياع حقوقهم بأسلوبهم الفج هذا، فيعيبهم الناس، والناس يعلمون أنهم طيبو القلوب لا يحملون ضغينة لأحد، ويأليتهم يعلمون أن بصفات الأناة والحلم والصبر والتعقل والتدبر في الأمور ولو اكتسبوا صفة واحدة منهم؛ لما كانت حقوقهم ضائعة بسبب تصرفاتهم تلك.

* * *

أتي حماده على رأس نفر من الناس يتقدمهم بطرق باب يونس، ولما أُذن لهم بالدخول كان يونس في حالة من الغضب الشديد لرحيل الأسرة بأكملها دون أخذ الإذن منه، فظن أن حماده فعل جرمًا يستحق عليه العقاب، فلم يمهله الكلام وانهال عليه بكرباج معلق على الحائط، أمسك به والدهشة تلف من أتوا خلف حماده، هرولوا فارين من أمامه ولم يخلصه من يده إلا ريان وولداه سمعان وخلفان واللذان أشهرا سلاحيهما في وجه يونس بأمر مباشر من ريان ألا يقترب وإلا..

أنزل يونس كرباجه وكف يده بعدما وجد نفسه في خطر حقيقي لن يخرج منه هذه المرة إلا جثة هامدة أمام تهور من يضمر له كل شر، وتكلم يقول:

- وإلا إيه يا ريان!، عاوز تقتلني لأجل خاطر شخص تافه زي ده؟

- حسيب مش تافه يا يونس، حسيب له حق علينا كلنا، مش كفاية أنه وعي على الدنيا وملقاش أب ولا أم يربيانه ويقومانه كغيره ممن تدللوا وكبروا وذاع سيطهم على حسابه، إياك يا يونس تمد إيدك على حسيب مرة تانية.

- قبل ما تتفضل من غير مطرود يا ريان إنت وولديك الخيال المآتة لازم تفهم أن من تدافع عنه وتأخذه في حضنك الآن ليس بحسيب الذي نبتت بذرته من رحم هذه العائلة المحترمة، إنه حماده المجرم ردّ السجون.

اندفع حسيب، وكاد يمسك برقبة يونس لولا تهدئة ريان له، والذي قال ليونس:

- وانت لازم تعرف يا يونس إن حسيب أو حماده هذا، قد أبعدته عنك في اللحظة الأخيرة التي كان سيقتلك فيها، ومن دلوقتي لازم تعمل له حساب وتتقي شره وشري، ومتحاولش تتدخل في أموره بعد كده.

وأسند جسد حماده بجسده متجهين للخارج، لكن كان لزامًا على ريان أن يفعل شيئًا آخر أتى من أجله، لوى رقبته للخلف فالتقت عيناه بعيني يونس المليئة غضبًا مخرجًا له لسانه؛ ليجعل يونس يتناسى كل ما حدث، ويدخل في نوبة ضحك جعلت سمعان وخلفان يعلقان بقولهما لوالدهما وهما يهمان باللحاق به:

- عمي يونس اتجنن يابا.

* * *

استضيف حماده ومن معه في بيت ريان، فقُدم لهم الطعام ثم الشاي فالمعسل، انبسطوا وأخذوا راحتهم، وقالوا في أنفسهم.. والله نعم الضيافة حقًّا، إحنا لو كنا أو مازلنا مستضافين في قصر يونس لما افتكرنا حتى بكوباية ميه، اتفوا على دي منجهة وعظمة، ربنا يبارك لنا فيك يا حاج ريان. ضحكوا وتبادلوا القفشات والنكات معه، وهو الذي لم يشأ أو يهم بسؤالهم ما هي المشكلة التي جعلتهم يذهبون ليونس لحلها لهم، جعلهم يبدؤون بعرض ما عكر صفوهم

حيث أنهم جيران وحبايب ولا يكون بينهم إلا كل خير، بدا الأمر غريبًا عليه عندما ظن أن حماده افتعل جرمًا يستحق عليه العقاب ككل مرة، لكنه هذه المرة هو المعتدى عليه، وأن جاره الجالس بجواره تعدى على حرمة بيته، دخل وامتطى حماره دون أخذ الإذن منه، وحُلت المشكلة بأن قام جار حماده بالاعتراف بخطئه وتودد إليه أن يسامحه، فسامحه إرضاءً لريان ابن العم الذي أكرمهم وفاق إكرامه لهم وله بأن دس في جيبه- وهو خارج- مبلغًا من المال كان يود ألا يأخذه؛ فهي المرة الأولى في حياته التي يحس فيها بأنه أصبح عالة على الجميع، ولابد له من أن يعتمد على نفسه؛ حيث أنه كان يود- فعلًا- التوبة وفي نيته عزم وتوكل هذه المرة، فأراد من خلال فعلة جاره أن يعلم يونس بذلك متعمدًا عدم مسامحة الجار إلا أمامه، وأراد من خلال غلطة الجار في أن يبدأ انطلاقته إلى الطريق الصحيح، لكن يونس لم يمهله وزاده إصرارًا في المضي بسلك طريق الشر لنهايته.

* * *

لم يكن بالهين على والدي رفع راية الاستسلام بهذه السهولة، فلا أمر يستعصي عليه يحاول بشتى الطرق نيل ما يرنوا إليه فكره وتتطلع إليه نفسه، عندما توعدني في المكالمة التي دارت بيننا من جانبه فقط بالطبع، ذهب واختفى بعدها عن نظر محمود بطريقة لا تجعل محمود يشك في أنه ذاهب وآخذ طريقه إلى قصر يونس يطرح عليه نفس طلب الأمس، وصل لباب القصر وقبل وصوله بقليل لاحظ حماده يستند على كتف ريان ومن خلفهما ولداه والجار يطيبون خاطره ويربتون على كتفيه، ويستحلفون ريان أن يتركه ليقوموا بهذه المهمة بدلًا منه، وابتسم عندما سمع رد ريان عليهم وهو يحلف لهم بالطلاق ألا يساعد حماده غيره، جذب يد خليل البواب المنتشي بشيء من

الضحك الذي يصيبه كلما تقع عيناه على ريان، وسأله:

- في ضيوف آخرون مع سيدك يونس؟

فأجابه خليل:

- لا يوجد ضيوف آخرون، وسيدي يونس وحده بالداخل.

وأفلت بلسانه عن المزيد من الإجابات بدون تلقي الأسئلة، كأنه يعي ماذا يدور في رأس والدي:

- حتى الهانم والأولاد سافروا إلى مصر، ومش راجعين تاني.

مش راجعين تاني رددها والدي مرتين أو ثلاثًا، وسأل خليل:

- تقصد إيه يا خليل بكلامك مش راجعين تاني!؟

- أعني يا سيدي سليمان، قرروا عدم العودة مرة أخرى إلى هنا نهائيًا، هذا ما أسرت به ستي فريدة لي قبل مغادرتهم.

لم يكمل والدي طريقه للداخل، لكنه عاد إلى بيته وإرادته الحديدية تصمم على محاولة الكرة مرة أخرى، لكن هذه المرة لابد من سماع الأوكيه من صاحبة الشأن ناهد بصفتها وشخصها، لعل يونس غير راغب في مصاهرته، وهو من أمرهم بالرحيل من البلدة.

تحلى والدي بأحلى الثياب وتعطر بأغلى العطور، ودقائق هي بالقليلة قضاها في المنزل وخرج بعدها حتى أنه لم يشأ إعلام والدتي بما هو عازم عليه من تصميم، فحسبته ذاهب لمصالحتي بعدما علم من محمود بمكاني، وقالت وهي تودعه:

- يهديلك العاصي يا رب.

* * *

كان المساء جاثمًا بسواده عندما وصل والدي للحي الذي يقبع فيه سكن فريدة وأولادها، ترجل من التاكسي ونظر في ساعته، وبعدها تأكد من بواب العمارة أنهم يسكنون الدور الرابع بأكمله، وأنه عليه أن يصعد إليهم عن طريق السلالم لأن الأسانسير معطل على حد قوله، نظر لأعلى يتذكر أنه أتى مع يونس مرة واحدة إلى ذلك المكان من قبل، وتحديدًا يوم وفاة والد فريدة، وكان ذلك بعد زواج يونس بفريدة بعام، لكن ذاكرته لم تسعفه أن يتذكر أي الأدوار تتواجد بها الشقة، صعد والدي وعند الدور الرابع توقف يأخذ نفسه، ونظر لأسفل يعد الأدوار التي اعتلاها، لف دورة كاملة حول نفسه يبحث عن أي كائن حي يؤكد له أنها الشقة المرادة الواقف أمامها، ولم يستغرق وقتًا في الانتظار، فتح باب الشقة ليجد أمامه التوأم ياسر ووليد خارجين لتوهما تأخذهما خطواتهما نحو المصعد، فألقى السلام عليهما لعلهما يتوقفا، فلم يجد منهما ردًّا غير كلمة هاي عمي سليمان، وتركاه دون أدنى اهتمام، نظر إليهما والدي متعجبًا وضرب كفًّا بكف، وتمتم يتوعد البواب، وهو يضغط على زر جرس الباب.

فتح باب الشقة ليفرج عن وجه عزيزة الشغالة، تشبه إلى حد كبير خليل حارس بوابة قصر يونس، فسألها مبتسمًا:

- هو خليل يقرب لك؟

فقالت له والقرف يكسو وجهها:

- إنت عاوز مين حضرتك؟

تنحنح وأعاد مهابته لمكانتها من خلال تعابير وتقاسيم وجهه الصارمة، وراح يقول:

- الست فريدة موجودة؟

- أيوه موجودة، أقول لها مين؟

سمع والدي صوت فريدة آتٍ من الداخل تقول مين يا عزيزة؟

انزاحت عزيزة قليلًا من مكانها ليظهر لفريدة وجه والدي، فقالت بنبرة ملؤها التعالي والكبر:

- آه الحاج سليمان بشحمه ولحمه، اتفضل اتفضل، ادخلي جوه يا عزيزة.

- حاضر يا ست هانم.

- خير يا سليمان! في حاجة حصلت في البلد، وجابتك على ملا وشك في الوقت دا؟

صدم والدي من رد فريدة الغير متوقع، والصادر بلهجة متصاعدة في حدتها، فلم يعرف كيف يكون رده!، فهو لم يتعامل مع جنس النساء من قبل عندما يعلو صوتهن هكذا، والدتي الوحيدة من نالت هذا الشرف يتحدث معها يسألها ويأمرها، وويل لها إن تناقشه أو تتكلم معه بالطريقة الفظة هذه، سكت يفكر كيف يكون الرد؟ صمت وندم على قطعه المسافات الطويلة لأجل المستقبل المشرق لي كما كان يرسم ويخطط، إنه واقف على الباب تحسبه صاحبة البيت جاء يمد يده ليشحت منها، تحسر على مكانته التي تهان وتداس على يد امرأة، تحسر على كبريائه وجبروته الذي ذهب وتلاشى في لحظته هذه، ولم يعد له وجود، لملم حسرته وندمه وتجرعهما، فأحس بطعم المرارة يملأ جوفه عندما أراد مجاراتها في الحديث يحاول امتصاص غضبها بهدوئه ورصانة عقله اللذين يستعملهما وقت اللزوم:

- مش من الواجب برضه تقوليلي اتفضل، هو أنا غريب يا فريدة واللا أنا قاطع كل المسافة دي عشان أقف على الباب زي الشحاتين.

ورأى الأختين ناهد ونجوى هالتين كالبدر في أبهى حلتهما من ورائها، فتهللت أساريره، وتوسم خيرًا في قدومهما لعلهما يراجعا والدتهما فيما تأتيه من أفعال تأباها العشرة والجيرة وصلة القرابة، أحس أنها الانفراجة، مد يده ليسلم عليهما، ويا ليته ما مدها، لم يجد إلا صلفًا وكبرًا، تصنعا أنهما لا يرياه، تجاهلتاه، وقالت ناهد لوالدتها:

- عاوزه حاجة يا مامي؟ إحنا خارجين.

- لا مع السلامة يا حلوين.

- قولوا لي يا بنات هترجعوا إمتى؟

ردت نجوي وهما مازالتا واقفتين بجانبها، وعين ناهد تتحدى بوضوح نظرات والدي الصادرة تجاهها كالسهام المضرمة نارًا:

- على وش الفجر يا مامي، باي.

وبدأ تحرك ركب ناهد ونجوى نحو الخارج على وشك تخطيهما جسد والدي الكاظم غيظه والمنتفخة أوداجه في نفس الوقت وكأنها تقطر دمًا، وقد طارت البقية الباقية من عقله، لم يدرِ إلا وأنه منقضٌّ عليهما يجذبهما من شعر رأسيهما وقد جعلهما خلفه يترنحان لا حول لهما ولا قوة إلى داخل الشقة.

غطت قوة شخصيته وغلظة صوته على قوة شخصية فريدة ونعومة صوتها وهي المفزوعة من هول ما يحدث لابنتيها قائلًا لها:

- هي دي التربية يا أولاد الأصول!... إتفوه.

وبصق في وجه ثلاثتهم.

ردت ناهد بانفعال ممتزج بالبكاء:

- إنت راجل قليل الأدب؟

- اخرصي يا كلبة، بتشتمي عمك؟

وهوى بيده يريد صفعها، تدخلت فريدة ووقفت حائلًا بينه وبين ضربها، تأمره بالخروج:

- اخرج بره، وإلا اتصلت بالشرطة الآن، وادعيت عليك بأنك تريد قتلنا.

- أنا فعلًا شكلي هرتكب جريمة، وأنهي على حياتكم الليلة دي، إتفووا عليكي وعلى أولادك.

أخذت ناهد مكان والدتها في المقدمة في مواجهة والدي، وهوت بكف يدها على وجهه، وصفعته.

* * *

(١٣)
يا ليل طول شوية

نجوم متلألئة، وقمر مكتمل، وأنوار مبهرة وساطعة، اجتمع ثلاثتهم في مكان واحد، فليس بالعجب إذًا أن تصنع الكهرباء شيئًا مماثلًا لهما على الأرض يرافقهم الضوضاء والضجيج وأغاني هابطة ورقصات مبتذلة داخل ديسكو مليئ بالشبان والفتيات شبه العاريات، إنه المكان المفضل للتوأم ياسر ووليد لقضاء سهرتهما اليومية، رفيقهما الثالث أغلب أنواع المواد المخدرة «بانجو- ماكس- هيروين- كوكايين- حشيش- أفيون- ترامادول- حبوب هلوسة..الخ» أي نوع يجدانه يقضي الغرض والسلام.

ثلاث سنوات مرُّوا على قرار فصلهما من الجامعة لتعديهما على عميد الكلية بالضرب بعد ضبطهما متلبسين بالغش في أحد الامتحانات، لم يعرف بأمر فصلهما- عقابًا لهما على ما اقترفاه- إلا والدتهما فريدة وأختاهما ناهد ونجوى، أما يونس الوالد فليس من المهم لأن يتدخل في حياتهما أو يعرف بشئونهما الخاصة، فدوره فقط متمثل في توفير القدر المناسب من المال الذي بالكاد يكفي احتياجاتهما اليومية من المواد المخدرة، لذلك تكثر زياراتهما له للاستزادة والتزود بالمال بسبب وبدون سبب، ولولا ذلك لكان هجرانهما له للأبد وعدم رؤيته، عمر التوأم تخطى العشرين، وأقربهما في التعامل للجنس الناعم أكثر من جنسهما الذي ينتميان إليه، فقد ورثا كل شيء عن فريدة إلا المال الذي لا يجدانه إلا عند يونس، الشكل والهيئة ولغة الحوار المشمولة بالمياعة والمياصة والتكلم من الأنف في بعض الأوقات والتكبر على خلق الله

في الرايحة والجاية وعدم اللامبالاة، فتخرج لنا شخصيتان دُفنت رجولتهما منذ ولادتهما بتعمد واضح من جانب الأم التي كرهت كل شيء في زوجها، وبالتحديد في اليوم الذي زفت فيه إليه، وقتها أفاقت وسط الطريق على الحقيقة المفزعة التي أهالتها، وجعلتها تصمم على العودة إلى منزل والدها في ذات الليلة، حيث غرر بها يونس وضحك عليها بمساعدة من والدها الذي كان يعلم بأمر يونس من أصله وفصله وانتمائه لعائلة كبيرة محترمة لها ثقلها ووزنها، ويعلم أيضًا أن كل ما يعيب يونس من وجهة نظر ابنته اكتشافها في هذه الليلة أنه قروي وأنه حاصل على الشهادة الابتدائية وليس التوجيهة كما ذكر لها، أما هي فمن أسرة متوسطة الحال، والدها بيومي الشهيبي قاضي محكمة كانت وظيفته يحكم بين الناس بالعدل، لا يحيد قيد أنملة عن تنفيذ القانون بحذافيره، رزقه الله بفريدة ولم يشأ أن يرزقه بغيرها، فحاول جاهدًا تربيتها على الأخلاق والفضيلة كما نشأ وتربى وتعلم، ولأن العرق دساس فقد نشأت ووعت للدنيا على تربية والدتها عجينة طبق الأصل منها في كل تصرفاتها وأفعالها للدرجة التي زين لها الشيطان وأغراها، بل وأوعز إليها أن زوجها القاضي المحترم الذي يشار إليه بالبنان وصل لمكانة تجعله أفضل وأعظم ممن حوله من البشر، ومن هذا المنطلق اختارت أعلى مكان وجلست فيه ومنه بدأت تتعامل مع الناس، فلا هي تواصلت مع الناس ولا الناس أنفسهم تحملوها، أحس الوالد القاضي الفاضل بيومي أن ابنته فريدة تضيع منه بسبب أفعال وتصرفات زوجته، فاحتسب أمره لله ودعا كثيرًا عليها؛ لأنها شوهت صورته في وجوه الناس من حوله، تذكر أنه أقسم في يوم من الأيام بأن يهب حياته للقانون والعدالة «العدل أساس الملك» جملة اتخذها نبراسًا، وبسببها نسي لبرهة من الزمن أن له بيتًا له حقوق عليه، الواجب يحتمه أن

يؤديها بالعدل، ولم تكن تتكشف له الأمور ويرى الوجه الحقيقي لزوجته إلا من خلال فترة نقاهة ألزمته الفراش فترة من الزمن، فتفتحت له دهاليز سرية لم يكن يراها في شخصيتها؛ حيث كانت تقضي معظم وقتها في القضاء عليه من خلال تصرفاتها وتعاملها مع من حولها، فطلقها ولم يندم على تطليقها، واحتضن فريدة وأقسم لها ألا يتركها وحيدة، وأن ينشئها على مبادئه وقيمه وأخلاقه التي تربى ونشأ عليها، وكان أول شيء فعله استقالته من القضاء مفضلًا مهنة المحاماة عملًا آخر ليجعل فريدة نصب عينه طيلة الوقت، لكنه لاحظ أن فريدة تنمو وتشب على نفس تصرفات والدتها من الصلف والكبر وعدم حسن معاملة الآخرين، فخطرت في رأسه فكرة تلقينها درسًا لن تنساه طول عمرها من خلال نقلها للعيش في بيئة أقل مستوى من البيئة التي تعيش بداخلها؛ لعلها تفيق من الأوهام التي عششتها أمها في رأسها، وهو بذلك يريد أن يكسر كبرها وصلفها، وتفتق ذهنه لتزويجها ليونس عندما رآه بصطحبة والده جبريل المتكئ على عصاه، فقال لنفسه.. شاب ولا كل الشباب، زينتهم بحق، لا يعيبه شيء، فهذا والده رجله والقبر أتاني يصطحبه ليتنازل له عن كل أملاكه، فهداه تفكيره بأنه الشخص المناسب لفريدة، وأنه الوحيد الذي سيحافظ عليها ويؤدبها في نفس الوقت، وينسف كل ما في عقلها من تربية زرعتها والدتها بداخلها، ومنذ اللحظة التي رأى فيها يونس سعى لتوطيد علاقته به، وفي الوقت المناسب عرض عليه رغبته في تزويجه من ابنته الوحيدة متعللًا بالمثل القائل «اخطب لبنتك، وما تخطبش لابنك» واشترط عليه ألا يعلم فريدة بأنه قروي إلا يوم دخلتها، كان هذا شرطه الوحيد، غضب وقتها يونس من إلحاحه بألا يعلم بمن سيرتبط بها بالبيئة التي عاش وتربى وترعرع فيها، لكن القاضي بيومي قال له.. دع ما قلته لك الآن، ولا ترد لي الإهانة

بمثلها إلا بعد رؤية من ستكون زوجتك، وأمام جمالها وسحر أنوثتها سكت يونس وقتها، وانتظر بفارغ الصبر امتلاك تلك الفتاة التي سلبت لبه، ويوم الفرح ارتدى اللباس الأفرنجي، وجلس بجوارها غير مصدق أنه امتلك تلك الجوهرة الرائعة الجمال، وآخر الليل احتضن والدها وشكره لأنه اختصه بها دون غيره، وكل شيء سار كما خططا له، فرحل العروسان وحدهما للانتقال لمسكن الزوجية، كان الطريق طويلًا ومتلحفًا بالسواد في الوقت نفسه؛ فلم ترَ فريدة ما حولها على جانبيه من زراعات، فقط كان لزامًا عليها الالتصاق بزوجها للتعود عليه، إلا أنه كان منشغلًا عنها بقيادة السيارة، ويفكر كيف تكون الطريقة التي سيعالج بها الموقف بمجرد وصوله، وفي لحظة يأس من طول الطريق، سألته فريدة:

- لسه بدري يا زوجي يا حبيبي.

أشار لها بأصبعه.. انظري أمامك هناك أنوار معلقة على مرمى بصرنا، فتهيئي لقد وصلنا.

وكأنها كانت نائمة مستفيقة لتوها، فركت عينها غير مصدقة، من حولها زراعات مترامية الأطراف تحتضن منازل متهالكة مبنية من الطوب اللبن ومطلية بمادة سميكة من الطين، همت بسؤاله فبادرها:

- أرجوك عندما نكون وحدنا بداخل غرفة نومنا افعلي بي ما تشائي، لكن الآن ليس من المعقول أن تتفوهي أمام فوهة المسدسات والبنادق التي تقذف بالرصاص هنا وهناك، احذري وتعقلي اخشي أن تصيبك رصاصة طائشة تودي بحياتك، فينقلب يوم عرسك لجنازتك، وبدلًا من أن تزفي إلي نهيل عليك التراب داخل أي جبانة من جباناتنا، وما أكثرها.

وبعد زفافهما مباشرةً أصبحا قوتين متضادتين، توشك كلتاهما على الانفجار في وجه الآخر، شجار وعراك وأصوات عالية، وظل الحال على هذا المنوال عامًا، أثبتت أيامه ذات الوتيرة البطيئة والمملة في تحركها أنها زيجة فاشلة بكل ما فيها من معانٍ، فذاك يونس متماسك ليس باستطاعته ولا بمقدوره تطليقها، خاصة بعد موت والدها وتركه وصية كتب فيها «أرجوك يا ولدي يونس، مهما حدث بينكما من شقاق فلا تطلقها، أرجوك اصبر عليها وصدقني مع مرور الأيام وحسن عشرتك لها، ستلين وتنسى عنادها».

إلا أن عنادها وثورتها لم تهدأ فعليًّا إلا بعد إنجابها للتوأمين، لكنها ظلت رغم ذلك متحفزة متوثبة على خصمها العنيد الخائن والصابرعلى تصرفاتها في نفس الوقت، فكلما سنحت لها فرصة تجده فيها ضعيفًا أمامها؛ تنقض عليه وتغرز مخالبها في جسده فتنهشه نهشًا، ويونس من جانبه ليس في وسعه شيء يفعله تجاهها سوى الصبر عليها، عملًا بوصية والدها، جرب أن يشغلها بموضوع الإنجاب، لكنها كانت فكرة فاشلة تجعلها تهدأ لبعض الوقت وتثور ثورتها من جديد، فطرد هذه الفكرة نهائيًّا بعد إنجابها بعد التوأم لناهد ونجوى، حيث عام واحد يفرق بين ولادتهما، وكانت الوسيلة الوحيدة أمامه هي عقد اتفاق أو هدنة معها ليخرج كل واحد منهما فائزًا بما يراه مناسبًا لراحة باله من وجهة نظره، فأصبحت فريدة حرة تفعل ما يحلو لها، لكن بعيدًا في شقة والدها التي ورثتها عنه، ترتدي ما يحلو لها من الثياب، وتخرج للسينما والمسرح والحفلات العامة والأفراح.. الخ، مادام هذا بعيدًا عن مجتمع يونس الذي لابد لها، وحتمًا عندما تكون بداخله ووسط أفراده أن تلتزم بتقاليده وعاداته، وهكذا بدأ يونس يجني محصول الصبر الذي انتظر حصاده طويلًا، فقد اكتسب مكانة والده بعد وفاته، والتي كانت ستذهب لشخص

غيره، وتحديدًا ريان ابن عمه الذي كان متحفزًا ومتأهبًا لوقتنا هذا لنيل مكانته.

* * *

(١٤)
العين بالعين، والسن بالسن، والبادي أظلم

لم ينسَ حماده أمر إهانة كبير العائلة له وضربه بالسوط على جسده دون سبب يذكر سوى أنه كان ذاهبًا إليه مرفوع الرأس، ليقول له آتي إليك هذه المرة لا لمشكلة افتعلتها، وإنما لتأخذ لي حقي من جاري، وتحكم بيننا بالعدل، وأعلن بعدها أمامك أني تبت، ولن أعود لطريق الإجرام مرة أخرى.

كان في نيته مصارحته أنه فكر جديًّا في التوبة، وأنه سيبدأ حياته من جديد يمسك بالفأس، يزرع ويحصد كغيره من الفلاحين، ويأكل لقمته من عرق جبينه، لكن هيهات لا تأتي الرياح بما تشتهي السفن، فقد خرج حماده بعد هذه الموقعة أكثر تصميمًا على مواصلة مشوار السرقة الذي لم يعرف مهنة غيرها متحديًا سلطان يونس شاهرًا في وجهه سيف الحقد والغل المترسب على مدى أعوام منصرمة، وبالتحديد بعد وفاة عمه جبريل بأيام يطالب بحقه في الميراث من يونس، حقه الشرعي نصف التركة التي تركها جدهما، وأمام كل رجال العائلة أخرج يونس كل الحجج والأوراق التي تثبت أن والده لم يترك له إلا حقه الشرعي من جدهما، وأن على حماده أن يتذكر نزواته وغزواته المتكررة في الحانات والبارات والإسراف ببذخ على الراقصات والغوازي والليالي الحمراء التي لم تخلُ أي ليلة من لياليه منها، قال له بكل صراحة.. لقد أخذت حقك، ولم يعد لك مليم واحد في ذمتي أو ذمة والدي قبل أو بعد مماته، انفعل حماده وانقض على يونس كالثور الهائج.. ضرب، ولكم، وشج رأسه ليترك له ندبة كالطريق المستقيم في وسط رأسه، ضيع حقه بتهوره، وهذا

ما كان يريده يونس ويخطط له، إذ كيف لحماده التعدي بالضرب على من أصبح مراية العائلة وواجهتها!؟ وكيف له أن يضربه أمام الصغير والكبير من أفراد العائلة الذين كانوا متعاطفين مع يونس، والذي أخذهم في صفه من أول جلسة عائلية تجمعهم جميعًا دون ريان، والذي بالطبع هاج وماج ووقف في صف حماده وقالوا لحماده بالإجماع.. إن لك حقًّا، لكنك ضيعته بما فعلته، حكموا عليه ألا يبيت ليلته في القرية، وطردوه شر طردة، وبعد مضي شهر على فعلته هذه عاد برفقة يونس والذي أنقذه من السجن المحقق لضبطه متلبسًا بالسرقة؛ حيث راضى يونس من سرقهم حماده، وأقنعهم بالتنازل عن القضية إرضاءً لعلاقات المصاهرة التي تربطهما، ومن داخل قسم الشرطة وأمام المأمور جعله يمضي على إقرار بأنه ليس له في ذمته أي حقوق مالية، وأخذ عليه تعهدًا كتابيًّا بألا يعترض طريقه أو يفكر في أذيته هو وأولاده، وإلا فليمضِ باقي أيام عمره في السجن، فوافق حماده على كل شروطه بعين مكسورة، ولم يستطع أن يرفعها في وجهه مرة أخرى لخشيته من دخول السجن الذي ضيع فيه من عمره عامًا راح هباءً بسبب حادثة سرقة أيضًا ارتكبها قبل حادثة شجاره مع يونس، قبض عليه على إثرها ولم يقف وقتها بجانبه أحد من العائلة.

* * *

أربعون يومًا بالتمام والكمال لم يهدأ فيها لحماده بال، ولم ينم له جفن، ينتظر اللحظة المناسبة والمعدة بترتيب مسبق بإيعاز من ريان؛ لأخذ حقه من يونس أمام الناس كلها، أقنعه ريان بأنه تخلى مسبقًا عن حقه في ميراث والده تحت ضغط ومساومة يكتنفها المكر والدهاء، والآن هو متعادل معه في العراك، شج رأس يونس من قبل، ويونس ضربه بالسوط، أما في الحقوق فهما ليسا بمتعادلين بعد، وبسببه تعمد ريان افتعال مناسبة إعداد وليمة دعا إليها

الفقير قبل الغني، ذبيحة ذبحت لله رحمة ونورعلى والده الذي أتاه في المنام وأوصاه بهذه الوصية، لا يصدقه أحد فيما يقوله ويدعيه، لكن مادام الأمر فيه وليمة فهو صادق، والله يرحمك يا والد ريان، في نفس ذات الليلة كانت هناك مناسبة أخرى رحمة ونور أيضًا، لكنها تختلف من حيث إقامتها تلاوة ما تيسر من الذكر الحكيم، وتضم أربعة أشخاص فقط.. مخيمر ووالدي وكبير العائلة يونس ورابعهم المقرئ، إنها الليلة الأربعون لرحيل إقبال زوجة مخيمر، والدي ويونس المدعوان الوحيدان لهذه المناسبة، فبمجرد انتهاء المقرئ من التلاوة وأخذ ما جادت به يد مخيمر وصاحباه، إلا وتذكروا ما حدث من ريان يوم الجنازة؛ فضحكوا، لكن ضحكات مخيمر ما زالت يشوبها الحزن، قرأ والدي ذلك في عينيه فسحب يونس من يده، واستأذن متعللًا بأنه سينام مبكرًا الليلة لأمور هامة عليه القيام بها في الصباح الباكر، وقال لمخيمر وهو يهمُّ بالانصراف وراء يونس.. جلستك وحيدًا هكذا وإهمالك لحانوتك تقلقني، من الأفضل لك أن تنحي حزنك على المرحومة جانبًا، وتنظر لنفسك.

هزَّ مخيمر رأسه؛ يستفهم منه:

- تقصد إيه يا سليمان؟

رد عليه يونس الذي فهم مغزي كلام والدي:

- يعني تتجوز يا مخيمر، يعني تشوف نفسك شوية على رأي سليمان هتفضل حزين كده على طول، وكده كده إنت كنت ناوي تتجوز على المرحومة.

ولم يترك الصاحبان صاحبهما إلا وقد أقنعاه بفكرة الزواج التي لم تغادر رأسه منذ المرض الذي ألمَّ بالمرحومة، وتعهد له والدي بأنه من سيبحث له

عن هذه العروس التي حتمًا ستسعده مثلما أسعدته الراحلة إقبال من قبل.

* * *

لم يدرِ يونس ما يدبر له، وها هو يقع في الفخ المنصوب له أمام منزل ريان، حيث أوقفه حماده مشهرًا نبوتًا في وجهه، فعلم يونس أنها ليلة لن تمر بالسهولة التي كان يتوقعها، وفصل بينهما والدي وهو يصب جام غضبه غير المعهود من الناس على حماده، وهو يقول له:

- عاوز إيه يا حماده من ابن عمك؟

- إنت عارف يا سليمان يا ابن عمي، حقي.

نحى يونس والدي جانبًا، وقال لحماده:

- ما لكش حق عندي يا حماده، وسبق واتكلمنا في الموضوع ده، وأغلقنا عليه بالضبة والمفتاح.

- اتكلم يا سليمان يا ابن عمي، قول الحق؛ فالساكت عليه كالشيطان الأخرس، احضرنا يا ريان، اشهدوا يا أهل البلد.

خرج ريان والمنتظر بشغف لتلك اللحظة من وراء الباب، ووراءه ولداه، والتف الناس حواليهم في دائرة، ومع مرور الوقت يزدادون ويتكالبون على بعضهم البعض يسترقون السمع؛ ليتأكدوا بالفعل أن ما ألقي على مسامعهم من بعض الصبية الذين نشروا الخبر بسرعة اشتعال النار في الهشيم وأولاد العمومة يتوسطون الدائرة، يتحاسبون في شد وجذب على مرأى ومسمع من الجميع، ريان يقف في صف حماده، ووالدي يقف في صف يونس يدافع عنه، ويرد عنه الاتهامات والادعاءات الظالمة، والتي يرمي بها حماده ويؤكدها ريان بشهادته، غير أنه لم يخرج أحد منهم فائزًا في تلك الليلة، فالأربعة خسروا

خسارة، كلٌّ حسب مقدار مقامه ونظرة الناس إليه، واقتسم الناس ممن رأوا بأم أعينهم عراكهم لأربع فرق، فريق يكذب حماده ويصدق يونس، وفريق آخر يصدق يونس ويكذب حماده، وفريق ثالث يضحك على ريان ويقولون إن هذا الرجل بالتحديد لا تؤخذ شهادته على محمل الجد ولو كان صادقًا، والفريق الرابع والأخير الفاهم الواعي يشككون في أمر والدي ويتعجبون من أمر دفاعه المميت عن يونس، أليس كان من الأولى عليه وهو العاقل الرشيد أن يهدأ من أمر الاثنين ويأخذهما في داره بين أربعة جدران ليتناقشا ويحلًا ما بينهما من خلافات بعيدًا عن أعين المتلصصين والشامتين والنمامين و..و.. الخ.

* * *

(١٥)
غيبتك طولت يا صاحبي

نفس جلستي أنا وهو تحت شجرة الجميز، جلس محمود وحيدًا يبكي فراقي، شهران مرًّا ولم يرَ وجهي، لم يتحدث معي، لم نتبادل النكات والقفشات، لم نتعارك، لم يبح أحدنا للآخر بأسراره، فقط رسائل قصيرة من تليفونه القابع بين يديه ليل نهار، يتلقاها من تليفوني، اطمئن يا محمود إني بخير.. أرجوك طمئن والدتي ولا تحاول الاتصال بي لأني لن أرد عليك، بعثت له بهذه الرسائل القصيرة في أول أيامي داخل المجتمع الجديد علي في كل شيء بتقاليده وعاداته، وبعدها وكأنني فص وملح وداب، أكثر من عشرات المرات في اليوم الواحد يحاول محمود الاتصال بي، لا يكل ولا يمل، لكن لا حياة لمن ينادي، وبدوره لا يجد هو الآخر غير الرسائل القصيرة يبعثها لي يوميًّا يرجوني العودة، يرجوني الرد عليه، يرجوني إسماعه صوتي، لكن لا مجيب ولا شعرة تهتز في رأسي لتوسلاته.

ما أجمل الذكريات الجميلة باستعادتها وتذكرها في هذا المكان الذي شهد أحلى أيام قضيناها سويًّا، خرجت هذه الكلمات من فم محمود الحزين الوحيد على فراقي، عمل ما في استطاعته على تهدئة روع خيرة والدتي، وإفهامها أني بخير، أما بالنسبة لمن كانت السبب فيما حدث، والتي من أجلها رحلت.. إنها نعمات، لم تشأ التقرب من محمود، والسؤال عني وأنا من طالت غيبته، ولم يعرف أحد شيئًا عن سبب غيابي هذا، وذلك بأمر من والدتها التي ألزمتها الصمت خشية ما لا يحدث عقباه من قطع عيش والدها وتشريد الأسرة

بكاملها، فهي- على حد علمها- لا تعرف والدي كما تعرفه هي عز المعرفة من خلال التعرف عليه منذ الصغر، فهو متباهٍ معتزٌ بنفسه، لا يهمه إلا مصاحبة ومجالسة كبار القوم، أما من هم أقل منه منزلة- وبالأخص الفقراء- فهم لا يعنيه أمرهم في شيء.

ناداها محمود وهي في طريقها إلى البيت بعد انتهائها من عملها في يوم ما، حيث وجدها تسير وحيدة شاردة الذهن هائمة على وجهها، وهو من يعرف بماذا تفكر؟ وبم ينشغل بالها، حكى لها عما حدث لي بسببها، وقتها لم تعقب على كلامه، وكل ما فعلته تركته، وأكملت طريق عودتها إلى بيتها، فلم يعرف محمود حينها ماذا يجيبني؟ هل يكذب علي، ويخبرني أن عينيها تبحث عني في كل الأماكن التي كنت أرتادها، أم يفصح لي عن المفاجأة التي نزلت عليه كالصاعقة، وجعلت دموع عينه تنزل دون إرادته حزنًا لسماعه خبرًا لو علمت بأمره فلن يراني البقية الباقية من عمري لا هو ولا أهل البلدة جميعًا والله اعلم وحده ماذا سأفعل بنفسي، خبر تكتم عليه وأسكنه داخل قلبه وأحاطه بهالة كبيرة سوداء يحيطها الحزن والأسى، اعتبر الأمر يخصه هو لا أنا، فبكى وحده وهو يرى أمامه آخر الوصل والوداد بين الحبيبين قضى والدي عليهما حيث سمح له غروره تزويج حبيبتي نعمات لصديق عمره مخيمر، إذًا لقد فعلها والدي، أرضى قلب صديقه، وهان عليه قلبي أنا، ومن أنا سوى ابنه الوحيد! لم يشأ أن يمضي قدمًا لإسعادي، ركبه الكبر والعند، ولم يأبه لتوسلات والدتي بأن يبعث لي من خلال محمود، ويقول لي إنه عفا عني ورضي علي، وبسببي لطمها على صفحة خدها التي لم تزل تبللها دموعٌ مياهها مالحة، والتي نزلت على أرضها فجعلتها بورًا لن تصلح بعد ذلك لنبت أية بذور يرميها بداخلها؛ لأنها حتمًا ستلفظها قائلة له.. عذرًا لم يعد في مقدوري

إنبات أية زروع بعد اقتلاعك لزرعتي الوحيدة مروان، قال لها بعد صفعها على خدها يهددها.. إن لم تنتهِ عن هذا الموضوع فلن تدخلي هذا البيت مرة أخرى، هددها بالزواج من أخرى، فكتمت والدتي حزنها داخل قلبها ولم تجد من تبوح له بسر أشجانها غير محمود الذي لا يمر يومه إلا ويكون جالسًا تحت قدميها يعلمها بأمر رسائله المرسلة إلي، وما يستجد فيها من جديد، إنه يكذب عليها بأنني أرد عليه وأعلمه أنني بخير.

يمسح محمود دموعه، يجففها بالطين المبللة به يداه فيجف الطين ولا تجف دموعه بعد، ينادي كل يوم على نجيب، يجلسه مكاني ويفتح له صُرة طعامه يحلف عليه ألا يبقي فيها من طعام، وكل ذلك من أجل استدراجه في الكلام فيعرف منه أحوال بيته، وبالتحديد حال نعمات وكيف يمر يومها، وكانت حيله بالناجحة، وتؤتي ثمارها، فيجد عمي نجيب الفرح المسرور بوجبة كهذه من النادر الحصول عليها بكل هذه الكمية له وحده، فلو كانت تلك الوجبة في بيته فإنه بالكاد لو نجح في التهام جزء بسيط منها من أمام أولاده المشاركين له فيها فيقص عليه نجيب كل صغيرة وكبيرة تحدث داخل بيته، وفي يوم صدمه بأن قال له: لقد جاءني سليمان بالأمس لزيارتي ويرافقه مخيمر، وقتها ملئت زوجته الدنيا زغاريد قبل أن يفاتحه والدي في شيء ظانة أن ما اتفقنا عليه أنا وهي من وهمٍ وسراب أصبح الآن أمامها حقيقة، أمرها نجيب عندما دخل وراءها وهي تعد أكواب شاي للترحيب بالضيفين؛ بالتمهل، وألا تسبق الأحداث ليعرف لماذا يزوراه، فقالت له وهو يأخذ منها صينية الشاي: إنه أتى ليطلب يد نعمات لابنه مروان، قال لها: هو انت اطّلعت على علم الغيب يا مجنونة؟ ولو كنت تتطلعين على الغيب فلن أصدقك إلا عندما أسمع من سليمان بنفسه، كتمت عيشة فمها امتثالًا لأمره، واحتضنت نعمات

مطولًا تهنئها مبروك يا نعمات عقبال اخواتك البنات، لكن ما لم تعرفه عيشة ولا يدري به نجيب خبرًا إلى اللحظة التي يحكي فيها لمحمود أن نعمات كان لها رأي آخر، فقد كانت تتوجس خيفة من هذه الزيارة، وأحست أنها ستزف لمخيمر وليس لشخصي، فحسبت حسبتها سريعًا، وقالت لنفسها تأدُ فرحتها، طب وليه مروان حبيب القلب مجاش برفقة والده سليمان، إنها الأصول والمتبع أن يأتي العريس مع والده، لا أن يصطحب الوالد صاحبه، وصاحبه من إنه مخيمر البقال، ألم يجدر به أن يكون برفقته صاحبه الآخر كبير العائلة يونس، واللذان لا يفترقا ليعينه ويؤازره في الكلام، لعل وعسى أن يرفض والدها طلبه، فيقنعه يونس بأنه لن يجد زوجًا لها أفضل ولا أحسن من مروان.

وبالطبع، لم تنطلِ عليها كذبته بدعوى غيابي عن البلدة لسفري للخارج حيث يستضيفني تاجر لبناني، والذي يدينه بمبلغ مالي كبير، وأرسلني إليه من أجل إحضاره، وادعاؤه بأني استحسنت العيشة هناك وشاركت الرجل تجارته وربما أكلل حسن استقبال التاجر لي بالزواج من ابنته، والله وحده يعلم متى سأعود، وهذا يعود لي بالطبع، وادعاؤه بأنه لا سلطان له علي بعدما أصبحت رجلًا أعتمد على نفسي، آخذ القرارات التي تخص حياتي دون أي تدخل منه.

يحكي نجيب لمحمود كيف أنه اختلى بزوجته عيشة وحبيبة قلبي نعمات، يأخذ رأيهما بشأن العرض المقدم من مخيمر للزواج من نعمات، ترك محمود كل ما في يده، وقال في عجلة لنجيب:

- وإيه كان رأي نعمات يا عمي نجيب؟

فيحكي نجيب له الحالة التي بدت عليها عيشة أولًا عندما سمعت منه ذلك لطمت خديها، وبحلقت في وجه نعمات بحسرة، لم يفهم لمَ فعلت ذلك،

وهزّ كتفيه لمحمود، وهو يجيب عليه عندما قال له محمود:

- ها.. وبعدين يا عم نجيب، رأي نعمات كان إيه؟

- لم ترد، ولكن بدا على حالها في تلك اللحظة عدم اللامبالاة، وحل عليها الصمت والشرود لفترة ظنناها أنا ووالدتها سنين طويلة.

رد عليه محمود في سره، يقول بدلًا منه:

- لأن نعمات تحب مروان، ومروان يحب نعمات.

ويكمل نجيب أنه لم ينتظر كثيرًا بعد مرور تلك السنوات الطويلة على عدم رد نعمات عندما سمعها تقول:

- أنا موافقة يابا.

وظل يحكي له عن بحلقة زوجته وقد لفها الصمت وشلتها صدمتان لم تكن تتوقع إحداهما على أقل تقدير، صدمة طلب سليمان يد نعمات لصديقه مخيمر، وصدمة موافقة نعمات على الزواج من مخيمر.

* * *

ولأني الوحيد الذي يعرف طريقة نعمات في تدبير أمورها، وبما يدور برأسها فإني لأحسبها حسبة حسبتها سريعًا، فوجدت أن دورها في التضحية لانتشال أسرتها من الضياع قد حان موعده، فهي تعرف تعنت والدي في مواقفه، ولو وصل به الأمر للتنكيل بوالدها وإلقائه خارج البلدة هو وإخوتها دون شفقة أو رحمة، داست على قلبها وتناست أمر حبها لي، وتجاهلت أمري تمامًا عندما عرفت في لحظة طلب مخمير أن تكون زوجةً له، متأكدة أن خلافًا دب بيني وبين والدي بشأنها، ولذلك رحلت عن البلدة

في صمت أو ضجيج مضحيًا بشخصي خوفًا من أن ينالها سوء هي وأسرتها، ولذلك فهي الآن تستعد لبدء حياتها الجديدة متقبلة الأمر الواقع دون اعتراض أو عصيان يذكر.

* * *

(١٦)
قلبي وربي غضبانين عليك ليوم الدين

يا قاسي القلب، كشفت شعر رأسي، ودعيت عليك ليل نهار، كرهتك، إنت وحدك من أبدلت حبك بداخلي إلى بغض، لم يعد لي رغبة في رؤيتك، أقسمت أن لا يعود الود والصفاء بيننا إلا بعد عودة فلذة كبدي لأحضاني، يا قاسي القلب، كلمة متكررة لزمت لسان والدتي كلما تلاقت عيناها بعيني والدي، تقول له دون يأس منها:

- اعف عن ولدي وولدك الوحيد، أرجوك.

- أنا مجبرتوش على المغادرة، هو من اختار طريقه بنفسه، وعليه فليتحمل وحده تبعات قراره، سكي على هذا الموضوع للأبد، ومتتكلميش فيه بعد كده، وإلا أنتِ تعلمين بموضوع تهديدي بزواجي عليكِ، ومش واحدة بس وديني أجيب تلاتة وأخلف منهم بدلًا منه عشرة، وساعتها مفيش واحد منهم يقدر يعصي لي أمر.

قصت والدتي كل ما حدث لأختها امتثال التي تأتيها من القرشية (١) زائرة وعلى فترات متفاوتة وليس لها مواعيد محددة، فكلما يهف الشوق لتحقيق غرضها مني تسحب ابنتها سلوى، وتحل ضيفة ثقيلة لا تكف عن تحقيق طلبها الوحيد كلما زارتنا.

كانت فرحة ما بعدها فرحة لخالتي امتثال التي لم تكن تتمنى الخير والسعادة لي إلا لو رضيت عنها، ورضخت لطلبها الذي لم تمل من أن أحققه لها، وده طبعًا من رابع المستحيلات، وزي ما بيقولوا لما تشوف حلمة ودنها، فمن

خلال ما قصته عليها والدتها تهيئ لها أن الطريق أصبح ممهدًا لوضع ابنتها البكبوظة سلوى في الصورة من جديد، وهي من جف حلقها ونشف ريقها في إقناعي بالزواج منها لدرجة أن جرأتها أوعزت لها بأن تقول لي أحبك ولا أخفي عليك سرًّا في أني أريدك زوجًا لي، ولأن الزَّن على الودان أمر من السحر؛ فقد صدعت سلوى رأسي في الرايحة والجاية من خلال اتصالاتها المكثفة بي يوميًّا بإيعاز من والدتها وإتحافي بكلمات ملؤها العشق والهيام، لكن قلبي ليس لي إرادة أو سلطان عليه لإرغامه على شيء لا يحبه؛ لذلك فقد تغاضيت عن كل إغراءاتها، وجعلت اتصالاتها كأنها نغمة أسمعها لمحمود لأسمع رأيه في جودتها، فلا أجد من محمود كل مرة سوى هز دماغه بلا يا مروان دي نغمة نشاز، إياك تخليها موجودة على تليفونك، امسح يا أخي واشطب، أما الأمر بالنسبة لامتثال خالتي فهي جريئة لا تخجل من نيل مراد ابنتها التي اختارته لها بشتى الطرق، لدرجة لو صادفت في زيارتها لوالدتي رؤية والدي سليمان لما تأخرت في مفاتحته في هذا الموضوع، تقول له بملء فيها: أنا جاية النهارده مخصوص عشان أخطب مروان لسلوى، إيه قولك يا حاج سليمان؟ لدرجة أن والدي ملّ منها ومن تصرفاتها، ووصفها بالمجنونة، ونبه على والدتي إن جاءت لزيارتهم مرة أخرى تبعث له بمن يعلمه بوجودها فلا يدخل البيت إلا بعد رحيلها.

ولأن العلاقة بين الزوجين- والدي ووالدتي- بدأت تأخذ منحًى ومنعطفًا يزداد خطورة كل يوم يمر عليهما؛ فقد نسيت والدتي في أن تبعث له بمرسال يعلمه بأمر الزيارة المفاجأة لخالتي امتثال، فعاد كعادته في فترة القيلولة ليصطدم بوجهها تستقبله، ومن ورائها البكبوظة سلوى بمجرد فتحه لباب المنزل، فقال لها:

- إيه اللي خلاك تزورينا في الوقت دا يا امتثال؟

ردت عليه:

- والله يا حاج مجيتش إلا لما اختي طلبتني، فمكدبتش خبر وجيت.

فقال يشوح لها بيده، وهو آخذ طريقه لأعلى:

- انصرفي انصرفي، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، انصرفي.

تصنعت خالتي عدم سماعها طرده لها، وقالت له ببرود:

- مش سمعاك كويس يا حاج، هو انت قلت إيه من شوية؟

فترد عليها سلوى ببرود أكثر:

- دا عمي الحاج بيقولك يا ماما البيت بيتك، خدي راحتك إنتِ وبنتك.

- صحيح يا حاج، ربنا يباركلنا فيك.

انفعل عليها والدي وهو من قد استسلم لقرارها بالمكوث كما يحلو لها من أيام لعلها تستطيع مسح الحزن الكاسي وجه والدتي، لكن ثرثرتها بفتحها موضوع زواجي من ابنتها هي من جعلته يصمم على طردها شر طردة هي وابنتها منبهًا على والدتي إن كان لزامًا عليها رؤيتها؛ فعليها بالذهاب إليها هناك في بيتها بدلًا من أن تأتي هي وابنتها لتصدع رأسه في الرايحة والجاية بثرثرتها المتكررة والتافهة.

* * *

(١٧)
وأخيرًا أصبحت حرة

عالم فريدة عالم آخر، دنيا غير الدنيا، نشأت وتربت وترعرعت في هذا العالم، تعلمت أصول الإتيكيت والعيش عيش الأكابر، ومن خلاله تعرفت على العائلات الكبيرة ووطدت علاقاتها بهم، وتمنت لو تظل داخل هذا العالم ولا تخرج منه، فكلما زارت إحدى صديقاتها نظرت لزوجها وتمنته زوجها هي الذي لطالما حلمت به ومازالت، كرهت الريف بما فيه، كرهت يونس من أول ليلة نامت بجواره على سرير واحد، لذلك كان مفاتحة والدي بموضوع زواجي من ابنتها ناهد جعلها تتخذه ذريعة أو حجة قوية للرحيل وعدم عودتها مرة أخرى لحياة الريف التي لم تكن في يوم من الأيام تتخيل أن تعيش بداخله؛ لذلك فقد عادت- بقوة- لعالمها جائعة مشتاقة لكل ملذات الدنيا التي حرمت منها على حد قولها، وأول ما فعلته خلعها للباس السجن المؤبد الذي كانت حبيسة بداخله، وأبدلته بلباس الحرية، انطلقت للحياة، تهيأت وازينت، وضعت الألوان على خديها، أغلى العطور لامست جسدها، أسدلت شعر رأسها على كتفيها، ومع الحيوية والرشاقة اللذين يميزان جسدها فبدت كفتاة في العشرينيات من عمرها، عندما تخرج لحضور حفلة ما دعوا إليها أو للتسوق تحتفي بالمعاكسات وبالكلام المعسول دون ابنتيها، مازالت تصر على أنها فريدة ابنة العشرين وليست فريدة ذات الخمسين ربيعًا، والتي اختطفت في عز شبابها ليلقي بها هناك بعيدًا حبيسة عن عالمها، لا يهمها أمر ابنتيها عليهما أن ينظرا لها ويقلداها، ولكنه بالعسير عليهما أن يقلدوها لأنهم لا يشبهونها في الهيئة والشكل والمنظر، فجيناتهم

الوراثية معظمها تنتمي ليونس بدءًا من الشكل والهيئة عكس أخويهما التوأم ياسر ووليد، جيناتهم الوراثية أغلبها تنتمي إليها لدرجة وصلت بناهد ونجوى من الضيق بتصرفاتها وحنقهم عليها؛ لأنها تجتذب الشباب نحوها أينما حلوا، وللخروج من هذا المأزق تعهدت لهما فريدة وأقنعتهما أنها تفعل كل هذا من أجلهما، وأقسمت لهما أنها لن يهدأ لها بال إلا وقد أوقعت بشابين من أجمل وأحسن العائلات وذوي مناصب هامة ومرموقة للزواج منهما.

كانت ناهد ونجوى على علم تام بالطريقة التي تزوجت بها والدتهما من والدهما؛ لذلك كرهتاه مثلها، بل وكرهتا عيشته المكبلة بالعادات والتقاليد وعدم الخروج عن المألوف، وأحبتا والدتيهما وتمنيتا عيشتها التي كانت تحياها قبل ارتباطها بوالديهما، حياة الحرية المطلقة في كل شيء، وكان هذا ما يتمنياه ويحلمان به من أن تأتي الفرصة المناسبة ليهربا معها، ويخلعا عباءته للأبد، وها هي الفرصة اغتنماها وأصبحتا حرتيْن لن يمسهما والدهما، أو أن يتجرأ عليهما بعد الآن ويفرض عليهما رأيه بالعودة مرة أخرى لعالمه، ولم يكن بالشيء العسير على فريدة إقناع ابنتيها بل حتى التوأم لكره عالم والدهما من خلال حكيها لهما في كل فرصة ضيق تلمّ بها في حياتها المفروضة عليها فرضًا، وبالتالي أخذا يبتعدا معها خوفًا من المجهول الذي ينتظرهما من أن يفعل بهما والدهما كما فعل بوالدتهما ويزوجهما من زوجين أميَّيْن هذه المرة لتأديبهما وإعادة تربيتهما من أول وجديد، فما أكثرها تكرارهذه الجملة يتفوه بها كثيرًا أمامهما.

وأمام السيل المنهمر من المعاكسات وكلمات الإطراء والإعجاب التي تلهبها وتؤجج مشاعرها الملتاعة والمشتاقة بشدة لهذا العالم التي تحن إليه وإلى رجاله الذين تعشقهم؛ رضخت لكلمات شاب أطربها بكلمات غزل ودت

لو سمعتها منه وهي في مرحلة شبابها التي تحاول جاهدة استعادة ولو جزء بسيط منه عن طريق عمليات التجميل التي بدأت تغزو جسدها، إنه «أمير» عمره من عمر ابنيها التوأمين، تعرفت عليه في صالة الجيمانيزيوم التي تؤدي فيها كورسات التخسيس، والتي أمرها دكتور التجميل بتأديتها وعدم إهمالها كي تحافظ على جمالها ورشاقة جسدها.

أمير أعجبها اسمه قبل أن تراه، ظل اسمه محفورًا ومتعلقًا بعقلها في المسافة التي قطعتها من عيادة الطبيب التي زارته، ووصف لها الصالة التي يملكها واختاره بعناية للقيام بهذه المهمة الموكلة إليه.

سألت عنه:

- أين الكابتن أمير؟

أشار لها أحدهم أنه هناك، عاينته من بعيد، شاب في مقتبل العمر، مفتول العضلات، قوي البنيان، قارنت بين اسمه وبين عنفوانه وشبابه فتمنت أن يتوج على عرش قلبها ويمتلك إحساسها وكيانها، تاهت في بحر من الأوهام وهي واقفة أمامه يقرأ توصية الطبيب المعالج لها، قال لها يوقظها من أحلامها: شكل الدكتور مهتم بأمر حضرتك أيما اهتمام، لم يوصِ على أحد هكذا من قبل. نظرت في عينيه الخضراوين وشكرته، ذابت في كيانه وهو يقبض على ملمس يدها الناعم، أحست أنه الرجل الحقيقي الذي كان من الأولى بها أن تقابله في أول حياتها وتتزوجه، أمير.. اسمك جميل وشكلك أحلى وبنيانك قوي، لم تخجل بالاعتراف أمامه بأنه سحرها من أول نظرة، كانت صريحة فلم يبذل أمير جهدًا يذكر في إلقاء حبائله وفخاخه حولها، فرصة لم يكن ليتركها أمير تهرب منه، أحكم قبضته عليها فملأ الفراغ الفسيح في حياتها بحنكة الخبير

المتخصص في أصناف ونوعية النساء، وماذا يحتاج كل صنف من طلبات خاصة تميزها عن الأخرى، وإن كن لا يختلفن كلهن في البحث عن الحب الضائع أو الغائب عنهن، وداخل عالمه نسيت فريدة كل شيء وتعلقت به، وجعلت أمر اهتمامها به شأنها الخاص مخافة اختطاف إحدى ابنتيها منها فعاشت هذا الحلم الجميل وحدها لم يعلم بأمره أحد إلا هي وأمير فقط.

* * *

(١٨)
فكرة الزوجة الثانية

راقت فكرة الزواج لوالدي سليمان، دبت الغيرة في قلبه عندما رأى مخيمر وحاله يتبدل للأحسن، وكعادته في أيامه الأخيرة لم يعبأ لأمري في البحث عني وإعادتي إليه سالمًا، وكأني كنت أقف حجر عثرة أمام تحقيق أفعاله الصبيانية، فأصبح يتخذ قرارات مجنونة لا تمت بصلة لتاريخه المتسم بالتوازن والرزانة في معالجته للأمور، وخوفه من أن يتلامز أو تتهامس عليه قلة ممن يجلسون في الطرقات من تصرفاته.

- قررت الزواج.

ذهل مخيمر من قراره، الذي أسر به إليه، بدا هزرًا بادئ الأمر، وهو يتحدث معه:

- عقبال ما تجيب التانية يا سليمان.

- والله فكرة يا مخيمر.

- أنا بضحك يا سليمان.

- وأنا بتكلم جد يا مخيمر، الزوجة التانية لا مفر من المجئ بها، وأنت من ستختارها لي، واحدة بواحدة، أنا اخترت لك نعمات وانت من ستختار لي صاحبة القسمة والنصيب.

- بقولك إيه يا سليمان، قوم روح أنا مزاجي رايق حبيتين، ومش عاوز حد يعكره.

- هو أنا لما اطلب منك طلب زي ده يبقي بعكر مزاجك؟

- يا سيدي أنا غلطانلك ومتأسف، بس أنا لما اتجوزت نعمات كان لموت إقبال الله يرحمها، ودا كان رأيك انت ويونس.

- ياريتها لحقت بإقبال، ودفنتها وياها في قبر واحد.

- استغفر ربنا يا سليمان ومتفتريش، دي الست أم مروان ست طيبة، وما تطلعش العيبة منها، وتتحط ع الجرح يطيب.

وجد مخيمر سليمان ينتفض من مكانه، ويتكلم بعصبية لم يعهدها عليه من قبل وهو يقول له:

- بقولك إيه يا مخيمر، هي كلمة ورد غطاها، هتمشي لي في هذا الموضوع واللا ولو ملكش رغبة عرفني؟

لم يجد مخيمر غير الضغط على يد سليمان الممتلئ غضبًا، وهو يقول له:

- حاضر يا سليمان، من العين دي قبل العين دي، اهدى وروق وصلي ع النبي، وكل شيء هيكون تمام، وصدقني فلن يهدأ لي جفن إلا وقد حققت لك طلبك.

أهمل مخيمر ما كان يستعد لتنفيذه، وذهب مباشرة لمقابلة يونس، لعله يقنع سليمان بالعدول عن فكرته المجنونة التي تكاد تطير عقله وتصيبه بالجنون.

وصل والعرق يتصبب من جبينه، لم يسأل خليل البواب كعادته.. هو سيدك يونس بالداخل أم لا؟ أكمل باقي طريقه دون إلقاء السلام عليه.

وجد سليمان وقد سبقه، فجلس يأخذ نفسه من طول المشوار عليه،

فبادره سليمان يقول له:

- أنا متأكد مائة بالمائة إنك ستترك حالك ومحتالك وتأتي إلى هنا لتخبر يونس بما أسررت به إليك.

تكلم مخيمر، وقاطع كلام سليمان:

- الحقنا يا يونس يا خويا في المصيبة السودة دي.

رد عليه يونس والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- هو الجواز عيب واللا حرام يا مخيمر! والله عين العقل يا سليمان، والله أنا بفكر أنا كمان اتجوز، في عندك مانع يا مخيمر.

نظر لهما مخيمر يتنقل ببصره بينهما بذهول وتعجب، وقال:

- لا... لا أبدًا، أنا كده انتهت مهمتي، عن إذنكم، إظاهر اتجننتم بدري، السلام عليكم.

وقام آخذًا طريقة نحو الباب، فقام وراءه الاثنان وأعاداه عنوة للمكان الذي كان جالسًا فيه.

أشار سليمان عليهما بفكرة رغبته في شراء سيارة لزوم التنقلات والمشاوير، وأن هذه الفكرة تراوده منذ فترة، وأن الوقت المناسب لشرائها قد حان موعده، قال له يونس:

- من باكر أروح وياك أنقي أحسن وأشيك عربية للعريس، وعلى رأي المثل العروسة للعريس والجري للمتاعيس.

مال سليمان برأسه، ووضعها على كتف مخيمر، وهو يقول له:

- تيجي ويانا يا مخيمر؟

رد مخيمر:

- والله أنا شايف إنكم كبرتم وخرفتم، وم الآخر أنا مش فاضي، ارحموني

بقي وسيبوني اروح.

رد عليه يونس:

- وهو في حد ماسكك؟

- يعني إيه يا يونس، إنت بتطردني، خليك شاهد يا سليمان.

وقام من مكانه خارجًا يتلفت وراءه خائفًا من قيامهما وراءه، ويعيدانه لمكانه مرة أخرى، لكنهما تركاه يذهب هذه المرة، وقهقهاتما ترن في أذنيه جعلته يظن أن خليل البواب الواضع جهاز الراديو على أذنه سمعهما فبادرهما هو الآخر ضحكًا مثلهما.

* * *

في عصر اليوم التالي، توقفت سيارة حمراء اللون آخر موديل أمام حانوت مخيمر، نظر مخيمر من وراء الزجاج يتلصص بعينين واسعتين، رأى يد السائق تخرج من باب السيارة تشير نحوه، ويأمره صاحبها بأن يحضر إليه، أمر مخيمر الصبي الذي يعمل لديه بالذهاب لرؤية ماذا يريد صاحب السيارة؟ ذهب الصبي وعاد ليخبر مخيمر بأن صاحب السيارة يريده شخصيًّا، فلبى مخيمر النداء سريعًا ولم يعطِ لنفسه الفرصة في التفكر أو التمهل قليلًا في أن يسأل نفسه.. ماذا يريد صاحب السيارة منه، رجل تظهر عليه المهابة يرتدي بدلة بيضاء اللون تختفي قسمات وجهه وراء نظارة شمسية، انحنى مخيمر وبابتسامة رقيقة سأل صاحب السيارة:

- خير يا بيه، أأمر وطلباتك أوامر.

خلع صاحب السيارة النظارة، وظهر وجهه وهو يقول:

- إيه خلاص عميت يا مخيمر؟ مش عارفني واللا إيه!

- مين سليمان! والله ما عرفتك.

لاح وجه يونس الشبه مختفٍ في الكرسي المجاور لسليمان، وهو يضحك

ويقول:

- ولا أنا كمان يا مخيمر؟

رد مخيمر:

- الله، الله، وانت كمان يا يونس؟ مبروك العربية الجديدة يا سليمان.

- الله يبارك فيك يا مخيمر، وعقبالك.

- لأ ياعم كله إلا كده، إنتوا عارفين إني بخاف موت من ركوب السيارات، أشتريها ماشي لكن أركبها واسوقها لأ.

وبعد مناوشات بينهما، قال له سليمان:

- خلينا في المهم يا مخيمر، عملت إيه في أمر العروسة؟

تحشرج صوت مخيمر، فأخرجه بعد نحنحة نحت بلغمه جانبًا، وقال له:

- علي بالي والله يا سليمان ومش ناسي.

- إنت عارف يا مخيمر أنا وكلتك بهذه المهمة ليه؟

هز مخيمر رأسه دون أن يتحدث، فأكمل سليمان كلامه:

- لأن كل البنات بيزوروك للتبضع، وبالتأكيد تعرف فيهم الحلوة من الوحشة، من فيهم المؤدبة من قليلة الأدب واللا إيه يا مخيمر؟

- أيوه.. أيوه.

* * *

وصل خبر شراء والدي للسيارة الجديدة لريان في لحظات كالبرق، فكان ثاني مهنئيه بعد مخيمر ووراءه توأماه يمسكان بتلابيبه في الخلف كالأطفال الصغار يلحان عليه في شرائه لهما سيارة مثلها.

ضحك يونس وسليمان، وهما يريان ريان يفر هاربًا بجلده من إلحاح التوأم عليه.

(١٩)
دوام الحال من المحال

وتيرة الأيام مملة بطيئة عندما لا توجد أحداث مهمة تذكر، لكنها الوتيرة نفسها تكون في جدٍّ ونشاط وسريعة عندما تتسارع الأحداث متتالية، لا تكاد تمسك بحدث حتى تنحيه جانبًا لتمسك بحدث آخر، وهكذا دواليك، حياة الكاتب بعينها أحيانًا تنساب الأفكار بسلاسة فيكتب ويكتب، وهو لا يمل من ممارسة هوايته المفضلة، وأحيانًا تنضب فكأنه يفحت آبارًا للبحث عن نقطة مياه فلا يجد، هكذا حال القرية مليئة بالأحداث السريعة المتلاحقة تكاد تملأ مئات ومئات من الصفحات، لكنها أحداث متكررة ذات «رتم» واحد لا جديد فيها، ما تبات فيه تصبح فيه، مل الناس أنفسهم من حياتهم، فهذا ليل يسترهم وهم نيام خلف جدران منازلهم يليه صباح مشرق يتبعه نهار طويل بشمس لافحة يضجون من لهيبها وهم يباشرون مهام عملهم، يودعونها وهم محني الظهور فيظهر من خلفها قمر يضيء ظلمة ووحشة الليل، يحاولون خلاله تسوية ظهورهم مرة أخرى. لم يعودوا يضحكون على ريان، ملُّوا من قفشاته وحكاياته التي يعيد صياغتها من جديد، ولم يعودوا يأبهون لمشاجرات حماده وقطعه الطريق على يونس في الرايحة والجاية تحت مبررات مطالبته بميراثه منه، حتى زواج حبيبتي نعمات من مخيمر كان حدثًا عاديًّا لم يتوقفوا أمامه طويلًا.. اللهم آخر حدث يذكر اهتموا لأمره وظنوا أن حياتهم الطبيعية ستتوقف بعده لكنها تحركت للأمام رغم ما مر بهم من فاجعة تركت أثرًا في نفوسهم عند رؤيتهم لوالدي سليمان وهو محمولٌ على الأيدي يلفظ أنفاسه

الأخيرة أمامهم، كان يقود سيارته الأحدث موديل فاختلت عجلة القيادة من يده أثناء تفاديه حمارًا أهوج حل لجامه، والذي من خلاله لا يستطيع ممارسة عاداته السيئة باستحلال ظهور الإتان التي ما إن يرى إحداهن حتى يهيج ويبرز عضوه مستعرضًا بذلك «حموريته».

استقرت السيارة في قاع ترعة العمومية للقرية، والتي لا تبخل بمياهها عن ري المساحات الشاسعة من اللون الأخضر الذي يميز تلك البقعة الزراعية التي مازالت تحافظ على طبيعتها ولم تستعمل فيها أو تطالها يد الإنسان الخربة الذي ما إن تكاسل عن الاعتناء بها وعنايتها لمال لونها إلى الاصفرار معلنة حزنها لأن الإهمال بدأ يغزوها شيئًا فشيئًا في أوصالها فتعلن من خلاله تساقط الأوراق التي تعلن عن انفصالها عن الجسد الذي لم يعد بمقدوره تحمل ذلك الإهمال، وبعدها بفترة ليست بالبعيدة تعلن عن موتها كليًّا، ناقمة على كل إنسان يقف قريبًا منها كان باستطاعته مد يد العون لها لإنقاذها ولم يفعل، هكذا حدث مع والدي وهو في لحظات موته الأخيرة، انحرفت سيارته حتى استقرت في قاع الترعة، فلم يحاول أحد إنقاذه، أو قل لم يكن في مقدورهم مساعدته وانتشاله بالسرعة التي من خلالها محاولة إسعافه، وكيف لهم ذلك وقاع الترعة يعلمون أنه عميق! وأن من يرميه حظه العثر بداخلها لهو مفقود لا محالة.

التف الفلاحون حول الترعة من البرَّيْن يودون إلقاء أرواحهم للتهلكة فداءً لإنقاذه، لكنهم عندما يشاهدون الدوامات وهي تحدث اضطرابات مائية أمامهم وكذلك تلاطم كتل الماء ببعضها متخيلين وقتها وعورة قاع المجرى المائي فيتراجع من كان يظن أنه باستطاعته مساعدته وإخراجه من سيارته التي لم يمر على شرائها سوى أيام قليلة لم يفرح بها فيها.

بكى الذين رأوا السيارة تنحرف أمام أعينهم، وقالوا والدموع تنهمر من بين جفونهم إن سليمان كان مارًّا أمامهم وتوقف للاستعلام منهم عن حال الأعمال الجارية في حقله من عزق وتقليع الحشائش الضارة التي تقف حائلًا أمام نمو سيقان الزروع والثمار والنباتات، وكذلك اطمئنانه على اعتدال بحور الخطوط التي غالبًا ما تضار من شدة قوة اندفاع المياه وجريانها وهي داخلة تتراقص لمعانقة سيقان النباتات، وبعدما اطمأن منهم على تمام الأحوال ودَّعهم وعلى وجهه ابتسامة الرضا لمجهودهم المبذول منهم دون تبرم أو غضب، وعلى بعد أمتار قليلة منهم، وتحديدًا عند انتهاء أرضه بحدودها مع الجار الذي يجاوره حدث ما حدث، يضربون كفًّا بكف، يحاولون إيجاد أي شخص يفسر لهم كيف حدث ذلك؟ وأثناء تلك الحالة التي أصيبوا فيها بالشلل التام الذي جعل بينهم حائلًا لعدم نزولهم الترعة ليفتدوا بأرواحهم روح رجل لم يعهدوا منه إلا كل خير وود ونقاء وصفاء السريرة.

اخترق صفوفهم أعز صديقين كانا له نعم الأخوين، وهو كذلك كان بالنسبة لهم لم ينتظرا أخذ الإذن من أرواحهما بأن يتمهلا ويفكرا قليلًا إن أقدما على إنقاذه سيكون مصيرهم الحتمي الهلاك مثله، إنهما صديقا عمره يونس ومخيمر، إنهما رفيقا الدرب، فكيف يتخليان عنه ويتركانه لتلك الدوامات تصرعه وهم يقفان كالواقفين يتفرجون عليه!؟ إنهما في تلك اللحظة شعرا أن سليمان ينادي عليهما فقط بأن ينقذاه، وهما لن يبخلا عليه بأرواحهما فداءً له.

ما إن ترامى إلى مسامعهما خبر انزلاق سيارته إلى قاع الترعة وهو بداخلها، هرولا وهما غير مصدقين، ألقى مخيمر بنفسه ولم يمهلها خلع ملابسه التي يرتديها، غاص إلى القاع منتظرًا وصول يونس الذي انتظر لثوانٍ خلع

فيها ملابسه لا يستر جسده سوى سرواله الداخلي، وبمعاونة بعضهما على حمل سليمان أخرجاه وهو في لحظات حياته الأخيرة، ساعتها كانت الروح قد بلغت الحلقوم، انسحبت من جسده بدءًا من أصابع القدمين شيئًا فشيئًا حتى وصولها إلى منتهاها، نظروا إليه وهم قلقون، يحدقون فيه يضعا أيديهما على جبينه وعلى نبضه، يقيسان ضغطه يسمعان ضربات قلبه، ولم يكن أمامهم سبيلٌ غير نقله سريعًا للوحدة الصحية بالقرية، بعدما فقدوا الأمل في إسعافه، وهناك سمعوا جملة "البقاء لله" التي لم يكونا- ومن حولهما- يريدون سماعها، لكن "فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون" ذكرهم الدكتور بتلك الآيات القرآنية التي أرجعت عقولهم إلى رشدها، وتسليمهم الأمر كله لله رب العالمين الذي استرد وديعته في وقتٍ وميعادٍ محددَيْن.

غطت القرية بعد حادثة موته في نوم عميق، متشحة بالسواد على فقد علم من أعلامها، ها هم الآن ينتظرون في ترقبٍ وحذر ما الذي يستجد من جديد يبعث به القدر إليهم، يتساءلون في قلق متى تحين عودة الابن الضال من غربته؟ إنه اليوم الخامس على رحيله، ينتظرون عودتي رغم مئات الرسائل التي بعث بها محمود إلي، لكن لم يحن وقت عودتي بعد، فهذه والدتي الحبيبة الغالية تستحلف محمود بالذهاب ليقتفي أثري ولا يعود إلا وأنا برفقته، كادت تقبل قدميه، فعاهدها محمود على ذلك ورحل تاركًا المنازل خلفه ساكنةً في عتمة الليل، وفجرًا تحرك حيث ودعته والدتي بقلب واجف وهي توصيه وتترجاه، قال لها: حاضر يا أمي؛ ليطمئنها أنه لن يعود إلا ومعه أخوه. وفي القطار تمدد بجسده على الكرسي المجاور.

* * *

وصل القطار لمنتهاه حيث المدينة الحرة الباسلة، والتي اخترتها ملجئًا لأكون حرًّا مثلها، ثلاثة اشهر والعصفور حر طليق خارج القفص، أعتمد على نفسي في كل صغيرة وكبيرة، تعلمت وعرفت كل شيء عن كل شيء من خلال تحليقي بعيدًا بجناحي سعيدًا فرحًا، حططت على الأشجار أنتقل من واحدة لأخرى، الأغصان متعددة وفروعها كثيرة، وليس بالصعب على الحر أن يختار الغصن المناسب لبناء عشه الجديد وحوله الفروع تهتز وتتمايل وتتبختر، وظن محمود أن رحلته ستبوأ بالفشل وسيعود خالي الوفاض، ففي أي مكان سيفتش ويبحث عني في المدينة الحرة؟ ومن سيسأل؟ ومن أيضًا سيجيبه، إلا إنه جعل تكاله على الله، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ما إن قدماه لفظتا باب المحطة "الله المستعان" أول ما نطق به لسانه فتعلقت عيناه بيافطة مزدانة بالأنوار المختلفة الأشكال، يتوسطها مروان للاستيراد والتصدير، لم يصدق عينيه ولا نفسه عندما تفحص أرقام التليفونات المكتوبة في آخر اليافطة يتوسطها رقمي الذي يحفظه ظهرًا عن قلب، جلس تحت اليافطة والفرحة تشل حركته، أخرج تليفونه وبعث برسالة يخبرني فيها أنه لا يبعد عني إلا قليلًا، إنه في الجوار داخل المدينة الحرة الباسلة:

- أنا هنا يا مروان، أنتظر الرد.

وكالعادة، لم يصله مني أي رد، اتصل برقم آخر فلم يصله رد، حاول مع كل الأرقام ولا واحد منها رددت عليه، أوقف تاكسيًا وأمر السائق أن يوصله لعنوان المكتب المكتوب على اليافطة.

جلس القرفصاء أمام باب المكتب المغلق، فهزمه النعاس فنام ولم توقظه إلا سكرتيرة المكتب:

- قم يا أستاذ محمود.

نهض محمود وهو يفرك عينيه، غير مصدق أن شخصًا ما في هذه المدينة غيري يعرف اسمه وينادي به، فسألها:

- كيف عرفتِ اسمي؟

سألها وأجابته بأنني أعلم بأمر قدومه مدعية أني من بعثت بها للترحيب به، وعليها استضافتي حتى وصولي ومقابلته.

* * *

وما إن أخبرني بأمر موت المرحوم والدي بكيت وترحمت عليه، واعتذرت له على عدم ردي عليه، ناديت على السكرتيرة "هالة" هذا هو اسمها وأمرتها بأن تأتي له بتليفوني المحتفظة به راجيًا منها عدم إزعاجي بماضي الذي كنت أود نسيانه للأبد؛ لأجد رسائل كثيرة منه أكثر مما أتوقع، فشكرته على اهتمامه الزائد بي، وتأسفت له في نفس الوقت؛ لأني لم أستطع الرد عليه لمشاغلي الكثيرة، قصصت عليه رحلة التسعين يومًا التي قضيتها وحيدًا حرًّا في غربتي من ساعة وصولي وفتحي لمكتب الاستيراد والتصدير، وعلاقاتي التي اتسعت وتشعبت، ومكاسبي التي تزداد يومًا عن الآخر، وكل هذا بفضل والدتي التي تمنيت أن تكون أمامي لتقبيل يديها وقدميها؛ لأنها الوحيدة من لها الفضل الأول والأخير فيما أنا فيه الآن، إنها لم تبخل علي بشيء، وضعت كل أموالها في حقيبتي، كل الأموال التي كانت تملكها حتى مجوهراتها وجدتها ومعها ورقة مكتوبة بخط يدها ومبايعة تقر فيها بأنها تنازلت بكامل إرادتها لابنها مروان عن كل قطعة ذهبية موجودة بين يديه، فكانت مفاجأة لي، حكيت لمحمود بأن هذه المفاجأة لم أكن أتوقعها عندما فتحت شنطة ملابسي في صباح اليوم التالي لأبدل ملابسي، وتذكرت وأنا

أبتسم إصرار والدتي العجيب على ملء شنطة ملابسي بنفسها وقت مغادرتي للبلدة.

وأكملت أقول لمحمود:

- على الفور لم أعطِ للكسل فرصة للنيل مني، افتتحت مكتبي- هذا الجالسين فيه الآن- وتوسعت بعدها تجارتي ونشاطاتي، وازدادت مكاسبي، وذلك بفضل من الله أولًا وأخيرًا وبدعاء من والدتي.

وبعد قص حكاية غربتي لمحمود أفضى إلي ببعض الملاحظات أو بالمتغيرات التي طرأت علي عامةً، فاستدعيت كياني كله لسماعه، وقلت له: قل ما شئت. هزّ محمود رأسه، وقال لي:

- بكل سهولة.. كل شيء تغير فيك؛ فأنت لم تعد مروان الذي أعرفه، وإني لأخشى من شيء.

قال ذلك ليحل بعدها صمت رهيب علينا، فتنحنحت وسألته وأنا خائف من قول ذلك الشيء، فسألته مبتسمًا، وكأني أعرف الإجابة مسبقًا:

- هو إيه يا صاحبي؟

رد علي محمود:

- صداقتنا.. أخشى من اليوم الذي سيأتي وتنتهي فيه هذه الصداقة.

طمأنته، وأنا أقول بكل ثقة:

- اطمئن يا صاحبي، لن يأتي هذا اليوم.

دست على قلبي وأجبرته بنسيان أمر حبيبتي، وكذلك خبر موت والدي لم يؤثر في كثيرًا كما ترى، أما صداقتنا فهي الحياة أو الموت بالنسبة لي.

(٢٠)
إدمان وطلاق

ساءت العلاقة بين فريدة وأمير، دبت الخلافات بينهما، فهي تريده وحده لها دون أية مشاركة أخرى من النسوة اللاتي يترددن على مكان عمله، غيرتها عليه أصبحت ليس لها حدود، اتهمته بالخيانة، تشاجرت معه أمام زملائه والزبائن في صالة الجيمانيزيوم، صفعته على وجهه ورحلت، وبعد هدوئها بكت وبررت له فعلتها هذه لتعلقها الشديد به، وأنها تغار من أي امرأة تقترب منه، تأسفت له عندما أخبرها وأقنعها أنه عمل وأكل عيشه الذي لا يعرف سواه، وهو الذي يحتم عليه فعل ذلك، وليس كل من يدلك لها جسدها يقع في هواها، أو يحبها فاقتنعت بكلامه بسهولة لم يكن يتوقعها، وطلبت منه السماح والعفو. فغفر لها تهورها، وتعانقا طويلًا وبذلك عادت المياه لمجاريها، وازداد عطاؤه لها بسخاء، جعل اليوم الذي يمر عليها إلا وقد تعلقت به أكثر، فأصبحت كالمدمنة مثل ولديها التوأم، لكنه إدمان من نوع آخر، إدمان تولع وتغرم به كل النسوة، لكنه بدرجات متفاوتة بين امرأة وأخرى، لم تصدمها ورقة الطلاق التي بعث بها يونس إليها على يد محضرعندما ضاق بها ذرعًا ومن تصرفاتها الحمقاء، والتي جعلت النهاية الحتمية لحياتهما الزوجية، فكان رفضها بل ومنعها أولادها الأربعة من حضور جنازة والدي، وتقديم واجب العزاء لوالدتي، بل ورفضها الوقوف بجانبها في محنتها؛ هو ما جعله يقدم على طلاقها، وعلى النقيض تمامًا فقد أحست فريدة بالدنيا وقد فتحت لها أبوابها بذلك الطلاق، وتقول لها تعالي كي أعوضك عما سبق وحرمت منه، حلقت

عاليًا، وفي لمح البصر ألقت في حجر أمير ورقة طلاقها.

سألها: وماذا بعد؟

قالت له: الزواج.

قال لها: أمهليني بعض الوقت.

قالت له (بكل بلاهة): لا عليك، سأنتظرك.

رد عليها والابتسامة تملأ شدقيه: هذا هو عين العقل.

* * *

(٢١)
عودة غريبة

عدت أنا ومحمود، وقد كان العود أحمد نبأ تلقته البلدة، فبدأت الوفود تتوالى للمباركة بسلامة العودة وتقديم العزاء مرة أخرى في وفاة الوالد، فبدوت متململًا من كل ما يدور من حولي، فقررت إقامة سرادق كبير أكبر من الذي أقامه يونس لتلقي العزاء في والدي، ولتهنئتي أيضًا بسلامة العودة في آن واحد، ليلة واحدة وانتهيت من كل هذا، طمأنت والدتي أنني لن أتركها مرة أخرى، إنما فقط أعمالي ومسئولياتي هي ما ستبعدني عنها قليلًا، وعدتها بأن تراني يوميًّا، فمن أجلها سأضطر للذهاب والعودة في ذات اليوم لرؤيتها وطمأنتها علي.

أكثر المتشائمين عندما رأوا سيارتي ولباسي الجديد الأنيق، والذي لم يألفوه على جسدي من قبل؛ أحسوا بانقباضة في صدورهم، وكما قال محمود وأمموا وراءه:

- مروان لم يعد مروان، إنه شخص آخر يدعي بأنه هو.

تساءلوا، والوجل يسبقهم إلى قلوبهم:

- يا ترى، ماذا تخبئ لنا الأيام القادمة؟

وكانوا صادقين فيما قالوه، فأول الغيث كان قرارًا اتخذته، ومن خلاله كان أغلب العاملين في حقلي جلسوا بدون عمل على إثر قرار أصدرته لمحمود بناءً على توجيهات مني.. لا زراعة بعد جني المحصول، لتظل الأرض لأول مرة

خالية جرداء تكاد تخلو من الخضرة، اللهم إلا بعض الحشائش المتناثرة هنا وهناك، السواد أحاطها من كل جانب، ضرب المتشائمون والمتفائلون معهم كفًّا بكف، وقالوا:

- ما ذنبنا نحن؟

لكنهم لم يجدوا ردًّا.. تساءلوا:

- لماذا بورت أرضك يا مروان، وتركتنا وعيالنا للجوع ينهش في أجسادنا؟

لم يجدوا ردًّا مني حيث أصبحت في واد غير الوادي الذي يسكنوه، فلم يستطيعوا الوصول إلي لمعرفة الرد على سؤالهم هذا، وأسئلة كثيرة أخرى يبحثون عن إجابة لها، لم يجدوا إلا سيارات متعددة الماركات والأشكال والأحجام والألوان تهلّ عليهم من كل حدب وصوب، رأوا بأم أعينهم الذبائح تنحر، والولائم تقام من أجل هؤلاء الزائرين، رأوا الطريق يمهد ويسفلت والعناية بالمدخل الرئيسي ازدادت وتناثرت حوله أشجار الزينة والورود بشتى أنواعها، ولأول مرة يجتمع من بسببهما شهد العالم أطول حرب باردة كالتي بين القطبين العالميين روسيا والولايات المتحدة الامريكية، أو كالحرب الباردة بين القطبين المحليين في عالم الكرة الأهلي والزمالك، إنهما العدوان اللدودان يونس وريان اجتمعا يتناقشان- في حيرة- عما أفعله أو أنتوي فعله، لكنهما لم يصلا لحل اللغز الذي وضعتهما في متاهته، إذ كيف يصلان إلي والحراسات الخاصة تلف بيتي من كل جانب خائفين من حدوث أي مكروه للمدعوين، والتي تدل هيئتهم وسياراتهم الفارهة على أنهم ذو وزن وثقل.

صمت يونس، وآثر الابتعاد، وقال لريان بعد سليمان: اعتبرني مت فقد أعتزل الحياة والناس مطلقًا للحيته العنان، ابتعد أولاده عنه ولم يعودوا يرغبون

في رؤيته، وكأنه وباء يخافون لو اقتربوا منه أن يعديهم، طلق زوجته، توفي أعز أصدقائه ورفيق دربه في نفس الوقت، لم يبقَ له إلا مخيمر، لكن كيف له الذهاب إلى مخيمر ويقضي باقي يومه معه كما كان يفعل مع سليمان؟ أم عليه الانتظار لزيارة مخيمر له؟ ومخيمر نفسه لم يعد يرغب في هذه الزيارات بعدما علم بنبأ حمل حبيبة قلبي نعمات منه، فكل وقته أصبح موجهًا لرعايتها ورعاية مولوده القادم.

أما ريان، وبرعونته المعهودة؛ فقد صمم على مقابلتي رغم ما أصدرته من أوامر بعدم اقتراب أحد من المكان، وليحدث ما يحدث فقد سبق له على إثر محاولات عديدة في مقابلتي، لكنه كان يعود أدراجه خائبًا كل مرة، أما هذه المرة فقد أرسل في طلب حماده، وناوله سلاحًا وضمه لولديه التوأم، وسار أمامهم ولديه تصميم على مقابلتي عنوة فرفض الحرس، فما كان منه إلا أن أخرج مسدسًا من جيبه، وأفرغ رصاصاته في الهواء، ومن ورائه حماده وولداه كذلك يفعلون، طمأنت من كان ملبيًا دعوتي، وكان مسئولًا كبيرًا بوزارة الإسكان مبررًا له ما يحدث بأن عمي وولديه التوأم يحتفلون بقدومه على طريقتهم الخاصة، استأذنته وخرجت مذعورًا خوفًا من حدوث أي مكروه، وأمرت محمود باستضافة هؤلاء المعتوهين الأربعة، حتى أنتهي من استضافة زائري، وبعدها سيكون لي تصرف آخر معهم، لكن ريان صمم على مقابلتي، وحلف يمين طلاق إن لم أقابله؛ فلن تمر الليلة على خير.

علمت بأمر يمين الطلاق هذا الذي خرج من فم ريان بأنه إن لم أقابله شخصيًّا الليلة ستحدث مصيبة أنا في غنًى عنها، وفي حجرة داخلية بعيدًا عن أعين الزائر، اضطررت لمقابلة المعتوهين الأربعة، وقد بذلت ما في وسعي لإرضائهم ليخرجوا بعدها غير مصدقين بما سمعوه مني، وبالتحديد ريان الذي

صمم على نشر خبر أنه سينال شرف حمل لقب العمودية قريبًا، أما حماده فقد سألته قبل خروجه من عندي خالي الوفاض دون نيل مكاسب شخصية مثل ريان، حتى لا يزعجني هو الآخر في الرايحة والجاية.

- هل تعرف أرضي يا حماده؟

- كما أعرفك، وكما أعرف ريان وولديه التوأم، وكما أعرف أهل البلدة جميعًا، تحب أقولك اسم كل واحد منهم.

قاطعته محاولًا كتمان غيظي بشتى السبل:

- اذهب واحرسها، ولا تدع أحدًا يقترب منها، مفهوم يا عمي؟

- مفهوم يا ابن اخويا.

* * *

ارتحت عندما وجدت الوسيلة التي بها تخلصت من إزعاج ريان وحماده، بل وجعلهما في صفي، لكني لم أعمل حسابًا بعدُ لخالتي امتثال التي حلت هي وابنتها سلوى ضيفتيْن ثقيلتيِ الظل للعيش مع والدتي بطريقة شبه دائمة، هكذا أخبراني أنهما أتيتا وليس في نيتهما الخروج من المنزل مرة أخرى، طيبت والدتي خاطري بعدما وجدت من جانبي تبرمًا، وترجتني بتركهما يقضيان معها ما يحلو لهما من أيام متعللة بأنها الوحيدة- قاصدة أختها- التي ستهون عليها وحدتها، وربتت على كتفي وهي تذكرني كسابق عهدي بالصبر.

- كن صبورًا كعادتك، وأنا من ناحيتي سأنبه عليها هي وابنتها أنهما لا تعترضان طريقك، ولك علي لو قربا منك أكون طرداهم بنفسي.

كانت فكرة الحب والزواج لدي قد انتهت للأبد على يد والدي عندما

اضطررت بسبب رفضه تزويجي من نعمات؛ لترك البلدة، وأنا لم أعد أفكر إلا في العمل فقط كما قلت ونبهت على والدتي، لذلك كان لزامًا علي أن أنتحي بها جانبًا وأُبلغها بما يحدث من تجاوزات متزايدة عن الحد من خالتي وابنتها، لدرجة أنني أصبحت شبه متناسٍ لحبي الأول والأخير "نعمات"، وذلك عندما مرت والدتها عيشة والتي أسررت لها في يوم من الأيام بفكرة الزواج من ابنتها، لم أعرها انتباهًا، ولم أشأ إعطاءها ولا إعطاء قلبي الفرصة بمبادلة الحوار الذي لم يكن قد بدأ بعد، وقتها أمرت محمود بإيقاف السيارة وترجلت منها، ناديتها يا مرات عم، توقفت عيشة ومئات الأسئلة في عينيها تبحث عن إجابات لها، لم تنطق حرفاً مثلي، فقط مدت يدها وأخذت ما جادت به يداي. انطلقت السيارة بعدها، ومحمود يقول لي يذكرني:

- مش قولتلك إنك لم تعد مروان الذي أعرفه، ما أنت إلا مروان آخر حل محل مروان بتاع زمان.

لم أشأ الرد عليه، وانطلقت السيارة بعيدًا، وعيشة مكانها كالتمثال لا تتحرك فقط قابضة على رزمة الأموال التي ناولتها إياها حتى لا تطير كما طارت ابنتها، وسكنت عشًّا غير الذي كانت تبتغيه.

* * *

(٢٢)
الغريمان وجهًا لوجه

أفاقت فريدة على خبر نزل عليها كالصاعقة، ولداها التوأم ياسر ووليد يرقدان في غرفة إنعاش واحدة من المستشفيات الخاصة في حالة خطرة على إثر جرعات زائدة من مخدر الهيروين، تلقت الخبر من تليفون ناهد وبجوارها أختها نجوى تشد من أزرها في البكاء بنواحها، ظنت فريدة في بادئ الأمر أن طليقها يونس توفي أو حدث له مكروه كما حدث لوالدي الراحل، بكاؤهما ونواحهما لم ينقطع، كانتا تتبادلان معًا التليفون وتبكيان، وبعد عناء من جانب فريدة لإقناعهما بالكف عن البكاء حتى تعرف منهما بما حدث، وصلت إليهما وحبيب القلب أمير لم يتركها؛ حيث كانت معه سهرانة تكمل باقي الليلة في أحضانه، تفاجئت به البنتان فسألتاها عنه فأجابتهما بعد مناورات من جانبها بأنه خطيبها، ولكي تنجو من نظراتهما المليئة بمئات الأسئلة تركتهما لتبتعد بخطواتها عند أمير في أقصى المكان تعنفه وتؤنبه لأنه أصر على المجيء معها وعدم تركها في هذا الوقت المتأخر تواجه الصعوبات لوحدها، كانت تريده وتريد الأمر برمته سرًّا، لكن من ناحية أخرى لم يكن لديها أدنى شك في أن علاقتها به سينكشف أمرها بهذه السرعة التي لم تكن تتوقعها، لكن السر قد انكشف وعلمت ابنتاها، فهزت رأسها بعد ضربها في الحائط عدة مرات وهي تقول فليحدث ما يحدث، ما كان يشغلها حقًّا خوفها من إعجاب إحدى البنتين بأمير والوقوع في براثن حبه من جانب، ومن الجانب الآخر الخوف من أمير نفسه أن يوقع إحدى البنتين أو كلتاهما معًا في شباكه التي لم تعد

تستطيع هي نفسها الخروج منها، فهي تعلم أنه محترف في هذا الأمر كما رأت بأم عينها من خلال المواقف الكثيرة التي حدثت أمامها، أو عندما كانت تهلّ عليه فجأة في مكان عمله دون سابق إنذار، ولولا إغداقها عليه بالمال لكان مع أخريات غيرها، وما أكثرهن!

نحَّت ناهد ونجوى حزنهما وصدمتهما من هول ما حدث لأخويهما، ومن هول ما فاجأتهما به والدتهما بحبيبها المزعوم، وبدأتا يعملان على عدم حدوث المصيبة الثالثة، والتي ستقع حتمًا بعد قليل إن لم يذهب هذا الشخص الآتي معها بعيدًا، وقد وكلت بهذه المهمة نجوى التي انتحت بوالدتها وأخبرتها بأنها اتصلت بوالدها القادم لا محالة في الطريق الآن، وسيكون أمامهم بين لحظة وأخرى، وبينما هي كذلك تحاول إفهام والدتها بأن عليها إبعاد هذا الشخص الآتي معها بعيدًا وفورًا، تصاعد رنين التليفون من بين يدها فترد لتعلم من والدها المتصل بها أنه قد وصل لتوه أمام المستشفى، وخلال ثوانٍ سيكون بجوارهما.

انتحت فريدة بأمير تترجاه في الرحيل، وأمير يأبى أن يتركها في محنتها هذه، تتمنى أن تخبره بأن والد أولادها سيكون بين لحظة وأخرى بينهم، وهي لا تريد للأمور أن تتطور، أو تأخذ منحًى آخر في هذا الوقت العصيب، وبينما هي كذلك حطَّ يونس برحاله واحتضن ابنتيه اللتين تعلقتا به وهو يسألهما عن حال أخويهما، ونظره يبحث ويفتش عن فريدة في أركان المكان، ولم يدم بحثه طويلًا عنها فقد عرفها من ظهرها رغم التغيرات التي طرأت على جسدها من ملابس غير التي كان يعهدها عليها، ربت على كتفي ناهد ونجوى يهز رأسه وهو يتركهما آخذًا بخطواته نحو فريدة، وجذبها من يدها لتعتدل قبالته.

تعلقت نظراته بنظراتها

«نظرات تحدٍّ تواجه نظرات خوف»

ولما لم يستطع الإطالة كثيرًا في مقاومة نظراتها المتسمة بالخوف والرعب الشديد لنظراته المتحدية والمليئة بالحب والعشق لكيانها، فهو ما يزال يحبها؛ انتقل ببصره رغمًا عنه إلى شخص أمير، وأشار له بسبابته وهو يقول والأسى يكسر ذاته الداخلية:

- هو دا أمير حبيب القلب؟ والذي فضلته علي!

أمالت فريدة برأسها للأرض، ولم تستطع الرد عليه، وهكذا فعل أمير.

واصل يونس كلامه:

- ردي علي، من الواضح أن ظني طلع في محله، من حقك تنسي زوجك أبو عيالك.

جذبها من يدها بعنف ينهرها:

- والله عندك حق هتعملي إيه بشخص مثلي أصبح كهلًا، وفي المقابل أمامك شاب قوي مفتول العضلات، عمره من عمر أولادك! امرأة مستهترة.

ورفع يده ليهوي بها على خدها فأوقفه أمير بصدِّه، رأت ناهد ونجوى ما يحدث وهما يترقبان حدوث أمر جلل، فهرولتا نحو والديهما تترجيانه وتذكرانه بأخويهما التوأم:

- أرجوك يا بابا كفاية فضايح، ياسر ووليد هما الأهم الآن.

نظرات تحدٍّ تعلقت تائهة بين يونس وأمير، انهزم على إثرها أمير، وأحس أنه شخص غير مرغوب في وجوده، فرحل وهو يرمق فريدة بنظرات لا تفهم معناها إلا هي، وقد ذهبت وراءه وهي تنادي عليه:

- أمير.. أمير.. انتظر أرجوك.

رنت كلمة أمير بقوة في عقل يونس وهو يتذكر بحسرة المكالمة التي أجراها لها يريد منها مبررًا عن عدم مجيئها هي والأولاد للوقوف مع نساء العائلة لتلقي العزاء في فاجعة موت سليمان ابن عمه، وقتها حنَّ الشوق لرؤيتها فاتصل بها رغم أنه كان غاضبًا منها، فوجدها فرصة لإعلامها حتى تعود أدراجها، لعل وعسى تعود المياه لمجاريها من خلال تلك الفاجعة، سره أنها ردت عليه سريعًا ولم تجعل تليفونها يتلقى رنات تليفونه المتكررة، أو "تكنسل" عليه، صدمته وهو يسمعها تقول له: نعم يا حبيبي يا أمير، فسألها: مَن أمير هذا؟ لم ترد عليه ظلت صامتة، أنهى المكالمة وهو يقول لها بانفعال: أنت طالق يا مدام. وفي اليوم التالي، بعث لها بورقة الطلاق على يد محضر.

تذكر وياليته ما تذكر، ولم يفق إلا بفرده لجناحيه يأخذ ابنتيه ناهد ونجوى تحتهما، والدموع تسح من عينهما.

* * *

طمأنه الطبيب بأن صحة ولديه أصبحت مستقرة، وأنهما- لحسن حظهما- أتيا بهما في اللحظة المناسبة:

- عُمِل لهما اللازم من غسيل معدة وخلافه، وفي الغد سيرحلان معك إن أردت ذلك.

وذلك الكلام حدث فقط أمام ناهد ونجوى، أما بعيدًا عنهما عندما انزوى بيونس جانبًا داخل حجرة مكتبه، فلم يخفِ الطبيب سرًّا بأنه لابد من حجزهما في مصحة لعلاج الإدمان، وإلا فليعد نفسه من الآن لفقدهما للأبد؛

لأنهما- للأسف- في حالة متأخرة وخطيرة ستودي بحياتهما إن لم يتم علاجهما، وأنه حسب الخطوات المتبعة في مثل تلك الحالات عليه إبلاغ قسم الشرطة التابعة له المستشفى لعمل اللازم من محضر يثبت فيه ما حدث من تطورات في حالة التوأم، ترجاه يونس أن يرجئ موضوع قسم الشرطة جانبًا، وأنه رهن إشارته في أي طلب يطلبه سينفذه في التوِّ واللحظة، وهم بوضع يده في جيبه لإخراج نقودٍ ظن أنه بها سيرشي الطبيب لإسكاته وعدم الإقدام على ما قاله له، صدَّه الطبيب سريعًا بقوله له: أتريد رشوتي وأنا من يرشدك للطريق الذي من خلاله سيشفي ولديك! تأسف له يونس عما بدر منه، لكنه في نفس الوقت حاول إصلاح ما كان سيفسده من تصرفه بأن أعلن للدكتور أنه سيتبرع بمبلغ مالي كبير للمستشفى، من خلاله يعالج بعض المرضى، والتي تضطرهم الظروف لدخولها وليس باستطاعتهم دفع فاتورة يوم يقضونه بداخلها.

وبعد مرور يومين من العناء على ثلاثتهم الأب وبنتيه داخل المستشفى، حيث لم يهدأ لثلاثتهم بال إلا ورؤيتهما للتوأم يفيقان ويقفان على أرجلهما التي كانت تكاد تحملهما، وبعد إفاقتهما بساعات قليلة نقلا على أثرها للمصحة التابعة للمستشفى ليقضيا فيها فترة العلاج والشفاء من أعراض الانسحاب كما أوصى الطبيب ليونس.

* * *

عاد يونس برفقة ابنتيه بعد إلحاح من جانبهما لقضاء باقي اليوم معهما وليرحل في الصباح كما يريد، وذلك لأن الوقت أصبح مظلمًا، فليس عليه قيادة سيارته عائدًا للبلدة هكذا على حالته المشمولة بالعناء والتعب، ناولته إحداهما مفتاح الشقة فتقدمهما ليفسح الباب عن وجه فريدة الجالسة في المواجهة، رآها يونس فامتقع وجهه وودَّ لو بصق عليها، إنه الآن يكرهها أكثر

من أي وقت مضى، وودَّ لو كانت في عصمته لخنقها بكلتا يديه واستراح من عناء خمسٍ وعشرين عامًا قضاها شقاءً وعذابًا في حبها، لم يكن لديه سبيلٌ غير احتضانه لابنتيه وتقبيل جبينهما، وهو يهم بالخروج من الشقة مرة أخرى، ويقول لهما:

- الآن، علي العودة لمباشرة أعمالي المهملة، ولا تجد من يقوم بها غيري.

* * *

أيام عُدت على أصابع اليد الواحدة، تلقى يونس على أثرها مكالمة مفاجأة من بنتيه في وقت متأخر كمثيلتها التي تلقى من خلالها بما حدث لياسر ووليد، وقد كان يتمنى هذه المرة أن يسمع خبر موتهما أو موت والدتهما على أقل تقدير، لا أن يسمع من إحدى ابنتيه وهما باكيتان كالمرة الأولى خبر زواج والدتهما العرفي من أمير، لم يعلق.. فقط أكد عليهما أنه سيمر عليهما في أقرب فرصة تلوح له في الأفق.

* * *

(٢٣)
الجانب الآخر المنسي

هناك فوق أسطح عمارات المناطق الشعبية المواجهة للمناطق الراقية، حيث تتناثر الحجرات المكونة من الصفيح والأخشاب القديمة المتهالكة، عالم آخر من العشوائيات يرقد فوق الأسطح حيث لا يُرى سيرٌ على الأقدام، يُرى فقط من الأماكن الأعلى كناطحات السحاب أو راكبو الطائرات، عالم لا يحس به ولا يسمع صوته ولا أنينه إلا من يعيش بداخله، فالغوغاء هي ما تميز طابعه، أهله ضائعون مشتتون ليس أمامهم إلا النظر للأسفل، فيبصقون بمرارة على المارين في الطرقات والأزقة والشوارع، وذلك بعد تجولهم بأبصارهم حولهم يبحثون ويفتشون عن الأشياء الجميلة فيتعلقون بها، بل ويحلمون بامتلاكها وما أكثرها تلك الأشياء الجميلة التي تسبح في عالم الخيال والأحلام من تمنيهم شقة في أرقى الأحياء، وسيارة من أفخم وأحدث الموديلات، وعمل لائق يعينهم على مطالب أجسامهم بثلاث وجبات، وجيران من ذوي العائلات الكبيرة والشهيرة في المجتمع، يأملون ويتمنون لكن هيهات! هم يعرفون أن كل هذا لا يتحقق إلا بالعمل والجهد والكد وبذل المزيد من العرق، ويأليتهم في ظل حالة البطالة المتفشية يجدون هذا العمل المصاحب لقليل من الحظ، ولكن أين لهذا الحظ منهم لتحقيق الأماني «وما نيل الأماني بالتمني، ولكن تؤخذ الدنيا غلابًا». وقد استرعى الاهتمام بالنظر لذلك الشاب وتسليط الضوء عليه، حيث يقف هناك كغيره من آلاف الشباب الضائع فوق أسطح العمارات محلقًا وحده بأحلامه بعيدًا عاليًا يحاول بشتى السبل المشروعة تحقيقها، إنه

شاب نشأ كغيره من آلاف الشباب في تلك المنطقة الشعبية الملاصقة للحي الراقي السكن المفضل لأثرياء الطبقة الوسطى، وما أكثر تلك الأحياء الراقية في مصرنا وما يقابلها في الجهة الأخرى من أحياء شعبية كثيرة ينتظر أهلوها بفارغ الصبر النظر لهم بعين الرأفة من جانب المسئولين وتحسين أحوالهم المعيشية.

فتح عامر السمالوطي عينيه، فوجد نفسه محرومًا من أبسط متع الدنيا فهو أصغر إخوته الذين تزوجوا جميعًا وفرقتهم الحياة، رحلوا بعيدًا عنه وتناسوه، تركوه وحيدًا، وبقلوب متحجرة قالوا له اعتمد على نفسك ولا تفكر في اللجوء إلينا؛ فحالنا لا يخفى على أحد «كلنا في الهم سواء» أولادنا صغارٌ وكُثر وبالكاد نعمل على سد رمقهم، ليجد نفسه بين ليلة وضحاها وحيدًا يصارع في معترك الحياة، فالأبوان رحلا منذ زمن، وشقة الأسرة التي كانت تجمعه بإخوته بيعت ووزعت أموالها عليهم بالتساوي، مبلغ بسيط اختار به عامر شقة فوق السطوح مكونة من حجرتين من الصفيح، سقفهما وقطع الأخشاب الغير متناسقة جدرانهما، ومن كل نوع من أنواع الخشب القديمة والمتهالكة أخذت قطعة ووضعت بجوار الأخرى في تركيب غريب يبرز عن لوحة فنية قبيحة رسمها شخص يدعي أنه فنان في لحظة خيلاء ظنًّا منه أنها بالروعة التي جعلته يدعو كبار الرسامين للاطلاع على فنه المبهر، فما كان منهم الا البصق على اللوحة وعليه أيضًا، ناهيك عن أن هؤلاء الفنانين لو عرفوا أن هذا الشخص بانضمامه اليهم بفنه الذي يدعيه أنه رسم لوحته القبيحة هذه من قطع خشبية تم تجميعها من مقالب الزبالة «وما أدراكم بزبالة هذه الأيام التي يغلب عليها الغوغائية وعدم النظام في فصلها مواد صلبة على مواد عضوية، ويضاف عليهم بعض المواد السائلة من كل صنف ونوع، وقال إيه!

نداء من وزارة البيئة» افصل الزبادي عن الملوخية)علبة زبادي بالملوخية، بلاستيك وعليه تقلية، إيه اللي جاب دي لديه، سموم وشابكة في بعضها، كومة وفي كيس متنعكش) لكان بودٍّ هؤلاء الرسامين تقديمه لمحاكمة عاجلة بسبب جوره على المنطقة التي تمنوا عندما أنشئت في الجوار للغلابة وأطلقوا عليها المناطق الشعبية لتتعايش الطبقات بحريتها، كلٌّ في منطقته لا يتجاوز أحد حدوده أو يتعدى على الغير، وكما هو المتبع في الغالب لتلك الحجرات المتهالكة، والتي يجد من خلالها من لا يملكون سبيلًا غيرها لتكون مأوًى لهم وهؤلاء غالبًا المهمشون المنسيون والمهملون الذين أتوا للعاصمة يبحثون عن مهنة شريفة تغنيهم عن مد أيديهم للحرام، الذي حتمًا يقدمون عليه سواء بالسرقة أو بالقتل أو بغير ذلك من الجرائم، والتي صنفت هذه الأيام، وباتت متنوعة وكثيرة فتلك المهن رغم أنها لا تلبي لهم طموحاتهم والتي يسعى أغلبهم إلى تحقيقها فهي أفضل مائة مرة من النوم في الطرقات والشوارع، أو زيارة أقسام الشرطة والاختلاط بالمجرمين والمسجلين، ورويدًا يترك أغلبيتهم أنفسهم لطريق الإجرام غير عابئين بما يجنونه من ثمار مرة، تنهي على حياتهم وعلى أحلامهم الوردية التي رسموها وتمنوا تحقيقها.

حمل عامر شنطة ملابسه فوق كتفه، وارتقى درجات السلم حزين على ما آل إليه المقام، وعند السطوح ألقى ما أثقل كاهله، وتنقل بين أرجاء عالمه الجديد يتعرف عليه يتنقل بناظريه هنا وهناك، وأول ما وقعت عيناه كانت على دورة مياه مشتركة لكل ساكني السطوح- عشر أسرٍ إذا عملت لهم حصرًا تجد عددهم يتخطى الخمسين نفسًا بشرية، هذا بالطبع غير الأنفس الأخرى التي تزاحمهم في المكان من حيوانات وقطط وفئران، أو حشرات كالقمل والبراغيث والبق والنمل، ولا مانع للصراصير من حجز مكانها هي الأخرى؛

حيث تجد فيه ما لذ وطاب لها من طعام برازيّ، رائحته لا تطاق ولا مانع لتلك الصراصير من تكاثرها، ذلك التكاثر الذي يحتم عليها التوسع والانتشار؛ لينتهي بها المطاف بين طيات الملابس أو تحت مخدات النوم، بل وبداخلها تضع بيضها، وتظل بجواره ترعاه حتى يفقس صغارها، فتراهم حولها كأنه الجراد المنتشر في جنبات المكان، فهي لن تجد مكانًا أأمن وأدفء يفقس بيضها ويخرج صغارها للنور فيه بسرعة، وهكذا فلن تجد بنت وردان الأنثى الصرصورية أفضل وأأمن من ذلك العالم العشوائي، فقط ما يقلق مضجعها ويهدد وجودها تلك الفصيلة العنكبوتية المتعايشة معها بكثرة في ذلك المكان بانواعها وأشكالها وأحجامها يجاورنها في المكان بين الشقوق الممتلئة بها الجدران حشرة البرص، وهي تطل من فوق رؤوس سكاني تلك العشوائيات، عينها على الطعام الذي يتناولونه وتتحسر تلك الفصيلة الحشرية على اليوم الذي حطت رحالها واستقرت في ذلك المكان وجعلته مقرًّا لها ولأولادها من بعدها، فمن شدة الجوع تلقي الأبراص بأنفسها إلى التهلكة في أطباق الطعام؛ لعلهم يجدون فرصة لنتش بعض اللقيمات، أو لأخذ لحسة من الأطباق التي ستصبح فارغة في لحظات، فارِّين بجلدهم، والذي يبرز من تحته هياكل عظمية يكاد الجوع ينهي عليها، فيهربون إلى أقرب مكان يختبئون فيه خوفًا من قتلهم أو فعصهم بأقرب فردة شبشب تنهال على أجسادهم المنهكة من شدة الجوع، ومن كان منهم حظه سيئًا فعلًا إذا وجد ذلك البرص مكانًا يختبئ فيه ويكون هذا المكان هو الملابس الداخلية المتقطعة والمهترئة لهؤلاء قاطني ذلك السطوح؛ فيكون وقتها الهرج والمرج الحقيقيين الممزوجين بالسهام الشهوانية، والتي تفضحها العيون الزائغة الجائعة إذا استقر أحد تلك الأبراص داخل ملابس داخلية لإحدى سيدات المكان المكتنزات الممتلئات، واللاتي- عادة- يفضلن عدم دخول الحمام

إلا كل عدة أيام لإخراج ما تفرزه أجسادهن من أوساخ وأنتان لا يتحملها أي بشري لحظة قرار من المعدة بطردها، فتلك النساء مجبرات أو قل اعتدن على ذلك رغبة في إطاعة الزوج المانع بلهجة حادة آمرة من ارتياد ذلك الحمام، أو الوقوف في الصف الطويل الذي لا ينقطع طابوره خلال اليوم خشية تلصص عيون جيرانه من خلال الخروقات الملئ بها الباب الخشبي للحمام، ومن ناحية أخرى رغبتهن في أن يكن سمينات مكتنزات، أفخاذهن ممتلئة ومربربة، بل ومثيرة لإسكات شهوات أزواجهن الغير راضين عن ذلك المستوى الاجتماعي المفروض عليهم فرضًا، وحدث ولا حرج عن المؤخرات الضخمة والصدور المنتفخة المتراقصة مع كل حركة أو هزة من هزات أجسامهن، والتي تخلق عالمًا جنسيًّا لا يُسكت رغباته الشهوانية سوى المزيد والمزيد من التناسل والتكاثر وإنجاب المزيد والمزيد من الأطفال.

فكل هؤلاء وفي ذلك المكان المزدحم، والذي يضج بساكنيه، رآهم عامر في أول صباح يهل عليه بينهم، شاهدهم واقفين في طابور طويل أمام الحمام، وعندما طال به الانتظار لمجيئ دوره في قضاء حاجته، علم أنه لا ينهي على ذلك الطابور سوى هجوم الليل، فوقتها يجبر النوم هؤلاء الخمسين جسدًا على الدخول إلى حجراتهم ليلًا ليناموا أو ليتضاجعوا، فعندئذٍ لا صوت يعلو فوق صوت أنين الزوجات وآهاتهن الممزوجة بالصراخ المتقطع والمكتوم في أحيان كثيرة؛ خشية استراق النظر قبل السمع من جيران الحجرات المجاورة لهن، لكن خشيتهم هذه تفضحها ألسنتهم نهارًا وهن جالسات في حلقات سمر إن لم يكن يشغلهن أعمال توضيب أو ما شابه من غسل قمصان نومهن وهن يتباهين بنشرها معلنين من خلالها أن واحدة منهن كانت ليلتها حمراء لم ينهِ حلاوتها إلا إشراقة الشمس التي تهل عليهم أولًا دونًا عن البشر الذين

يسكنون في الأسفل.

* * *

لم يجد عامر مفرًّا وملجئًا ومأوًى غير هذا المكان الذي أرغم على العيش بداخله دون رغبة حقيقية لأحلامه الموءودة، والتي كانت في السابق تجعله متطلعًا وشغوفًا لتحقيقها، وبين ليلة وضحاها وجد أن أمله الوحيد يتمثل في إيجاد عمل يناسب مؤهله الجامعي، وهذا بالطبع لم يحدث فاضطر تحت وطأة العوز والحاجة لامتهان مهنة القهوجي؛ حيث أشفق عليه أصلان صاحب القهوة القابعة في أسفل العمارة رأفة وإشفاقًا لحاله الذي يزداد من سيء إلى أسوأ، صبّره الرجل وقال له- وهو يربت على كتفه- امتهنها مؤقتًا إلى أن يأتي الفرج، ومع مرور الوقت انكشفت نية الرجل في أنه لم يكن ليقبل بعمل عامر لديه إلا رغبة منه في تزويجه من ابنته، والتي فاتها قطار الزواج بسنوات بسبب مرض الصلع الذي ألم بها وهي في بدايات مرحلة البلوغ، فأتى على شعر رأسها بالكامل، ولم تعد محاولات إنباته تجدي نفعًا، ومع مرور الوقت وتوالي الأيام تناسى عامر موضوع مؤهله الجامعي وتناسى أيضًا فكرة العمل في أي وظيفة كان يحلم بالالتحاق بها، وكل هذا بالطبع مقابل الإغراء المادي الذي يستزيده من أصلان صاحب القهوة، لعله مع مرور الأيام يلين ويحن عليه ويصاهره، لكن عامر أبدًا لم يتناسَ ما تتطلع إليه نفسه؛ فحلم الثراء مازال يراوده.

أتقن مهنته المفروضة عليه، وفضل اختيار فترة الصباح لاستلام ورديته في العمل بها، يمر على أصحاب الدكاكين والمحلات بصينية مليئة بأصناف متعددة من القهوة والشاي والحلبة واليانسون والقرفة والزنجبيل والسحلب، وغيرها العديد من المشاريب، كل زبون حسب طلبه المعد مسبقًا، ألفه

الزبائن وأحبوه لإيجادهم منه حلاوة اللسان وخفة الدم، والسرعة في تقديمه ما يطلبون؛ فساعد ذلك على جعله واحدًا منهم، يسألون عليه إن غاب عنهم، أو تأخر عن استلام ورديته، وكان العائد من تلك العلاقة زيادة راتبه ونسبته في كل مشروب يطلبه منه زبائنه، ولولا ذلك ما استطاع أن يدخر مبلغًا لابأس به من المال جعله يقنع نفسه بأنه ما دام يرى ما يحلو له من مكانه في الأعلى من خلال المنظار الليلي الذي لم يهمه سعره وقت شرائه في لحظة إسراف وتبذير قضت على كل ما ادخره من أموال؛ حيث جذبته مواصفاته وما يتميز به عن المناظير الأخرى؛ فوجود ٢٣ عدسة تصفية وميزة استخدامه ليلًا ونهارًا جعلته يشتريه دون تردد، ولم يمهل البائع طويلًا وهو يسأله متعجبًا: لماذا تريد هذا المنظار الغالي ثمنه، والذي لا يسعى لامتلاكه إلا المهتمون من طالبي كلية العلوم؟ وتحديدًا قسم علوم الفضاء، وأنت من مظهرك وهيئتك وشكلك يقولون إنك تضيع وقتي ولن تشتريه، لكن المال كان له مفعول السحر وجعله يتأسف له بعد الانتهاء من شرحه لمميزات المنظار من مدى الرؤية: في النهار ٤٥٠ - ١٠٠٠ مترًا (في النور الخفيف) وفي الليل من ١٠٠ - ٢٥٠ مترًا (في حالة انعدام النور، وباستخدام الرؤية بالأشعة تحت الحمرا) ويعمل في درجة حرارة بين ٤٠ إلى - ٥٠ درجة مئوية، والتقريب في النهار من ٣ إلى ٦ مرات، أما التقريب في الليل من ٣,٧ إلى ٧,٣ مرات.

* * *

تذكر عامر وهو يحمل المنظار تحت إبطه عائدًا إلى حجرته عندما ألحت فكرة شرائه في أنه كان يريد شراءه فقط لعدم مزاحمة جيرانه الجالسين أمام شاشة تلفاز واحدة، كل رجل بجواره زوجته وأولاده مكونين دوائر، كلُّ دائرة معدة على حسب عدد أفراد الأسرة، أربعة أفراد خمسة أفراد ستة أفراد.. الخ، إذًا فكلهم عائلات وهو

الوحيد، بل والأعزب بينهم وإذا جلس بينهم فلن يجد إلا سهامًا نارية من الكل، رغم كونهم يكنون له كل الود والاحترام، وما ظنه من ردات فعل منهم تجاهه إلا واقعًا حدث عندما تجرأ وجلس في مرة من المرات والتي كانوا ينادونه للجلوس معهم، فوجدهم يعلنون له من خلال نظراتهم التي تفضحهم عدم رغبتهم في تواجده بينهم في تلك اللحظات المسماة لديهم بالرومانسية، أوعزوا إليه أنهم لن يرحبوا به مرةً أخرى إلا إذا استطاع تكوين دائرة مثلهم، ولو من فردين وأن يكون الفرد الآخر المتواجد معه في تلك الدائرة أنثى يعقد قرآنه عليها ويتخذها زوجته، وغير هذا فليس بالمسموح له به، ولأن الإحساس نعمة فقد انقطع عنهم وأصبح في شبه عزلة تامة جعلت تفكيره يلح عليه بشراء تلفازٍ؛ ليكون التلفاز رقم اثنين على السطح، لكنه نحى فكرة شرائه جانبًا خوفًا من احتلال حجرتيه ليل نهار، وفي نهاية المطاف لن يجد مكانًا يقضي فيه ليلته سوى عراء السطح، ورويدًا سيجدهم يمدون أياديهم إليه بمرتبته ومخدته وبطانيته، ويقولون له خذهم واختر لك مكانًا تود قضاء فيه ليلتك، فتلفازك أحدث وصورته أنقى، وصوته أوضح من تلفازنا القديم والذي أصبح متهالكًا من كثرة الجلوس أمامه والتخبيط والترزيع فيه، وبعد تفكير طويل اهتدى لفكرة المنظار، وتحديدًا عندما خيم الظلام فجأة على المنطقة نهارًا فحدث هرج ومرج، وفزع ورعب بين الأهالي والذين ادعى بعضهم أن القيامة ستقوم، وقتها انتابته حالة انزعاج مثلهم، وكاد يصدق مروجي تلك الأقاويل، لكنه من خلال فتحه لتلفاز القهوة وسماعه للإعلامي مقدم نشرة الأخبار والذي هل على الشاشة في نبأٍ عاجل مفاده أن كسوفًا كليًّا للشمس حدث للتو في ظاهرة فلكية نادرة الحدوث لا تحدث إلا كل ١٠١ عامًا، فضحك عامر وضرب كفًّا بكف، وراح يفهم من حوله بتلك الظاهرة التي لم تمر عليه مرور الكرام، وظلت محفورة في مخيلته من خلال المناظير التي رآها مع المهتمين بتلك الظاهرة من علماء الفلك وغيرهم يحملونها

بين أيديهم أو يضعونها أمامهم، كلٌّ منظار حسب حجمه فألحت عليه فكرة رؤية العالم مثلهم، لكن بطريقته المختلفة فهم يتوجهون بتلك المناظيرلأعلى لرؤية ودراسة النجوم والأفلاك، أما هو فسيستخدمها بطريقته والتي يود من خلالها رؤية العالم البشري السفلي أو الذي يحازيه في نفس العلو.

* * *

بدأ عامر يمارس هوايته بالتجول بمنظاره داخل العالم المقابل لعالمه في الجهة الأخرى هناك؛ حيث تعيش فئات اجتماعية عليا من حيث مستويات المعيشة، وشد انتباهه تلك الفتاة المفعمة بالحيوية، والتي تفتح شباك حجرتها في ميعاد محدد كل يوم هو وقت صحيانها، بهرته برشاقتها وحيويتها وجمالها الأخاذ وشعرها المنسدل كالحرير على كتفيها، عاين كل جزء في جسدها مُمعنًا النظر فيه، وبرويَّةٍ حتى حفظها عن ظهر قلب، فأحبها وعشقها وتمنى، والأماني بعيدة المنال حلم، وما للأحلام للواقع بصلة إلا بالتحقيق، تعذب وتألم ألمًا ليته بسببه يلقى حتفه سريعًا ولا يلقى هذا العذاب اليومي وهي بعيدة كل البعد عنه، ولأول مرة يندم على شراء ذلك المنظار الذي من خلاله بدأ عذاب الحب يزوره كل ليلة، فقد كان على وشك مفاتحة صاحب القهوة في الزواج من ابنته، والتي طالما وجدها في طريقه بقصد أو بدون، ولسان حالها يقول له أنا من بختك ومن نصيبك، ومن ورائها والدها ووالدتها يرددان وراءها، لا يمر اليوم إلا وقد أرسلت له أطباق الطعام الشهية والمختلفة الطعم والشكل تمهيدًا لطريق الالتصاق الأبدي به ألا وهو الزواج.

لم يكن أمامه إلا التفكير والتخطيط، كيف له بنيل المراد؟ كيف الوصول للحبيب الذي هلّ عليه فجأة دون سابق إنذار، والظفر به؟

وحانت لحظة بدء العمل في خطته، ذهب للعمل بكل جدٍّ ونشاط دون كلل أو ملل، وبنفس الشراهة واصل الليل بالنهار حيث كان كل همه جمع

أكبر قدر من المال لينفذ خطته فعليًا، والتي اهتدى إليها تفكيره بعد عناد وعناء.

* * *

كان أول الخيط اسمها، أمسك به بعدما سمع بواب العمارة التي تسكنها يناديها وهي تستقل سيارتها مع شابة تشبهها: يا ست ناهد، تليفون سيادتك وقع منك. مدت يدها وأخذته منه، تفحص أصابع يدها بعينين قلقتين، فلم يجد لا دبلة ولا خاتم يتحلى بها أصبع البنصر لليد اليمنى، تمنى رؤية اليد الأخرى فقالت له.. ها هي يدي الأخرى- مدتها بمبلغ من المال دسته في يد البواب وشكرته، فتنهد عامر فقد ارتاحت نفسه واطمأن قلبه، إنها لخالية اليد من الخواتم والدبل؛ إذًا فهي ليست بمتزوجة ولا بمخطوبة، فعمل ذلك في نفسه الهمة في تنفيذ مخططه للإيقاع بها وبسرعة، غيّر جلده فبدت هيئته توحي لمن يراه أنه ابن ذوات من ساكني القصور والفيلات، وليس عامر ابن المنطقة الشعبية القاطن فوق أعلى السطوح في حجرتين من الصفيح والأخشاب البالية، راقب كل تحركاتها وعرف أحب الأماكن إلى قلبها، فسلك طريقه في التردد عليها متعمدًا أن تراه دون لفت نظرها في أنه يهتم لأمرها، أشهر ثلاثة لم يمل ولم يكل، عمل خلالهم على توطيد علاقته بالعاملين في الأماكن التي طاردها من خلالها وإعلامهم أنه ابن لسفير سابق، وأنه رجل أعمال ناجح ذو مال وثراء فاحش، فترامت إلى سمع ناهد هذه الكلمات كلما حلت، ومنذ اللحظة الأولى التي سمعت فيها ناهد اسمه بدأ موسم جني الحصاد لما بذله من مجهودات للإيقاع بها.

وفي بادئ الأمر، لم تهتم ناهد لأمره، لكنها مع مرور الوقت وتعاقب الأيام؛ بدا الأمر وكأن شيئًا ما ينقصها، فإن غاب عامرعن تردده لأي من الأماكن التي

ترتادها أو إن لم تره يومًا أحست أن شيئًا ما ينقصها، وأنه بالفعل ذلك الشخص المناسب الذي يليق بأن يكون زوجًا لها، فبعد انقضاء العام من انتظارها لزيارة فارس أحلامها والذي رسمته في مخيلتها، والذي تراه يحملها على صهوة جواده ويرحل بها إلى عالمه المثالي بعيدًا هناك داخل جزيرته المنعزلة عن العالم والمحاطة بأسوارعالية ومكتوب على بابها الوحيد والمصفح "مرحبًا بسيدتي الجميلة، حللتِ أهلًا ووطئتِ سهلًا"، وتسمعه يهمس لها بصوت مشتاق ملتاع مثلها.. مدي يدك إلى قلبي سيدتي، وانزعي مفتاح الخلود، وافتحي به بابًا مغلقًا لم تفتح ضلفتاه من قبل، ادخلي ولا تخافي وصدقيني فلن تجدي إلا السعادة والحب والحنان داخل جزيرتي، والتي سأرفعك على عرشها لتكوني ملكة متوجة تضعين حول رأسك تاجًا صنعته من أضلعي، ونقشت عليه اسمك، فعندما تكون لديك الرغبة في وجودي بجانبك؛ ضعي ذلك التاج على قلبك فأسمع على الفور ضلوعي تخبرني بدقات قلبك المنتظرة بشغف وصولي إليكِ.

حلم راود ناهد كل ليلة ينتزعها من نومها، ويجعلها تفتح شباك حجرتها تلقي بناظريها بعيدًا حيث الفضاء الفسيح منتظرة فارسها بجواده ليأخذها هناك حيث جزيرته، لكن الانتظار طال ولم يأتِ ذلك الفارس، وها هو الحول قد انقضى على تخرجها؛ حيث لم ترُقْ لوالدتها فكرة الخروج للعمل كما فعلن باقي زميلاتها، وأمام هذا الرفض لم يكن أمامها سبيل إلا الخروج والتردد على الأماكن التي يرتادها ذوو العائلات والمناصب المرموقة ورجال الأعمال لعلها تجد من بينهم أو من يختارها زوجة له.

اتجه إحساسها في الميل- كل الميل- نحو عامر كما أراد، دقات قلبها بدأت تتفاعل مع سماع اسمه، عامر بيه نسيت مفاتيح سيارتك، عامر باشا نظارة سيادتك، عامر بيه المحفظة... الخ، إن غاب يوم تسأل عنه بدون لفت

الأنظار إليها، لاحظ العاملون تصرفاتها واهتمامها الزائد به من خلال زلات لسانها بسؤالها عنه وفنجان القهوة يقدم إليها مرة، وكوب العصير مرة، و"مج" الشاي مرة ومرات، وبكل إخلاص ووفاء نقل العاملون هذه الزلات لعامر، كل أسئلتها عنه تصل إليه من خلال تقارير يومية تقدم له من خلالهم، ولأول مرة في حياته لا يندم عامر على بذخه وإسرافه، مادامت الخطة المعدة بكل إتقان وحرص شديديْن على إنجاحها تسير في الاتجاه الصحيح، ناهد تزداد تعلقًا به يومًا عن الآخر، فمن جانبها بدأت تتعمد اعتراض طريقه بمناسبة أو دون، وهكذا انقلبت الآية وهذا ما طمأنه؛ فهي ما تريده الآن أكثر منه، وأكثر من أي وقت مضى، أصبح كل همها وشغلها الشاغل فعل المستحيل للإيقاع به إلى أن حانت اللحظة التي انتظرها عامر طويلًا، وتقرب منها وواجهها:

- نعم أنت تحبينني، وأنا بالمثل، فلم اللف والدوران؟!

سعدت ناهد سعادة ما بعدها سعادة، كاد عقلها يطير غير مصدقة، ومنذ تلك اللحظة لم يعد يهمها أي شيء، مادام القدر بعث لها بمرادها، واتخذت مقولة «داري على شمعتك تنور» منهاجًا كلما أفصحت عن بعض المعلومات عنه أمام أختها نجوى:

- إنه من نوعية رجال الأعمال الناجحين، هذا غير أنه ابن لسفير سابق.

وغير هذا لا تزد لها، ولا تستجب لتوسلاتها بأن تراه ولو لمرة واحدة مخافة إعجابه بنجوى وتفضيلها عليها أو إيقاع نجوى به وتخطفه منها، ولم لا! والتاريخ من الممكن أن يعيد كتابة نفسه مرة أخرى؛ حيث توحي نجوى لوالدها بأن ناهد تخرج مع شاب غرَّر بها وضحك عليها تحت دعوى أنه يحبها فيصدق والدها، ويأتي على عجل وبيده عريس من معارفه، وبالأخص

ممن يتخذون الفلاحة مهنة لهم ويزوجها له سواء قبلت أم رفضت، أو أن يأتي بحيلة كما فعل جدهم لوالدتهم من قبل وتجد في النهاية نجوى فائزة بعامر، وهذا ما هيأه لها خيالها المريض.

* * *

لم تكن ناهد تدري أن نجوى ليس لديها أدنى اهتمام بما يدور في فلك أختها الأكبر منها، فهي تحاول فقط الاطمئنان على أحوالها، وكيف تسير أحداث يومها ليس إلا. وعندما وجدت صدًّا وإعراضًا من ناهد ووصفها بالمتطفلة آثرت الابتعاد، وركزت كل اهتمامها في المذاكرة، لعل وعسى يمر عامها الدراسي الأخير دون رسوبها في أي مواد كسابق عهدها في السنوات الماضية، فقد مر النصف الأول من العام الدراسي عليها وكل شيء يسير على وتيرة واحدة، أحداث يومية متكررة مملة، لا جديد يذكر في حياتها؛ فالأم فريدة لم يعد من المقدور السيطرة على تصرفاتها في الأيام الأخيرة.. خروجات وسفر وغياب عن المنزل باليوم واليومين، وربما أكثر وذلك تحت تبرير زواجها العرفي من أمير، وناهد رأتها وقد أحاطت عالمها بسياج حديدي ليس من المفترض على أحد الاقتراب منه أو تخطّيه، وأخوان حتم عليهما الإدمان الابتعاد والنزول على غير رغبتهما في مصحة نفسية لاستكمال الكورس الموضوع لهما لشفائهما من الإدمان، إذًا فلا توجد صداقات فعلية لديها، إنما حوارات عابرة فقط بينها وبين زملاء الدراسة داخل الحرم الجامعي لا تتخطى بضع كلمات ومقتضبة؛ ليؤثر الزملاء السلامة مفضلين الابتعاد عنها قبل الزميلات، وإزاء تلك الأحداث التي فرضتها الظروف من حولها فكرت في قضاء أيام الأجازة بجوار والدها في البلدة، لكنها طردت هذه الفكرة سريعًا وبررت لنفسها ذلك أنها تريد الهروب من سجن الملل الذي لن يدوم طويلًا إلى السجن الأبدي الذي من الممكن فرضه والدها عليها من خلال مكره ودهائه وخداعه، فبمعسول الكلام

والقدرة العالية على الإقناع؛ من الممكن أن تجد نفسها بين ليلة وضحاها متزوجة من رجل ينتمي لأصوله الريفية، والتي يعتز بها أيما اعتزاز، لذلك لم يعد أمامها إلا التريض في أحد النوادي القريبة من السكن، راحت تقضي فيه معظم وقتها، وقالت لنفسها وهي تتنهد بعد معاناة:

- سجن يطمئن الراحة النفسية فهو بالأحسن والأوسع بكثير من سجن الشقة الكابس على النفس.

لم تكن تتوقع أن أحدًا يهتم لأمرها في هذا المكان الجديد الذي بدأت تتردد عليه يوميًّا دون انقطاع، وكان أغلب ظنها عندما أوحي لها أن من يتريضون حولها لابد لهم من الاطمئنان على سلامة بعضهم البعض، وخصوصًا إن تعرض أحدهم لوعكة صحية أو ما شابه، فيبادورن بالاطمئنان عليه وتقديم الإسعافات الأولية له؛ لأن أغلبهم من كبار السن ومترهلي ومترهلات الأبدان، وما يزيد الاهتمام بهم من جانب مسئولي النادي أن بينهم من هو مهم وينتمي للنظام الحاكم.. إنه وزيرالإسكان بشحمه ولحمه، يمارس هوايته المفضلة معهم هذا بجانب تعليمات من الطبيب المعالج له بالمداومة على التريض يوميًّا.

* * *

(٢٤)
«شبر ونص» بقي العمدة

ما وعدت به لم أكن لأخلفه، فليس من الصعب علي في ظل صداقاتي المتوسعة والمتشعبة لرجال الأعمال التي كونتها في وقت قياسي، ومن خلال تعاملاتي في البورصة، وتقربي من ذوي السلطة والنفوذ؛ في أن أجد من بينهم من يتوسط لي لدى المسئولين في تنصيب ريان عمدة للقرية.

فرحة ما بعدها فرحة، اجتاحت ريان وأهل بيته، وهو يتلقي نبأ هذا الخبر السار، منصب لم يحلم به، ولم يفكر فيه مطلقًا، لكن بإيعاز وترتيب مسبق مني حدث ما حدث. وهكذا أصبح ريان عمدة، انتزع هذا اللقب من بين أنياب الأسد، انتزعته له من عائلة لها باع طويل في هذا المجال؛ حيث توارثته جيل من بعد جيل لدرجة عدته العائلات الأخرى ملكًا من أملاكها ليس من المقبول ولا من الأصول تقبل التعدي عليه احترامًا للجيرة والقرابات التي تربطهم من خلال مصاهرة بعضهم البعض.

ضربت الأكف ببعضها، وتساءلت الألسن وعلامات التعجب خارجة حائرة من العيون، كيف لريان «مهرج القرية» بأن يشغل هذا المنصب!؟

تهامسوا بصوت عالٍ، وقالوا بكل جراءة إن مهمته الحقيقية رسم الابتسامات على الوجوه من خلال إضافته للرتوش والتزويق في كلامه الذي لا يؤخذ على محمل الجد، وإن كان صادقًا فيما يقول، فهو معروف عنه اختلاقه لبعض الحكايات والقصص الوهمية؛ كي يلتف حوله الصغير قبل الكبير

لسماعها، وهكذا انطبقت صورته في مخيلتهم، ولم يتصوروا أنها ستتغير في يوم من الأيام وتستبدل بالمهابة والاحترام الذي لابد عليهم من اللحظة التي نصب فيها عمدتهم أن يسعوا جاهدين لأخذها في الحسبان.

الأطفال الصغار كان لهم رأي مغاير عكس الكبار تمامًا، فقد انطلقوا في مسيرات كبيرة لفوا بها البلدة، وانتهت بهم إلى بيت ريان، أحاطوا بداره وتعمدوا إسماعه رفضهم له في هيئته الجديدة من خلال كلام نطقت به ألسنتهم بعفوية:

عمدتنا شبر ونص.. يا ولاد

حد يقوله.. يا ولاد

إنه ما ينفعش.. يا ولاد

للمنصب دا.. يا ولاد

هرول ريان وراءهم بمقشة البلح كالطفل الذي يلعب معهم، فالبكاد يميز من بينهم بعمامته التي تعلو رأسه لربع متر تقريبًا، وكلما فرقهم عاود الأطفال الكرة مرة أخرى، وهم يكملون ما بدؤوه:

عمدتنا شبر.. يا ولاد

أكل البلح كله.. يا ولاد

وبالمقشة.. يا ولاد

راح يضربنا.. يا ولاد

حد يقوله.. يا ولاد

إنه ما ينفعش.. يا ولاد

في المنصب دا.. يا ولاد.

* * *

مع مرور الوقت تناست القرية سريعًا أمر ريان ونحته جانبًا وبدأ اهتمامهم الحقيقي ينصب مرة أخرى على الوفود الهالَّة عليهم من كل صوب وحدب، وجوه حقيقية يرونها أمامهم، لا تفصل بينهم شاشات التلفاز حيث ألفوهم واعتادوا رؤيتهم، مسئولين كبار- رجال أعمال- فنانين- من كل المهن أتوا يقدمون العزاء، لكن هذه المرة في موت خفاجة والد محمود، والوحيد الذي يعلم بأمر هذا الصوان الكبير المقام لتلقي العزاء في موت والده ليس إلا لتقوية العلاقات بين المركز والمحيط، بين الطبقة البورجوازية التابعة والطبقة البورجوازية المهيمنة والمسيطرة، فرأس المال هو من يتكلم في تلك الليلة الحزينة، ولا صوت يعلو فوق صوته. لكن مع إشراقة يوم جديد فتحت عيني على تجمهر للأنفار والأجرية الجالسين بدون عمل منذ قراري الذي اتخذته دون معرفتهم السبب الحقيقي وراء تنفيذه فيما يشبه الثورة، طالبوني بأن أتركهم يزرعون أرضي، ترجوني وكلهم أمل في أن أنظر لهم بعين الرحمة وأن أرأف لحالهم. بكى بعضهم أمامي، واقترح البعض الآخر أن أؤجر الأرض كاملة لهم وهم ملتزمون بدفع الإيجار في الموعد الذي أحدده، فتركتهم دون وعدهم بشيء مما اقترحوه علي، وانتظرت بفارغ الصبر قدوم ريان للقيام بالمهمة الأساسية التي سعيت في تنصبه من أجلها، ألا وهي العمل على حمايتي، أمرته بالعمل على تفريقهم باللين والرفق أولًا من خلال معسول الكلام والوعود البراقة، وإن لم يستجيبوا فعليه استعمال الوجه الآخر الأكثر عنفًا وشدة، فلم يكذب خبرًا وخرج إليهم وبدأ يعمل على تنفيذ ما أمرته به، لكن محمود نحاه جانبًا، وتكلم بدلًا منه بدافع الرأفة والشفقة لحالهم، قائلًا لهم:

- ليس لكم عندي ما اطمئنكم به الآن، لكن الخير آتٍ، وسيعم الجميع، عليكم بالصبر فقط.

كان غير راضٍ عما قاله لهم، وغير مقتنع من الأساس بما أنوي فعله على أرضي، فقد كان لديه إحساس بأن شيئًا ما فيما أفعله خطأ، فكل مشاريعي وأحلامي التي أسعى وأخطط لتنفيذها على أرضي الزراعية ليس مكانها البلدة فمكانها الطبيعي الصحراء الواسعة الفسيحة والرحبة التي تصلح لملايين المشروعات من نوعية مشروعي الذي أحلم بإقامته؛ حيث حبات الرمال المشتاقة تنادي من يعمرني ويسكن في دربي وله الأجر والثواب.

أخرج محمود كل ما في جيبه من أموال، ووزعها عليهم بالتساوي، وطمأنهم بأنها ستكفيهم لأيام، ومن يجد نفسه في زنقة ومحتاج فليأتِ إليه فبابه سيظل مفتوحًا للجميع وبالأخص كل ذي حاجة، ومن ناحيتي لم أكن لأرتضي بما فعله، فقد ركبني الغرور وأعماني الكبر، وتمكنت مني الأنانية لدرجة أني وبخته على ما فعله من موقف إنساني كان من الأولى أن أكون أنا المبادر به، ولأول مرة يدب الشقاق بيننا ويعلو صوتنا.

احتدم النقاش وتطورت الأمور إلى أن وصلتْ لطريق مسدود، كلٌّ منا مصمم على موقفه ورأيه، ريان واقف قبالتنا يشاهد ويسمع ولا يفهم شيئًا مما يحدث أمامه، كلُّ ما في استطاعته فعله رفعُ عمامته والمسح على صلعته، ويعاود الكرة بين حين وحين؛ لعله يفهم.

أسف محمود لموقفي والتعنت الواضح البادي في نبرة صوتي ورفضي الصريح والواضح من تقديمي أية مساعدات لمن أعرفهم جيدًا وأحفظ عن ظهر قلب أحوالهم، قال لي: افعل ما يحلو لك، لكن اعذرني يا صديقي العزيز

لن أستمر معك. تركني ورحل، عاد لمنزله خلع الملابس التي لم يتعود عليها جسده بعدُ وارتدى الجلباب، وقف أمام باب داره نادى في الناس فتجمعوا حوله، كرر ما قاله، من يجد نفسه في ضيق أو كرب فليأتِ إلي ولا يخجل، أسأل الله أن يعينني على قضاء حوائجكم. كل ما جمعه من أموال في الفترة التي عمل فيها معي وكان يحتفظ به لإعادة بناء داره المتهالكة حوائطه؛ وضعها بجواره، حمد الله أنه لم يصرف منها مليمًا. ذهبت إليه بسيارتي وحاشيتي تحيط بي من كل جانب بعد هدوء أعصابي واعترافي بيني وبين نفسي أني مخطئٌ في حقه، وما كان لي أن أراجعه فيما فعله من صواب. جلست بجواره لا أعرف من أين أبدأ الكلام، ولف الصمت المكان من حولنا، هو فقط حديث هامس بين نفسين لم يعرفا طعم الخصام من قبل، نفس تقول أرجوك العودة، ونفس تقول لاعودة.

قطع محمود الصمت وتكلم كما لم يتكلم من قبل:

- اسمع يا مروان، عودة للعمل معك تنساها، ولدت فلاحًا وسأموت فلاحًا، ومهنتي الحقيقية التي لا أعرف سواها الآن هي الفلاحة.

أردت مقاطعته، فبادرني مرة أخرى:

- قبل أن تعدني بأي شيء، وتقول لي عد، سأقول لك أنت عد، عد أنت لأهلك وناسك إنهم ينتظرون عودة مروان الذي ذهب للإتيان بأموال والدهم من صديقه في لبنان بعد تصفية تجارته معه، ينتظرون بشغف توزيع هذه الأموال عليهم كما وعدهم والده سليمان من قبل.

قمت ولم أعلق على كلامه، ذهبت مترجلًا تاركًا الهالة التي تحيط بي، لم أصدر لهم أمرًا بأن يتبعوني أو ينتظروني، فقط ذهبوا ورائي، مقعدي من السيارة خالٍ،

تسير خلفي منتظرة دخولي إلى صالونها في أية لحظة، دخلت منزلي لم أتحدث مع والدتي، ولم أنحني لتقبيل يدها كلما هللت بإشراقتي عليها، دخلت حجرتي وأغلقت الباب ورائي، بكيت وقد أحرقت دموعي خديي، خلعت ما على جسدي من ملابس الرأسمالية العفنة، وبحثت عن ملابس «المتروبوليتانية» من جلباب ولاسة والطاقية الشبيكة؛ فلم أجد لهم أثرًا، وأثناء بحثي عنهم سمعت نقرًا على الباب، سترت جسدي وفتحت لوالدتي التي وجدتها تناولني إياهم، وهي تقول: أتاني إحساس بأنك ستلبسهم اليوم فبعثت بهم للمكوجي لفرد كرمشتهم.

خرجت دون أن أجيبها وهي بدورها لم تسألنِ، لمحت بعيني ابتسامتها الغائبة منذ موت والدي، تركتها وبإشارة من يدي توقفت حاشيتي مكانها، وسط الناس سرت فأحسست بالأمان وأنا سائر بينهم، حملتني قدماي إلى حيث أريد، ألقيت السلام على محمود وجلست بجواره، سُرّ محمود لمجيئي على هيئتي التي يعهدني عليها في الماضي عندما كنا صديقين بحق، وبادلني السلام وهو يحتضنني قائلًا:

- حمد لله على سلامتك يا أخي يا حبيبي ويا صديقي العزيز، والله طالت غيبتك، انظر حولك، انظر للوجوه الباسمة الفرحة لعودتك سالمًا

"وهو يشير للمارين أمامنا".

قاطعته:

- كفاية يا محمود، أرجوك كفاية.

صمت محمود ينتظر بشغف كلامي التالي جملته والتي خرجت من بين أنيابي وعلى مضض أكملت:

- أنت ولا غيرك يعرف أن نقطة ضعفي الوحيدة هي محمود نفسه، أنت نقطة ضعفي الوحيدة، فأرجوك عد معي وسأنفذ ما تطلبه بالحرف الواحد،

كل ما وزعته على الأهالي من أموال سأعوضك عنها فورًا.

قاطعني محمود:

- طلبي الوحيد يا مروان أنت تعرفه، التخلي عن مشروعك، التخلي عن حلم حياتك الذي سينهض بالبلدة كما تدعي.

ملت برأسي أرضًا خجلًا رافضًا الإذعان لطلبه، تكلم محمود بعدما طال الصمت من جانبي:

- إذًا، هي النهاية يا صديقي العزيز، أنت من قضيت على صداقتنا، عن إذنك يا مروان بيه.

ظللت مطأطئ الرأس، لا أدري ما المدة التي استمريت فيها هكذا بعد ترك محمود لي وحيدًا، ودخوله إلى داخل داره.

* * *

(٢٥)
خيانة

لم يدم زواج فريدة العرفي من أمير، كان كالقشة التي قصمت ظهر البعير، فقد ظهر الشاب على حقيقته، وظهرت نواياه الشريرة، وكانت البداية ابتزازه لها واستيلاءه على كل مدخراتها المالية؛ حيث أخذها منها وهي راضية، فعن طيب خاطر أعطتها له في مقابل إغداقه عليها بالمزيد من نهر حبه، وقالت له وهي في أحضانه: إن أردت المزيد سأزيدك وما دمت ترضيني سأرضيك. فلم يكذب خبرًا وطلب منها أثناء معركة غرامية بينهما أن تكتب له شقتها التي ورثتها عن والدها، وذلك في مقابل تحقيق طلبها المتكرر بأن يتوّجا زواجهما رسميًّا على يد مأذون، وزاد على ذلك بأن قال لها ولا مانع لدي من كون العصمة في يدك.

خافت فريدة وانقبض صدرها بشدة عندما قال لها ذلك، وبدأ الشك يطرق باب قلبها بقوة، ويوعز إليها بأن شيئًا ما مريبًا يخبئه لها القدر، وعليها من تلك اللحظة التي طلب فيها أمير ذلك أن تستنجد بالحرص من تجاهه، لكنها من ناحية أخرى أرادت بأن تمر الليلة كما تريد، بأن تستزيد بالقدرالذي يشبع رغباتها وتنهل من حنانه المتدفق؛ حيث رأته أمامها كالنهر الذي ما يزال في شدة عنفوانه وقوته. وبعد نيلها ما أرادته منه طمأنته بأنها ستفكر في الموضوع وفي الغد ستعطيه الرد، لكنه الغد قد أتى وتعمدت الهروب منه بزعمها أنها ستمضي اليوم بكامله مع ولديها التوأم في المصحة النفسية. وفي وقت متأخر من الليل، عادت تتسحب على أطراف أصابعها كي لا توقظه بعدما رأته جالسًا في الصالة مغمضَ العينين يتصنع النوم، فعلمت وقتها أنه

ما يزال ينتظر ردها، تركته ودلفت إلى حجرتها وأبدلت ملابسها، وخلال دقائق معدودات كانت في أبهى صورة تجعل أمير لا ينتظر لأن يسألها عما أراده منها بليلة الأمس، بل هي من ستأخذ منه كما أخذت منه بالأمس، بل وستستزيد وبالقدر الذي يشبع رغباتها، خرجت إليه ولا تعرف ماذا سيكون ردها لو أجبرها ضعفها أمامه بالاعتراف بهروبها طيلة اليوم من مطلبه، وأول ما فعلته جلست بجواره تحاول إفاقته، قبلته قبلات حارة لم يستطع أمام لهيبها المقاومة، واستيقظ من نومه المصطنع وما تمنته لباه لها، لكنه في لحظات الإجهاد الأخيرة التي سيطرت عليه؛ كرر على مسامعها ما قاله بالأمس، لكنها بعدما أخذت منه ما أرادت ابتسمت وقبلته بين عينيه وهي مجهدة هي الأخرى، وقالت له: مش وقته يا حبيبي، تصبح على خير.

* * *

في الصباح، وجدته مستيقظًا قبلها على غير عادته، وطعام الإفطار معدٌّ ومجهز بانتظارها، ضحكت وهي خائفة من ضياعه منها، اقتربت منه وقبلات الليلة الفائتة كررتها وأضافتها بإيحاءات جنسية جعلته يلح عليها في العودة لحجرة النوم مرة أخرى، لكنها أغلقت فمه بسبابتها، وقالت له: نفطر أولًا وبعدها نتناقش في هذا الموضوع. دخلت الحمام لتغتسل وتعمدت بأن تطيل جلستها بداخله؛ لعلها تجده وقد ذهب لمباشرة أعماله، وقد كان لها ما أرادت ونجحت في خطتها.

مرت عليها ساعات النهار كسرعة البرق، وأقبل الليل عليها ولم تجد غير الهروب سبيلًا مرة أخرى؛ أملًا في نسيانه أمر تنازلها عن الشقة له، وتركت له رسالة تعلمه فيها أنها ستغيب عنه مدة يومين، ستقضيهما بجانب بنتيها هذه المرة.

* * *

عاد أمير آخر اليوم، فتح رسالتها وقرأها، وحاول بعدها الاتصال بها فوجد تليفونها مغلقًا.

* * *

أمضت فريدة اليومين بجوار ناهد ونجوى شاردة الذهن، لم تسألهما كعادتها عن كل صغيرة وكبيرة تمر في يومهما؛ حيث انتظرت ناهد في سؤالها عما آلت إليه علاقتها مع عامر، وإلى أين تطورت الأمور، ونجوى هي الأخرى تنتظر توجيهاتها بشأن التعامل مع رجل في سن والدها من ناحية، ومن ناحية أخرى بحكم منصبه بأنه وزير، تركتهما فريدة وجلست في ركن بعيد عنهما شاردة الذهن تائهة في عالمها الخاص مع أمير، ومرّ عليها اليومان سريعًا ولم تعد كما وعدت، لكنها ظلت في مكانها القصي الذي اعتادت على الجلوس فيه في اليومين الماضيين، وكل ما فعلته أنها فتحت تليفونها المغلق وردَّت عليه تستأذنه في أن يتركها ليومين آخرين؛ متعللة بحدوث انتكاسة لوليد وياسر في مسيرة علاجهما مضيفة بأنهما كرّرا في محاولات هروبهما من المصحة إلا أن مكالمته لها وسماعها لصوته أنعش لديها إحساس الاشتياق لرؤيته؛ فقررت مصالحته والنزول على رغبته بتنازلها له عن الشقة، ومن فورها أتت بورقة وقلم وكتبت:

أتنازل أنا فريدة.. بكامل إرادتي عن شقتي، والتي ورثتها عن والدي لزوجي وحبيبي أمير.

قررت أن تفاجئه بقرارها هذا في مكان عمله في صالة الجيمانيزيوم، ووقت خروجها أخبرت بنتيها أنها ستغيب عنهما لمدة شهر كامل، ستغلق فيه

تليفونها، لذا فلا ينويان الاتصال بها؛ لأنها ستكون في مكان معزول عن العالم، لم تخبرهما أن زواجها العرفي من أمير سيتحول إلى زواج رسمي، وأنها ستجبره على قضاء شهر عسل معها من أول وجديد في إحدى المدن الساحلية الهادئة.

لم تكذب نجوى خبرًا واتصلت بوالدها يونس بقرار سفر والدتها المفاجئ، وعلى الفور طمأنها يونس وأخبرها أنه لن يمر اليوم إلا ويكون برفقتها هي وأختها، ويقضي معهم المدة التي ستغيب عنهما والدتهما.

* * *

وما إن وطئت قدما فريدة صالة الجيمانيزيوم أخبرت العاملين مع أمير ألا يخبروه بمجيئها متعللة بأنها تجهز له مفاجأة لا يتوقعها، ومن ناحيتهم حاولوا إقناعها بأن عليها الانتظار؛ لأنه في جلسة مساج خاصة مع إحدى الزبونات فأتاها إحساس بأنهم قلقون من رؤيته وهو يدلك جسد امرأة مثلها فتتشاجر معه، لكنها طمأنتهم بنظراتها وابتساماتها الموزعة عليهم، وقالت لهم: اطمئنوا لن يحدث شيء مما يدور في رؤوسكم. وتقدمت نحو الأمام بخطوات ملؤها الثقة يحدوها الأمل في غد مشرق، ملئ بالسعادة وبحياة جديدة كلها حيوية ونشاط، وأثناء تقدمها خلعت حذاءها ومشت على أطراف أصابعها، وتوقفت أمام الباب وفتحته برفق دون أن يشعر أمير بأنها خلفه تسمع كل كلمة يبوح بها للسيدة الممددة أمامه على ترابيزة التدليك، حوار سمعته فزلزل كيانها وأصابتها قشعريرة من هول صدمة الكلمات التي وقعت على مسمعها، جعلتها تشعر أنها كانت في غيبوبة وأفاقت منها على إثر سماعه، فلأول مرة تعلم أنها تخطت الخمسين وما لشاب في عمر أولادها يهيم عشقًا بامرأة مثلها إلا لهدف لا يعلمه إلا سواه، وكذلك من يعملون معه، وما هي إلا فريسة كغيرها من الكثيرات قبلها وقعت في شرك خداعه ونصبه، ومن ناحيتها ليس

من المفترض أن تعلم بنواياه إلا بعد أخذ غرضه منها. سمعت وعلمت من خلال حواره أن الشابة الممددة أمامه ما هي إلا زوجته وأم طفليه، وأنهما يعانيان مثل الآلاف غيرهما من أزمة السكن، وأنهما اتفقا فيما بينهما على الإيقاع بفريسة من إحدى النساء الطاعنات في السن واللواتي تبحث إحداهن عن الحب المفقود الذي لم تجده عند زوج رحل عن الحياة في شبابه أو زوج خانها مع امرأة أخرى، لدرجة أن أمير وزوجته كرّرا محاولاتهما مع نساء عدة، لكنهما فشلا في مرادهما.

كتمت فريدة أنفاسها وتماسكت وقررت أن لا تنفعل، وعزمت على ألا تحدث جلبة وشجارًا يمتد على إثره لأقسام الشرطة فتعلم به وسائل الإعلام، خاصة وأن ابنتيها على أعتاب الزواج.. واحدة من ابن سفير سابق، والثانية من وزير حالٍ، وأنهما على وشك التقدم لخطبتهما بين لحظة وأخرى، وكل ما فعلته أنها أخرجت تنازلها عن الشقة من حقيبة يدها ومزقته بطريقة تسمح لأمير بالانحناء لتجميعه وقراءته.

خرجت متماسكة، لكنها كانت ذليلة منكسرة، وجهها لا يستطيع الشموخ كسابق عهدها، عيناها تأبيان تلقي نظرات الإشفاق من العاملين المصطفين على الجانبين يودون في سؤالها ما الذي حدث بالداخل بينها وبين ضرتها؟ هل ضربها أمير؟ هل طلقها؟ هل.. هل..؟ ولأن الطيور على أشكالها تقع؛ فهم من نوعية وعلى شاكلة أمير يفعلون مثلما يفعل، يوقعون بالسيدات المتصابيات الثريات لعلهم يفوزون بقدر مناسب من ثرواتهن، وخصوصًا أن من بينهم من استطاع بالفعل تحقيق أحلامه من خلال هذه الطريقة، وهم الآن ينعمون في ثراء لا بأس به؛ لذلك يريدون القول لفريدة أرجوكِ لا تذهبي هكذا، وتتركينا في حيرة من أمرنا، نريد التعلم من الأخطاء كي لا نقع فيها مرة أخرى.

* * *

استقلت فريدة سيارتها، وقبل إدارتها للمفتاح في مقود السيارة تذكرت أنها حافية القدمين، فتنهدت والدموع تملأ وجنتيها، وقالت الحمد لله أنني خسرت الحذاء فقط، لكنها تماسكت سريعًا ومسحت دموع عينيها وبعثت له برسالة من تليفونها قالت له فيها:

«أمير، يا من كنت حبيبي، علاقتي بك انتهت للأبد، مزقت ورقة زواجي منك لذا أرجو منك إرسال رسالة تعلمني فيها بأنك مزقت النسخة التي تحتفظ بها، وأنك ألقيت علي يمين الطلاق، وأرجوك أرجوك لا تحاول الاتصال بي لأني لن أعطيك فرصة أخرى للنصب علي، وصدقني لن أسمح لقلبي بأن ينخدع مرةً أخرى، آه.. نسيت أقولك لم أستطع تنفيذ طلبك بالتنازل عن الشقة، ألا تعلم أن حلم حياتك كنت قد تنازلت عنه لك، وكان بيني وبين خطوات لتناله لكن الله أراد أن يكشف لي وجهك القبيح في آخر لحظة، يا قذر يا نصاب».

قرأ أمير الرسالة وكأن ثعباناً لدغه، لطم خديه أمام زوجته والتي حاولت جاهدةً في أن تعرف ما الذي جعله في حالته المزرية هذه! هرول خارجًا فتعثرت قدماه في التنازل الممزق والملقي أرضًا، انحنى ولملمه، قرأه بعد تجميعه فصفع خده وهو يلعن الحظ الذي أتى بزوجته الشابة في هذا اليوم ليكون لديه يقين بأن فريدة سمعت كل كلمة أسر بها إلى زوجته.

كررت عليه زوجته سؤالها، وألحت عليه في الإجابة:

- ماذا حدث ليجعلك تتصرف هكذا؟!

قال لها وهو يلقي في راحة يديها عقد الشقة الممزق:

- فقط علينا أن نبدأ من جديد.

قالت له:

- ماذا تعني؟

قال لها:

- شقة فريدة التي كانت نصب أعيننا ذهبت أدراج الرياح.

وخرجا معًا ليجدا حذاء فريدة ملقًى بجوار الباب، فقال لها والحسرة تأكل قلبه:

- ذهبت فريدة، ولم تترك لنا إلا حذاءها.

* * *

(٢٦)
اتسرقنا يا عمدة

كان الوقت مبكرًا جدًّا عندما دخلت صفية زوجة ريان حظيرة الطيور لتطمئن عليهم، وخصوصًا أنها لم تسمع صوتًا للديك سيد الفراخ، والذي يزعجهم بصوته فجرًا، وصدق ظنها ولم تجده مكانه نافشًا ريشه بين زوجاته الكثيرات متباهيًا بكثرتهن بين باقي أنواع الطيورالأخرى التي تملأ الحظيرة، ذهبت الست صفية حيث يرقد ريان وأفزعته بصراخها، فتصور ريان أن مصيبة كبيرة حلت على البلدة، أو أن مشكلة حدثت بين عائلتين وعليه أن ينهض من فوره لحلها، طلب منها أن تهدأ ليعرف منها ماذا حدث، وذلك من خلال هرولته أمامها يفتح حجرة المضيفة لعله يجد من ينتظره بداخلها:

- اهدي يا صفية، وقولي لي فيه إيه! وإيه اللي حصل؟

وكرر طلبه لها بالهدوء، وهو يفتح باب البيت ليرى إن كان أمر جلل حدث وهز القرية وهو آخر من يعلم، ليجد أن الوقت مازال مبكرًا، والضباب مايزال مكانه لم ينقشع بعد، وبعد فشل كل محاولاته في تهدئتها لم يجد غير صوته العالي ليسكتها به، فتوقفت صفية وأخبرته بأن أعداد الطيور يومًا عن الآخر في نقصان مستمر، فضرب كفًّا بكف وقال لها:

- كل الجلبة والضجة اللي انتي عاملاها دي لأجل خاطر الطيور!، والله لن تبقى فرخة أو أوزة أو بطة في الدار، هما خيارين لا تالت لهم، يا إما تذبحيهم ويا إما تبيعيهم.

فقالت له صفية:

- لو سمعت كلامك وذبحتهم هتبقى عيبة في حق العمدة أن يأتيه زائر ولا يتذوق طعم الزفر في بيته، وإذا سمعت كلامك وبعتهم وعلم الجيران فحتمًا ولابد أن يقولوا العمدة ريان فلس ولا يوجد في بيته مليم أحمر ليصرف على أهل بيته.

فقال لها:

- حيرتيني معاك، إنت عاوزه إيه دلوقتي؟

ترجته أن يدخل معها الحظيرة ليتأكد بنفسه من صدق كلامها، فلم يجد ريان غير الإذعان لزَنّها، وعد معها الطيور التي يرمي لها حبات القمح والأذرة بيده كل طلعة صباح، لا يتناول فطوره إلا بعد تأكده من ابتلاعهم لكل ما ألقاه إليهم، استشاط غضبًا وألقى باللائمة عليها؛ لأنها لم تعلمه بأمر هذا النقصان من أول لحظة علمت فيها بذلك، وأسرع على حجرة ولديه سمعان وخلفان، وهوى عليهما تلطيشًا وهو يسبهم ويقول:

- قوموا يا ولاد الكلب، أبوكم العمدة بتتسرق طيوره وانتم رايحين في سابع نومة، أنا بنضرب على قفاي كل يوم من غير ما اعرف من الذي يضربني، قوم يا واد انت وهو وهِمّوا ورايا.

سأله التوأمان وهما يتخبطان وكأن شيطانًا مسَّهما:

- على فين يابا؟

* * *

خرج ريان من داره يتقدم توأميه ينادي وهما خلفه ما يزال النوم لم

يفارق كيانهما بعد:

- يا ولاد الحلال حرامي بيسرق كل يوم طيور العمدة، واللي يقر عليه له مكافأة كبيرة عندي.

كان موقفًا كوميديًّا ونادرة من نوادره تضاف إلى سجله الملئ بها، كل من صادفه في طريقه في هذا الوقت الباكر يسأله ولا يجد غير هز الرؤوس بلا يا حضرة العمدة، ساقته قدماه وولداه وراءه وقد تمكن منه التعب إلى مكان حراسة حماده ورفاقه الأربعة، لعله يعلم منه باسم الحرامي عندما يحكي لحماده الحكاية من طأطأ لسلام عليكم.

كان حماده ما يزال نائمًا فنادى عليه ريان لكنه لم يسمع ردًّا، وجد باب العشة مفتوحًا فدلف إلى الداخل وبصوت يملؤه الرعشة أمر ولديه بالتقدم ويوقظا عمهما النائم، تلعثم التوأمان وتراجعا خطوات للخلف، وهما يقولان في صوت واحد:

- إنت عارف يابا، لو احنا صحناه من نومه هيضربنا "ووضع كل منهما يده على قفاه يتحسسه" واحنا سبق وجربنا ضربه قبل كده.

وتركاه وحده لائذين بالفرار من المكان.

تلفت ريان حوله وتقدم ببطء، يتخطى رقاب النائمين الخمسة والرعب يتملكه، اقترب من حماده، وهزّ جسده هزًّا وهو يقول:

- اصحى يا حماده، يا حماده اصحى يا حماده، طب اصحى يا حسيب.. يا حسيب اصحى يا حسيب.

علا صوته دون إرادته، فاستيقظ حماده ورفاقه شاهرين أسلحتهم في وجهه، هب حماده واقفًا بعدما تأكد من أنه ليس بشخص معتدٍ، وأمر رفاقه بإشارة من يده أن يخفضوا أسلحتهم، وقال له بصوت أجش:

- في إيه يا ريان؟ اتكلم عاوز مني إيه؟

لم يستطع ريان تمالك نفسه، وهو يرد عليه ويتصنع الضحك في آن واحد:

- أنا قلت اعدي عليك اشوفك عاوز مني حاجة.

رد عليه حماده:

- مش عاوز منك حاجة يا ريان، واتفضل امشي، امشي يا أخي.

- حاضر.. حاضر يا حماده أنا ماشي أهو.

وخرج من العشة منكفئًا على وجهه في كومة من الريش، وقف على حيله وقد أمسك ببعضه يقارنه بريش الديك المختفي منذ ساعات، فتأكد من صدق كلام زوجته ونظر جهة العشة، لكنه آثر الرحيل كما وعد حماده ودون افتعال مشاكل هو في غني عنها؛ لأنه يعلم أنه الخاسر الوحيد في المعركة التي ستدور رحاها بينه وبين حماده إن تجرأ على الرجوع إليه ومواجهته بأنه سارق طيوره، وعاد لزوجته يدعي لها أن ملكًا هبط عليه من السماء وقال له ارجع يا ريان، وأخبر زوجتك أن تناقص طيورك إنما هو خير، خير كثير آتي في الطريق إلى دارك فلا تفكر في البحث عن السارق؛ لأنه لا يوجد لصوص يتجرؤون على دخول دارك لأنها محمية بأمر من ربنا.

* * *

(٢٧)
مفاجأة لم تكن متوقعة

وعلى غير المتوقع، وجدت دعوة موجهة لي من شخصية سيادية للعشاء معه في أحد الفنادق الشهيرة، فقبلت دعوته دون تردد أو تفكير، وفرحة ما بعدها فرحة شملتني حيث سأجلس مع من بيده الموافقة على تنفيذ مشروعي السكني والذي صممت على إنشائه على أرضي الزراعية، حمد إبراهيم سليمون وزير الإسكان بشحمه ولحمه سنجلس أنا وهو سويًّا على ترابيزة واحدة، لكن ما شغلني حقًّا وقتها هو هذا الاهتمام من شخصه للجلوس معي وورق مشروعي كالآلاف من المشاريع مثله على مكتب معاليه تنتظر دورها بالموافقة عليها أم بالرفض، خوف اعتراني وأنا في طريقي لتلبية هذه الدعوة، ولم يكن في ذهني في تلك الدقائق التي سبقت لقائي به سوى هذا السؤال:

هل حقًّا هذا الوزير من الفئة الفاسدة، والذي سيساومني حتمًا على تقديم الهدايا والعطايا المناسبة لمكانته حتى يوافق على إقامة مشروعي السكني؟ أم ماذا يريد مني؟

* * *

وصل الوزير، ووقت وصوله لم أكن مصدقًا أنه هو بشحمه ولحمه، شككتني نفسي وأخبرتني أنه من الممكن أن يكون أرسل شبيهًا له لدواعٍ أمنية، لا أعرف.. فهذا هاجس اعتراني لكني نحيته جانبًا بالسرعة التي احتل تفكيري فيها وأنا أستقبل معاليه بحرارة:

- لا مش معقول معالي سيادة وزير الإسكان بذات نفسه! أنا مش

مصدق نفسي.

رد علي شخص يرافقه تبين لي من خلال تقديم الوزير له بأنه فتحي إبراهيم صاحب شركة الفتوح للاستشارات الهندسية، وهي واحدة من كبريات الشركات العاملة في مجال المقاولات والإسكان، والابتسامة لا تفارق شفتيه:

- أيوه يا سيدي، هو معالي وزير الإسكان بلحمه وشحمه جالس أمام سيادتك.

وضعت أصناف الطعام التي اخترناها أمامنا، كلٌّ حسب ذوقه، فأكلنا حتى شبعنا ولم أشأ قطع حديث الوزير المتخذ في التطرق إلى البوح لي بأسراره العائلية الخاصة ومشاكله المتكررة مع زوجته وأولاده، فتملكتني الحيرة والدهشة من ذلك الشخص الذي قدمه لي بأنه شقيق الزوجة فكيف لشخص مثله يتملكه البرود هكذا، بل أنه يؤمم مبتسمًا مع كل سيئة تطال أخته ولا يدافع عنها فكان من الصعب علي فهم ما يرمي إليه الوزير من كلامه، وظللت أهز رأسي فقط بالإيجاب مرة وبالنفي مرة مداريًا غبائي وجهلي في عدم مقدرتي على مجاراته فيما يقوله؛ لأنها مشاكل زوجية، ومن المفترض أنها أسرارعائلية وليس لي شأن في إبداء رأيي فيها أو سماعها من شخص في مثل مكانته، وقلت بيني وبين نفسي وأنا في أشد حالات الاستياء:

- مالي أنا ومشاكلك الخاصة مع زوجتك وأولادك! فأي بيت لا يخلو من هذه المشاكل.

وبعد انتهائه من حكيه لكل مشاكله مع أسرته الكريمة، وجدته يقول لي:

- إيه رأيك يا مروان بيه، أنا بفكر في الزواج مرة أخرى؟

رددت عليه:

- يا معالي الوزير، هذه أمور عائلية تخص سيادتك، ورأيي ليس له أهمية، ومادام معاليك تريد الزواج فلتتزوج، المهم أنا قررت إقامة مدينة سكنية على أرضي الزراعية، ومعي كل ما يخص المشروع من أوراق من الألف للياء.

قاطعني الوزير:

- مشروعك موافق عليه يا سيدي من غير ما اشوفه أو أطلع عليه، وعشان كده أنا أصريت إن فتحي بيه يكون موجود عشان يقول رأيه، ويجعل موقفي قوي لو جد أمور في الأمور بعد ذلك.

لم أصدق نفسي الأمارة بالسوء التي أكدت لي أن الشخص الجالس معي على مائدة واحدة ليس بوزير الإسكان، بل إنه شخص يشبهه، وجاء متحايلًا علي، وعلي أن أكون واعيًا منذ تلك اللحظة لما سيقوله وما سيطلبه مني، فأنا أعرف وزير الإسكان جيدًا، لم أتشرف بمقابلته من قبل لكني سمعت تصريحاته التي كررها في مناسبات عدة من خلال تأكيده أهمية مواجهة التعدي على الأراضي الزراعية وأهمية الإسراع في الانتهاء من إعداد الأحوزة العمرانية والكردونات للقرى والمدن وتوفير التمويل اللازم للانتهاء منها في أقرب وقت ممكن، والاستفادة من المتخللات والجدوب في القرى الحالية للحفاظ على ما تبقى من أراضٍ زراعية، مشيرًا إلى أن الرؤية المستقبلية للعمران تدعو إلى تبني فكر الأقاليم التخطيطية والإدارية الجديدة، والتي تكفل تحقيق التكامل الاقتصادي بين المحافظات وتدعيم اللامركزية، وخلق محاور جديدة للتنمية طولية وعرضية تكفل إعادة توزيع السكان واستثمار موارد البلد الطبيعية والبشرية.

كلام الوزير هذا الذي قاله في افتتاحه لمشروع ما؛ جعلني في حيرة من أمري ولولا تلك الحراسة الأمنية المرافقة له كظله لكان لي معه تصرف آخر، وليس هو فقط بل ذلك الشخص المدعو فتحي بيه شقيق زوجته، عدت من ذلك الحوار الدائر بيني وبين نفسي على ما كنت أستعد له من عقبات شتى كانت سترغمني على العدول عن تنفيذ مشروعي السكني، ومع أني كنت مصممًا على تنفيذه مهما كانت التحديات والعقبات لرغبة داخلية لدي من خلال نقص داخلي؛ لم يكن ليتركني في حالي وأنا أتخيل نفسي داخل المستقبل الذي كنت أنتويه.. معماري كبير ذائع الصيت والشهرة أينما حل يشار إلي بالبنان.. مروان سليمان مصمم أعظم المشاريع السكنية داخل القطر، بل ويتجاوز بي الخيال من الانتقال المحلي إلى الانتقال العالمي، حلم ذهب سدًى من خلال جبروت أبي الراحل، وها أنا الآن معي كل الإمكانيات المالية لتحقيقه من خلال مشروعي السكني الذي ساهمت بشكل كبير في خروج رسوماته الهندسية للنور، بل لتصل بي الأنانية لنسب كل تلك الرسومات لشخصي بتوقيع اسمي عليها، ولذلك فقد كنت مستعدًّا لكل الاحتمالات ومنها الرفض التام لمشروعي من خلال سلك الطرق القانونية، وبعدها كنت سأنتوي سلك الطرق الأخرى الملتوية والتي يتحقق بها في أي بلد مثل بلدنا النامي أي حلم يراودك تحقيقه، فمن خلال الطرق الملتوية التي كانت ستجبرني حتمًا على الدفع من تحت الترابيزة من رشاوى وتنازلات مالية جمة لا مانع لدي وقتها لدفعها؛ مادام حلمي الخاص سيتحقق على أرض الواقع.

وجدت مضيفي يقول لي بعد موافقة شقيق زوجته الذي قال موجهًا الحديث لشخصه:

- مفيش أي موانع لإقامة مشروع مروان بيه السكني، كل الأوراق سليمة

وكل الطرق التي سلكها قانونية، بس في حاجة مزعلاني منه.

رددت عليه مزدردًا ريقي:

- معاش ولا كان اللي يزعل سيادتك يا فتحي بيه.

أخذ الوزير طرف الحديث، وقال وهو يبتسم:

- متخدش في بالك يا مروان بيه، أصل فتحي بيه كان نفسه يطلع بمصلحة من ورا مشروعك، أقصد يعني كان نفسه مشروعك العظيم دا يكون مر عليه من خلال زيارتك لمكتبه واستشارته فيما كنت ستنتويه.

- واحنا لسه فيها معاليك من باكر أكون منتظر فتحي بيه في مكتبه أفطر وأشرب معاه الشاي كمان، عشان يبقي كلنا عيش وملح ويا بعض، وكل اللي يقول عليه من ملاحظات أنا تحت أمر سيادته فيها.

ضحك الوزير وهو ينظر لفتحي بيه، وقال:

- قصدك تقول تبقوا كلتواعيش وحليتوا بشاي.

ونظر لفتحي وهو يكمل حديثه:

- خلاص يا فتحي، مروان بيه حلها، ياريت بقي ميكونش فيه أي تعليق تاني.

وانتزع أوراقي من بين يديه يقول:

- وإيه رأيك هات الورق أمضيه الآن، المهم رأيك إيه في موضوع زواجي؟

هززت كتفي غير مصدق لما سمعته منه أخبره أني لا أفهم شيئًا من هذا اللغز المحير الذي وضعني فيه رغم فرحتي الشديدة لموافقته بالسهولة التي

لم أكن أتوقعها على مشروعي السكني رغم العراقيل الكثيرة التي كنت أعلم أنها ستقف حائلًا أمام تحقيقه، ووددت القول له:

- والله لو لي أخت ما كنت تأخرت في تزويجها لمعاليك.

وتذكرت والدتي فابتسمت في نفسي، وتساءلت.. هل يريد معالي الوزير الزواج منها! لكني طردت هذه الفكرة سريعًا عندما رددت على نفسي.. وكيف له برؤيتها من أصله وهي لم تطأ عتبة باب البيت، فأردت أن أقضي على حيرتي وأقضي أيضًا على الشك باليقين، فقلت له:

- م الآخر كده، أنا مش فاهم حاجة يا ريت معاليك توضح لي الأمور.

أسند الوزير ظهره على الكرسي، وتعاظم في جلسته وقال لي:

- أحكيلك يا سيدي الحكاية من أولها.

* * *

ودعت معاليه ونسيبه فتحي بيه على وعد مني بالاتصال به في الغد لتحديد موعدٍ له مع يونس لقراءة الفاتحة معه، وباركت له مقدمًا زواجه من نجوى، بعدها انطلقت بسيارتي ونحيتها جانبًا عندما وصلت للكورنيش، نزلت من السيارة وفككت رباطة عنقي، تذكرت والدي وآخر حديث دار بيننا، ترحمت عليه كثيرًا وأسفت على تحديه لي عندما صمم على تزويجي من ناهد أخت نجوى، تنهدت وقلت كأنك كنت تعلم الغيب يا أبي رحمك الله، كنت تمهد لي الطريق لأجل هذه اللحظة، لو قبلت اختيارك وتزوجت من ناهد لكان الوزير منذ تلك اللحظة التي طلب فيها يد نجوى عديلي أي متزوجًا من أخت زوجتي، وضربت جبهتي ببطن يدي ألوم نفسي وأنا أقول، وكذلك مكاسبي المادية كانت ستكون أكثر بكثير، وعدت أترحم على والدي مرة أخرى.

* * *

انطلقت بسيارتي متخذًا طريقي إلى شقة فريدة بعدما اتصلت بيونس وأخبرته أني أريده في أمر هام وضروري لا يحتمل الصبر للصباح، وعليه ألا يستسلم للنوم قبل ذهابي له ومقابلته، فأخبرني أنه ليس بالبلدة وعلي الانتظار شهرًا لمقابلته؛ لأنه في اللحظة التي أهاتفه فيها بجانب ابنتيه.

تنفست الصعداء عندما سمعت منه ذلك، وأخبرته أني على مقربة منه وأنه خلال دقائق سأكون أمامه، فأراد بعدها الاتصال بي لإعلامي بأن أنتظر للغد لمقابلته ووقتها سيترك كل ما في يده من أعمال ومشاغل لمقابلتي، حيث أنه تمنى عودتي وعدم مقابلتي تحت مبرر أن الشقة ليست بالمكان المناسب لمقابلته لي، وأخبرني بقضاء الليلة في أحد الفنادق لكني لم أمهله مواصلة كلامه مغلقًا الهاتف، اتصل بي وكرر المحاولة مرات عديدة وأنا "أكنسل" عليه وما لم أعلمه إلا بعد ذلك منه أنه كان يتوجس خيفة مما كان من الممكن أن يحدث لي كما حدث مع والدي الراحل سليمان من قبل عندما حدثت مشادة عنيفة بينه وبين فريدة والبنتين، وتعدى والدي بضربه لناهد بعد صفعها له على وجهه إلى أن تطور الأمر لقسم الشرطة وتدخل يونس وأخرجه من الحبس بعد شرح الموضوع للضابط المسئول من أن لبسًا حدث؛ حيث أنه ابن عمه وليس بسارق كما ادّعت زوجته وابنتاه.

* * *

نظر يونس لناهد ونجوى الجالستين بجانبه يشاهدان مسرحية من المسرحيات الكوميدية الشهيرة، وقال بعد تفكير وتدبر:

- اسمعا يابنتين، مروان ابن عمكم المرحوم سليمان في الطريق إلينا، وخلال

دقائق سيكون في ضيافتنا، أرجو مرور الليلة على خير.. سامعين.

سمعت ناهد ذكر اسمي فهبت واقفة وكأن ثعبانًا لدغها، ولم تعطِ ردًّا لوالدها، عكس نجوى التي علّقت بكلمة مفهوم يا بابا.

دخلت ناهد مسرعة إلى حجرتها وأغلقتها على نفسها فقد كان الغد وما يحمله من أخبار سارة هو الحياة أو الموت بالنسبة لها، حيث قرر عامر مقابلة والدها وها هي الفرصة التي هيأتها الظروف قد أتت به للمكوث بينهما طيلة شهر بأكمله، ظنت أني آتٍ في الطريق لأحطم ما ظلت تسعى لتحقيقه بالزواج من عامر، وأتاها إحساس بأن والدها هو ما دبر لتلك الزيارة المفاجئة حيث إن أفعاله لا تخفى عليها، ودارت بها الدنيا وهي تحدث نفسها وتقول: ألم يعلم مروان هذا أن والده صُفع من قبل عندما أتى ليطلبني للزواج من ابنه المعتوه الآتي إلينا في الطريق؟ وحدثت نفسها قائلة: نعم إنه الآن رجل أعمال ناجح لكنه لن يصل للمنزلة الرفيعة التي وصل إليها عامر ليسيطر على قلبي هذا غير أن عامر ابن سفير، فما للريفي ابن زارع الأرض من ابن السفير!، فالفارق بينهما بالطبع شاسع كوسع المحيط.

* * *

كانت ناهد تنتظر بفارغ الصبر انتهاء المسرحية وذهاب نجوى للنوم؛ للتحدث مع والدها بشأن عامر وكذبها من أنه رجل أعمال له شركات عديدة بالخارج ولا يأتي للزيارة إلا على فترات متقطعة، أما بسماعها نبأ حضوري فقد انتهى كل ما رتبت له، وعليها منذ تلك اللحظة التصدي بكل قوة لمحاولة والدها المتكررة بين الحين والآخر لزواجها مني كما كانت تعتقد، وتمنت أن تكون والدتها موجودة في هذا الوقت العصيب علها تقف بجانبها كعادتها، وإن لم يذعن والدها لحريتها في اختيار ما تشاء زوجًا لها؛ فإنها ستنتحر في

التوِّ واللحظة.

فتحت شباك حجرتها ونظرت للأسفل فوجدت أن الإقدام على الانتحار فكرة سخيفة بعدما رأت السيارات مارة أمام عينيها فخشيت لو ألقت بنفسها وبعد ارتطام جسدها بالطريق الأسفلتي تأتي السيارات المارة وتخرج أحشاءها وأمعاءها وجميع أعضائها الأخرى وتسويها أرضًا، هذا غير التناثر الذي لن يستطيع أحد لملمته، ناهيك عن دمائها التي حتمًا ستتطاير لتستقر على الحوائط والجدارن القريبة، كل هذا خيله لها عقلها الباطن فطردت على الفور فكرة الانتحار نهائيًّا من مخيلتها، وقالت تحدث نفسها على البحث عن حيلة أخرى أرد بها عقل والدي إلى صوابه، وعلى الفور تذكرت السهولة الشديدة التي أحضرت بها الشرطة عندما أعلمتهم أن لصًّا في الحي الراقي يهدد ساكنيه المسالمين، وذلك عندما دعتهم يوم حضور والدي لطلب يدها لشخصي وأسرعت نحو تليفونها ولم تتردد في الاتصال بالرقم الخاص بشرطة النجدة:

- ألو، أرجوك، واحد حرامي دخل شقتي وقد أغلقت عليه باب الغرفة من الخارج، أرجوك الحقوني بسرعة، أنا في خطر.

أنهت المكالمة بعدما سمعت تأكيدًا من المتحدث معها أن سيارة الدورية في الطريق إليها، تمددت على سريرها وهي مطمئنة لما وصلت إليه من قرار.

لكن القلق احتل كيانها عندما طال انتظارها لوصول شرطة النجدة كما المرة السابقة، وظلت متأهبة خلال الفترة التي انتظرت فيها وصولها، وما زاد من عصبيتها صوتُ القهقهات العالية الصادرة من فم والدها وفمي ونحن جالسين سويًّا، نتذكر بعض المواقف المضحكة لريان.

لم تتمالك ناهد نفسها في ظل عصبيتها التي وصلت لأعلى درجة، فاندفعت خارجة من غرفتها متحدية والدها، ووقفت في مواجهتي وقالت لي بعلو صوتها:

- إنت جيت ليه دلوقتي؟ إنت مش عارف إني مابطقش اشوفك ولا أسمع صوتك؟ إنت مبتفهمش، أنا مبحبكش ولا عمري هحبك، ثم إنت متعرفش إن أنا صفعت المرحوم والدك على وجهه؛ لأنه جلس نفس جلستك ليطلبني للزواج منك؟

ارتفعت يد يونس لأعلى وهوى بها على وجهها صفعًا وتلطيشًا، وأختها نجوى واقفة مذهولة تشاهد ما يحدث من تعدٍّ لم يحدث من قبل من والدها تجاههما، وظلت تبتعد للخلف حتى استقر بها المطاف أن اتخذت ركنًا قصيًّا، وجلست القرفصاء وهي تهن باكية من هول ما رأته من عنف لا تجدي معه شفقة أو رحمة.

وبمجرد سماعي لما قالته في وجهي، تملكتني الصدمة وجعلتني واقفًا كالتمثال، انتقلت إلى عالم آخر أبحث فيه عن والدي وأتخيله واقفًا مكاني أشاهده داخل مشهد صفعه على وجهه من أجل تزويجي من تلك البلهاء المريضة التي لم تعرف بعدُ أني لم أفكر يومًا في ذكراسمها فقط، وليس التفكير فيها لعدم اهتمامي بها ولمعرفتي الشخصية لشخصيتها المريضة التي لم يكن لأحد وده الاقتراب منها والتعلق بها. وتساءلت ألم يصل إلى مسامعها أني عققت والدي وتركت البلدة من أجل ألا أتزوجها!؟ وكل ما أحزنني حقًّا هو إهانتها للمرحوم والدي الذي هو في منزلة والدها، فهذا ما لا أقبله ولا أرتضيه، وأردت في لحظات غضب والدها أن أنهال عليها صفعًا كما يفعل، بل أزيد عليه ركلًا لكن أنين الخوف المتصاعد من جوف أختها المتشبثة بأحد الأركان أعادني

إلى صوابي حتى لا تذهب مصلحتي التي جئت من أجلها هباءً أدراج الرياح، وفجأة أصبحت في حيرة من أمري.. هل أنتقم من عمي وابنته؟ أم أتجاوز باعتدائي ليشمل العائلة بل البلدة بأكملها لأجل ما حدث لوالدي الراحل من إهانة لا تغتفر صدرت من تلك المعتوهة، وتجاوزت بها كل الحدود؟ أم أن علي تنحية الانتقام جانبًا حتى تكتمل باقي خطتي بتزويج نجوى من الوزير لتحقيق حلمي والذي من خلاله ستكون أرباحي تتجاوز الملايين من الجنيهات، وربما المليارات؟!

وسريعًا لم أمهل تفكيري طويلًا، واخترت القرار الأخير الذي فيه مصلحتي، وتقدمت نحو عمي أهدّئ فيه:

- اهدأ يا عمي، خليني أفهمها لماذا أنا هنا الآن؟

وبكلماتي هذه وجدها يونس فرصة للتوقف عن ضرب ناهد التي لم تتخيل أن يأتي يوم ويتخطى معها والدها كل الحدود وأمام من! أمامي أنا.. وأنا من تكرهه.

عاد الهدوء مرة أخرى، واتخذنا نحن الأربعة أماكننا، بل أني صممت على أن تجلس ناهد بجواري، وبدأت أقص عليهم أسباب رحيلي عن البلدة، وأني لم أفكر فيها مطلقًا، ولم.. ولن..، وأني أتيت لسبب أن وزير الإسكان قابلني شخصيًا وفاتحني في موضوع طلب يد نجوى للزواج، بعدها ساد الهدوء، توقفت الأختان عن البكاء، كل واحدة منهن استقبلت الكلام الذي يخصها، وبدأت تفكر فيه مليًا، أما يونس فكان تفكيره ليس بالعميق عندما ظهرت البشاشة والسرور على وجهه، وقال:

- موافق بدون شروط.

وأمال برأسه جهة نجوى الجالسة بجواره، مكملًا كلامه:

- بس الأهم من موافقتي، صاحبة الشأن هي من تقرر لنروح في داهية المرادي.

وأمال بوجهه ناحية ناهد موجهًا سهامه النارية لها، فهي الوحيدة التي فهمت مغزي كلامه وأطال بنظره إليها ولم يعد إلى حالته التي كان عليها من الاعتدال إلا عندما سمع نجوى تقول:

- الرأي رأيك يا بابا، مادمت ترى مصلحتي في هذه الزيجة.

أخذت طرف الحديث من نهاية كلامها قائلًا:

- يعني أفهم من كده إنك موافقة؟

ردت علي بالتأكيد، وهي تجهش بالبكاء هذه المرة:

- نعم موافقة.

نهضت من مكاني وأنا فرح مسرور، أو لعلني أتصنع ذلك، وقلت:

- كده أنا مهمتي انتهت والحمد لله، أستأذنك يا عمي.

أمرني يونس بلهجة آمرة لا تخلو من حدة:

- توقف مكانك يا ولد.

ونظر لناهد نظرات مطولة، لم يبعدها عنها إلا عندما علم أنها فهمت مغزاها.

وقفت ناهد وفي مواجهتي طأطأت رأسها تمسح ما تبقى من دموع عينها، وتكلمت:

- أرجوك يا مروان، سامحني.

وأتت بفعل لا إرادي لم يصدقه أيٌّ من أربعتنا بما فيهم هي، انحنت على قدمي لتقبلهما، فالتقطتها بيدي وأنا أقول:

- سامحتك يا ابنة عمي، إنه الشيطان فقط، يجب علي ألا أسامحه.

قال يونس وقد ارتاحت نفسه لما أسمعت ثلاثتهم تلك الكلمات.

- دعها تقبل قدميك لتنكسر شوكة الكبر بداخلها للأبد.

ولم يقطع باقي حديثه الذي لو امتد لأكثر من هذه الكلمات لجعل ناهد تلقي بنفسها من الشرفة في مواجهتها، والتي كان تفكيرها منذ قليل يوحي إليها بفكرة الانتحار من خلالها، ولم ينقذها مما هي فيه سوى رنين جرس باب الشقة الذي لم يتوقف، فوجدتها ناهد فرصة لن تتكرر أن تبقى لها من عمر بعد ذلك، وهرولت نحو الباب؛ لتعرف من بالخارج، تسبق نجوى التي قالت لها:

- يا ترى مين اللي جاي يزورنا دلوقتي؟

ردت عليها ناهد محاولة خفض صوتها الملئ بالحذر والخوف من أن يسمعها والدها، لكنها لم تفلح وقالت بصوت عالٍ:

- إنها الشرطة.

انقبض قلب يونس، وكذلك قلبي معه، لكنها انقباضات ذهبت سريعًا كما حال دورية الأمن التي أتت وذهبت بعد طمأنة ناهد لهم بأنه لم يكن لصًّا، بل هو ابن العم أتى والعائلة جميعًا، كانت بالخارج فظننته كما ادعيت.

رن جرس الباب مرة أخرى، فنهضت نجوى مسرعة وهي تقول لناهد الدور علي هذه المرة، فأنا أعرف من أتى لزيارتنا الآن، إنها والدتي قطعت رحلتها مع صديقاتها، وعادت لخوفها علينا.

لم يشأ يونس أن يعكر صفو الجو شبه الهادئ والفرحة التي رسمتها على

وجوههم، فكان الهدوء سيده وأنيسه في هذه الجلسة التي لم تزد عن دقائق معدودات، وانتهت باستئذاني مفضلًا أن أبيت باقي ليلتي في الفندق.

ناداني يونس بأن انتظر يا ولد سآتي معك، ونظر مطولًا لفريدة الصامتة منذ عودتها من الخارج، وقال:

- إذًا، علي اللحاق بمروان للمبيت معه في الفندق.

قطعت فريدة صمتها، وقالت له ورأسها مهزومٌ أرضًا لا تقوى على رفعه في مواجهة عينيه الحادتي النظر:

- أرجوك يا يونس لا تتركنا بعد الآن، فإني في حاجة ماسة لأن تكون بجواري أكثر من أي وقت مضى.

* * *

(٢٨)
البحث عن قتلة الشر

اهتزت القرية لمقتل حماده، والذي وجد سابحًا في دمائه مذبوحًا من رقبته في وسط أرضي، لم يعثر على أثر لمساعديه في الحراسة «لبيب- الروبي- جابر- المحروقي» والذين فضلهم حماده على أهالي القرية لمعاونته في عمله، علمنا بعد اختفائهم أنهم كانوا رفقاءه في زنزانة واحدة داخل السجن الذي جمعهم طيلة الفترة التي قضاها حماده بداخله بسبب تعديه بالضرب في مرة من المرات على وكيل النيابة الذي كان يحقق معه في قضية سرقة، ورغم أن الفاعل الحقيقي لعملية السرقة قبض عليه واعترف بكل تفاصيل جريمته إلا أن وكيل النيابة لم يرضخ لتوسلات يونس ووالدي المرحوم وقتها للصلح، وقدم حماده لمحاكمة عاجلة قضت حكمها بسجنه ثلاث سنوات مع الشغل ليكون عبرة لمن تسول له نفسه التعدي على رجال القضاء.

وأثناء تواجد الأربعة بالقرية برفقة حماده، لم يكن لأحد من الأهالي ليطمئن لتصرفاتهم، وتوجه لسان حال الجميع بالحمد والشكر لله لسرعة القبض عليهم ومعرفة سبب قتلهم له، فقد وجد بجوار جثة حماده زجاجات خمر فارغة وشيشة وبعضٌ من المواد المخدرة وأوراق كوتشينة مبعثرة هنا وهناك، وكانت مهمة الشرطة الوحيدة هي العثورعليهم، والتي تشير كل الدلائل والقرائن بأنهم هم الفاعلون.

أما عن دفن جثته فلم يستغرق الأمر غير استخراج التصريح اللازم لذلك

من النيابة، ولم يكن حزن ريان عليه بالقدر الذي أحزنه من معرفة الجميع بمن كان يسرق طيوره في كنف الليل من داخل حظيرته؛ حيث إنه كان سرًّا احتفظ به لنفسه وخاف لو اطلع عليه أحد لكان اللوم عليه شديدًا؛ لأنه العمدة الذي لم يتخذ وقت ذاك أيًّا من الإجراءات ضد السارقين لطيوره وبالأخص حماده الذي وقف في صفه ودعمه ضد يونس ابن عمه، فقد صدمه الجناة الأربعة والذين قبض عليهم سريعًا باعترافهم أمامه بذلك وهم خارجون من مكتب التحقيقات مكبلة أياديهم، لم يكن يعنيهم أمر قتلهم لحماده بقدر ما كان يغمرهم من سعادة عندما رأوا ريان، نادوا عليه أمام الواقفين وقالوا له واحدٌ تلو الآخر:

لبيب:

- والله هتوحشنا طيورك يا عمدة ريان.

الروبي:

- يا ريت متنساش بزيارتين تلاتة قبل الإعدام يا عمدة، فراخ وبط ووز وحمام، وخصوصًا الوز.

جابر:

- ويا ريت تكتر من الرومي، كثر الله من أمثالك.

بينما تأثر المحروقي بكلامهم، وأمسك بتلابيب ريان، والبكاء يكاد يغلب عليه وقال:

- والله يا عمدة لأهرب من سجني إن ما جيتنا بزيارة زفر، وأسرق كل طيورك الحلوة زيك.

تبين من خلال التحقيق معهم أنهم أثناء سرقتهم لأوزتين من حظيرة ريان، واتخاذهم قرار ذبحهما وتنظيفهما كالمعتاد كل ليلة ونتيجة لسكرهم الشديد هذه الليلة قام اثنان منهم وبدلًا من ذبحهم الأوزتين ذبحا حماده.

* * *

أمر يونس ابنته ناهد الاتصال بعامر، والقادم لزيارتهم لخطبتها أن يؤجل زيارته ليوم أو يومين؛ حتى ينتهي وتنتهي القرية من الغمة، والتي طالت الجميع بسبب موت حماده، وبعدها سيكون مهيئًا ومستعدًّا لاستقباله، وبدلًا من سماعه منها كلمة حاضر يا بابا، صرحت له أنها تخفي عن عامر أمر عيشهم في الريف، أو أنهم لا يمتون للريف بصلة من قريب أو بعيد، وزادت على كلامها فما باله لو عرف بنبأ موت حماده رد السجون!؛ فإنه سيذهب بغير رجعة، كتم يونس غضبه وأمسك أعصابه بقدر المستطاع خشية انفلاتها وحينها تكون العواقب أشد وخمًا من الليلة التي صفعها فيها على وجهها، تدخلت بينهما فريدة، وأخبرته أن يذهب لمصالحه، وستقوم هي بدورها على أكمل وجه، وبذلك ابتسم الحظ لعامر، وانتهت مقابلة الأسرة له "فريدة وابنتيها" بإعلان خطوبته رسميًّا لناهد، وتحديد موعدٍ للزفاف في أقرب فرصة مناسبة.

* * *

(٢٩)
إحنا اتنين يا صاحبي، مش واحد

نظرات متبادلة بيني وبين محمود نحن الصديقان اللذان لم نعد صديقين كما كنا كسابق عهدنا، لم يكن تأثرنا بموت حماده بقدر تأثرنا بتلويث المكان الذي قضينا فيه أحلى أيام حياتنا بدمائه، فتحت شجرة الجميز الكبيرة خلا المكان منها بقطعها، ولم يعد ما يستر جلستنا كما الأمس القريب، وتحسرنا على ماضينا تحت ظلها حيث كانت تسترنا من حرارة شمس الصيف القائظة، وفي الشتاء تمنع زخات الأمطار من مجرد التفكير في غمر أسفلها حيث جلستنا ولا حتى رياح الخريف التي كانت تكاد تقتلع الأوتاد والجذور من شدة هيجانها فتأتي عندها وترجع القهقرى معلنة هزيمتها أمام عنفوانها وشبابها وحيويتها التي كانت تتصف بها رغم تخطي عمرها لقرنين من الزمان ولا حتى الربيع الذي كان يأتي محملًا بالفراشات والنحلات الباحثات عن الرحيق وسط الأشجار المتكاثرة الزهور والورود، فتنتقم أشد الانتقام ممن يحاول الوقوف في طريق عودتها لإنتاج العسل فوق أحد أغصانها الوارفة، فترانا النحلات وقد ألفوا جلستنا واعتادوا على رؤيتنا تحت ظلها، فلا يفكرون في الاقتراب منا ومهاجمتنا إكرامًا لتلك الجميزة، كل هذه الأحداث المتكررة في مواسم العام الأربعة رأيناها بأعيننا وسجلتها أدمغتنا وسمعتها آذاننا وتبسمت لها شفاهنا وتسابقت أقدامنا خلف بعضنا البعض في شكل دائري، ماتت الشجرة فمات كل شيء كان جميلًا، قطعها حماده بعد تحديه لرفقائه الملعونين الأربعة في ليلة ظلماء عزموا على الدخول في تحدٍّ فيما بينهم على قطعها، ومن يحِنْ دوره في قطع آخر شريان يمدها بالحياة يفز بتموين ليلته من

المخدرات التي كانت تكفيهم جميعًا.

اقتربت من محمود وربتّ على كتفه، وقلت له:

- إيدك في إيدي يا صاحبي نكمل المشوار.
- مشوار إيه يا صاحبي!؟
- مشروع حلمنا.
- قصدك حلمك انت لوحدك.
- وأنا وانت إيه يا محمود؟
- إوعى تقول واحد يا مروان، إحنا اثنين، إحنا إيه؟
- الخير هيعم على الكل يا محمود، خلاص الوزير وافق على المشروع، وخلال أيام هنبتدي العمل.
- مشروعك هيجرعلينا الخراب، ومش هنلاقي ناكل، سامع مش هنلاقي ناكل، مصر كلها بسبب مشروعك هتشحت يا مروان،

الغلابة مش هيلاقوا ياكلوا بسببك وبسبب أمثالك اللي بيفكروا زيك، يرضيك نمد إيدينا للعالم من حولنا ونشحت، دا غير إن العالم دا نفسه مش لاقي ياكل من أصله، أرضنا تحت إيدينا وبنفرط فيها يا صاحبي، علشان إيه.. مكعبات من الأسمنت نموت زرعتنا، الصحرا واسعة يا صاحبي، اختار أي مكان فيها وأنا معاك، وكل الغلابة معاك هنساعدك لحد ما تنفذ مشروعك اللي ياما رسمته على الورق وكنت بتحلم بتحقيقه، آسف يا صاحبي المكان ما عدش يساعنا وانت معانا، يا انت ترحل يا إحنا نرحل، وآسف يا صاحبي.. إحنا عمرنا ما هنرحل.

- اتكلم عن نفسك يا محمود، وملكش دعوة بغيرك.

رحل محمود وتركني وحيدًا أتأمل الأرض من حولي لعلني أتذكر زرعها الأخضر الذي كان ينتشر في كل شبر منها، ناديت بأعلى صوتي بعدما اختفى محمود وأصبح نقطة صغيرة بالكاد تراها عيني:

- هذه أرضي يا محمود، وسأفعل فيها ما أشاء، حلم حياتي سأحققه هنا، سأبني مدينتي الخاصة، سأشيدها، سأحيطها بسور عالٍ، ولن يستطيع أحد منكم الاقتراب منها ومني، أنتم طماعون وأنت أولهم يا محمود، تريدون أن ترثوني وأنا حي بينكم، لن أرحل للصحراء يا محمود كما تريد أن تقنعني، ارحلوا أنتم للصحراء وعمروها، مدوا أيديكم للحكومة فهي الأولى بالإقناع وليس أنا، اقنعوها أن تتركها لكم أيها الغلابة بدلًا من إغاظتكم واعطائها عيني عينك للمستثمرين الحيتان الذين لا يهمهم سوى مص دمائكم، سامعني يا محمود الحكومة هي الأولى بالإقناع وليس أنا، فهي من جعلتكم جياعًا وليس أنا، هي المسئولة عن كل نبتة تقطع من جذورها ليقام مكانها العشوائيات المنتشرة في كل ربوع مصر، حاسبوا الحكومة والمسئولين يا محمود قبل أن تحاسبوني.

* * *

(٣٠)
أرجوك خليك جانبي، ومتتخلاش عني

حان وقت تحرر قيد التوأم ياسر ووليد بأمر من والدتهما بعد مشاورات وشد وجذب مع يونس، فإقناع يونس بالموافقة على أمر كهذا ليس بالهين، لكن ونظرًا للارتباطين المفاجئين لناهد ونجوى وما يتمتع بهما خطيبيهما من مناصب وثروة طائلة جعلته يرضخ لطلبها، بل ويذهب معها أيضًا للمصحة، لكنه عند وصوله فضل انتظارهم في السيارة لحين خروج ثلاثتهم معًا من باب المصحة، وكان شرطه وهو ذاهب معها ألا يمضي على قرار استلامهما، وألا يكون المسئول والمتعهد برعايتهما وإبعادهما عن طريق الإدمان اللذين كانا سائرين فيه قبل دخولهما المصحة، حيث برر لها كلامه هذا بأن ما وصلا إليه فضل يرجع إليها؛ حيث إنها لم تعطه الفرصة للتدخل في تربيتهما، فما كان من فريدة إلا بموافقته على كل ما قاله، وقالت له والندم بادٍ على وجهها:

- ما عدت صغيرة يا زوجي السابق، فوالدتي لم تحسن تربيتي وأنا صغيرة، لكن الزمن كان كفيلًا بما لم تستطيعه، وعلمني كيف أحافظ على أولادي وعلى..

لكنها لم تكمل وصمتت.

أكمل يونس باقي جملتها قائلًا:

- وعلى زوجك، لكن أين زوجك! يا خسارة يا فريدة، أفقتِ من غفلتك في الوقت الضائع.

لم يشأ أن يزيد من عمق جرحها الغائر، والذي مازالت آثار نزفه واضحة عليها أمامه مهزومة مقهورة، لا تستطيع بعدُ رفع عينيها في وجهه، وتمنى أن يقول لها أصابك الغرور وأنت في أحضان شاب من عمر أولادك، أفقتِ على الحقيقة المرة من أنك كنت مجرد سلمٍ كان يريد من خلاله الوصول إلى الشقة الوحيدة الباقية من رائحة والديك الراحلين.

* * *

انطلقت سيارة فريدة آخذة طريقها إلى المصحة، وعلى مقربة منها ركنتها خلف صف طويل من السيارات الفارهة التي يعرف من يعمل داخل المصحة من أطباء وممرضين وممرضات وعاملين وعاملات من أنها ملك لأولياء أمور كثيرين من الشباب المدمنين والممتلئة بهم المصحة.

تمنت فريدة أن يغير يونس قراره، وينزل معها لاستلام ولديه لرفع معنوياتهما ويجعل لديهما إحساس أنه رضي عنهما وعفا عن تصرفاتهما، لكنها تعلم أن القرار الذي يتخذه يونس لا رجعة فيه.

وبعد مرور فترة ليست بالقصيرة، أحس يونس بالملل وهو داخل السيارة منتظرًا بفارغ الصبر رؤية ولديه آملًا أن يهلا عليه وهما في كامل صحتهما وحيوتهما كباقي شباب القرية العفي، ويأليته تركهما مع هؤلاء الشباب منذ أن وعيا على الدنيا في الحواري والأزقة والشوارع وعلى حوافّ الترع يلعبون ويمرحون ويمتطون ظهور الدواب، بل ويستحمون في مياه تلك الترع كما كان يفعل وهو صغير، وقال وهو يذرف زفرة التحسر والندم على ما وصل إليه حالهما.. ليتني أطلقت سراحهما منذ طفولتهما من ذلك السجن اللعين المسمى قصرًا، وتركتهما يمسكا فأسًا ويتعلما الفلاحة مثل أبيهم الذي لن يفعل المستحيل كي يغير مهنة

آبائه وأجداده أو ليتهما أصيبا بالبلهارسيا البغيضة فهي أفضل مائة مرة من إدمان المخدرات اللعينة التي جعلتهما كمسخيْن لم يعد يهمهما في تلك الدنيا سوى أخذ الجرعة في الوقت المناسب، وإلا... وذرف مرة أخرى زفرة مريرة تحسرًا على ما آل إليه حالهما، ولم يجد غير تليفونه ليفرغ فيه باقي شحنة الغضب والملل اللذين سيطرا عليه، اتصل بخليل البواب وسأله إن كان أحد سأل عليه وهو غائب؟ وأجرى حوارًا قصيرًا مع ريان المتابع أولًا بأول لتحقيقات النيابة وما توصلت إليه من نتائج بشأن اعترافات قتلة حماده، واتصالًا آخر أجراه بمخيمر اطمأن فيه على صحته التي بدأت في التدهور بعد حمل نعمات منه للمرة الثانية ومباشرتها لحانوته بعد تخلي أولاده الكبارعنه كعادتهم منذ مرض والدتهم، بل واختفاؤهم من حياته تمامًا منذ زواجه بنعمات.

* * *

الوقت يمر، والملل يطبق على أنفاس يونس، وهو ما يزال جالسًا داخل السيارة وحيدًا، ورغم الاتصالات العديدة التي أجراها لكنها لم تفلح في إزاحة ما يجثم على صدره من هموم وقهر بسبب ما آل إليه حال ولديه التوأم ولو بنسبة ضئيلة.

سمع رنين تليفون متصاعد بجواره، فعلم من أول وهلة أنه يخص فريدة والتي بالتأكيد نسيته، حاول بقدر الإمكان ألا ينساق للتطفل بشأن خصوصياتها، فهي الآن مجرد أم لأولاده، وكانت زوجته في يوم من الأيام، فهو يعرف عجرفتها الزائدة عن الحد إن أصر على حشر أنفه في اختيار- مثلًا- ثيابها أو مداعبته لها وهي تخبره أنها ستشتري سيارة خاصة بها وحدها، فيقول لها اللون الأصفر الأفضل لسيارتك الجديدة فتصده بقولها.. لا داعي لأن تحشر أنفك فيما لا يعنيك، مع أنها تشتري نفس السيارة التي أشار عليها بنفس لونها

الأصفر الذي أشار به عليها، وهكذا من الأمور الكثيرة التافهة التي لا يقتضي الأمر فيها غير قول حاضر أو طيب أو سمعًا وطاعة، لكنها لا تفعل ما تفعله معه إلا للعناد ليس إلا، صدع رنين تليفونها رأسه، لا يكاد المتصل تنتهي رناته بعدم الرد إلا ويقوم بإعادة المحاولة مرة أخرى، المتصل أو المتصلة مصر أن ترد عليه فريدة، وفريدة ليست موجودة، هكذا حدّث يونس نفسه الأمارة بالسوء التي شجعته بالإقدام على خطوة لن يجني من ورائها إلا سماع كلام غير لائق من أم أولاده، وأكمل يقول:

- مفيش فايدة لازم أرد، وإعلام من تتصل بها أنها ليست بموجودة، وعليها أن تعاود الاتصال بها في وقت لاحق.

اتخذ قرار الرد بعد معاناة، قطع صوت الرنين المزعج، وفتح على المتصلة كما يظن، وقبل رده عليها بألو وجد صوتًا ذكوريًّا من الجانب الآخر لم يمهله لقول ذلك، فقد ظن المتصل أن فريدة التي قررت أخيرًا أن ترد عليه.

كانت نبرة المتصل لا تخلو من التهديد والوعيد لفريدة إن لم تتنازل عن الشقة أو دفع ثمنها مقابل تمزيق ورقة الزواج العرفي، وإلا فضحها أمام زوج ابنتها المنتظر "عامر" ابن السفير، وسمع يونس المتصل يمهل فريدة يومين، وإلا فلن يتردد عن تنفيذ تهديده ووعيده.

عرف يونس بعد انتهاء المتصل من إسماعه تهديداته لماذا طلبت فريدة منه لأول مرة في حياتها وهي تترجاه أن يبقى بجانبها وألا يتخلى عنها لأجل مستقبل أولادهم وليس من أجلها هي، وتأكد أن الخطر الذي يحيق بها إنما يهدد الأسرة بكاملها، لذا فقد اتخذ قرارًا لا يحتمل التأجيل، وهو القيام بدور رب الأسرة الحقيقي.

اتصل من فوره بي، وقال لي:

- مروان يا ابن اخويا، الأسرة في ورطة كبيرة، ومحتاج لك لتقف بجانبي.

انزعجت بشدة لقوله هذا، وقلت له:

- خير يا عمي! في حاجة؟

- لما نتقابل هتعرف كل شيء.

- أي وقت تحبه أنا تحت أمرك، ولو عاوزني أجيلك دلوقتي طيران؛ هتلاقيني جنبك في شدتك.

- ودا اللي أنا منتظر أسمعه من مروان ابن اخويا المرحوم سليمان، أنا ف انتظارك تمر علي في شقة الأولاد.

- حاضر يا عمي، ساعة بالكتير واكون عندك.

- في رعاية الله، مع السلامة.

* * *

وصلت فريدة برفقة التوأم، وانطلقت السيارة متخذة طريق العودة للمنزل، وهناك انتحى بها يونس بعيدًا عن الأولاد لعدم إزعاجهم بمشكلاتها الخاصة، وسألها عن تهديدات أمير لها، فأخبرته فريدة بكل شيء منذ ارتباطها به، ظل صامتًا يسمع لها إلى أن قالت له هذا كل شيء كان بيني وبين أمير قصصته عليك، فلم يطلب منها يونس إلا عنوان إقامة أمير وعنوان عمله، ووعدها وهو يهم بالرحيل:

- ورقة زواجك العرفي منه ستكون بين يديك غدًا، تفعلين بها ما تشائين، وإن كنت تريدينه يسمّعك كلمة طالق من فمه سأسمعك صوته، وهو يقول ذلك، لكن لي شرط وحيد.

- أنا تحت أمرك، كل اللي هتقول عليه هنفذه، ولو كنت عاوز أبوس رجليك أنا موافقة.

* * *

لم يكن الغد ببعيد، ولم يكن وعد يونس لفريدة ليخلفه، دُمرت محتويات شقة أمير الساكن فيها بالإيجار من قبل رجال كلفوا بهذه المهمة بعثت بهم، وأوصيتهم أن يقوموا باللازم معه، حتى عقد إيجارشقته المقيم فيها أهدوه لصاحب الشقة المغلوب على أمره لعدم أخذه حق ولا باطل معه، حيث كان يبلطج عليه ولا يدفع له الإيجار، وكل هذا تحت بند أمامك المحاكم خليها تنفعك وتطردني، أخرجت زوجته الشابة عقد الزواج العرفي من بين نهديها لما رأت قوة زوجها تخور أمام كثرة المعتدين عليه، وعند مغادرته له نبه عليه يونس ألا يفكر مجرد التفكير في التعرض لفريدة أو لأولاده بسوء، وإلا سيكون آخر يوم في حياته، ولم يكتفِ بالتنبيه عليه فقط، بل زاد على ما فعله به بأن طلب مني هاتفيًّا إغلاق الجمانيزيوم، والذي من خلاله يمارس أمير مهام عمله في النصب والاحتيال على النساء من شاكلة فريدة، وبدوري لم أكذب خبرًا ونفذت له ما أراد.

* * *

(٣١)
النبش في الماضي

أصبحت العلاقة شبه رسمية بين الوزير ونجوى بعد خطبتهما من خلال حفلة صغيرة اقتصرت على أسرة يونس، وبحضوري فقط من خارجها.

تخلى الوزير عن وقاره الذي يتحلى به منصبه، وبدأ يظهر معها في الأماكن العامة، لم يأبه لنصائح الحراسة الأمنية خوفًا عليه من أي مخاطر تهدد حياته، وامتد الأمر لنصح أغلب رفقائه في العمل من الوزراء من أن أفعاله الطائشة والمتسمة بالرعونة بدأت تثير استياء رئيس الحكومة، وعليه أن يحاذر وإلا فإنه من المحتمل أن يجد نفسه خارج الوزراة بين ليلة وضحاها، هذا غير وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية والتي راحت تشن عليه حملة شعواء لظهوره بهذه الطريقة الشاذة في قاعدتها على مجتمعنا الشرقي المحافظ، والتي لا تحدث إلا في دول العالم الرأسمالي، ودون مراعاته لمشاعر الشباب العاطلين عن العمل والذين لا يجدون ما يعينهم على الزواج في ظل ما يمر به الوطن من جرّاء الأزمات الاقتصادية المتوالية الطاحنة التي يشهدها العالم أجمع بين فترة وأخرى، وبالتالي تؤثر على اقتصادنا التابع، هذا إن لم تكن تلك الأزمات بفعل فاعل كي لا نتمكن من النهوض من غفوتنا وتخلفنا وجهلنا، وأظن أنه سيظل أبد الآبدين حتى تأتي العدالة الإلهية وتعدل ميزان القُوى الذي ما تزال كفتاه تميل ناحية الجانب الظالم والباغي والناهب لثرواتنا شئنا أم أبينا.

وبسبب ما تجرأ الوزير على فعله من الوضوح علانية مع نجوى دون مراعاة لمشاعر العامة من المطحونين والغلابة، فلأول مرة تتعرض الصحف والمجلات- خاصة الصفراء منها- لحياة أسرة يونس الخاصة والتي كانت قد بدأت تعرف طريقها للاستقرار، فقد شفي التوأمان ياسر ووليد، وقررا عدم العودة لطريق الإدمان والانحراف مرة أخرى، وعاهدا الوالدين على استكمال دراستهما الجامعية بعد نجاحي في استصدار قرار بعودتهما مرة أخرى للسنة الدراسية التي فصلا أثناء امتحاناتها، والوالدان يونس وفريدة من جهتهما اتفقا على الزواج مرة أخرى، وذلك لأجل لم شمل الأسرة التي كانت في طريقها للانزلاق للمجهول، ورغم ما راحا يبذلانه في ذلك الطريق إلا أنهما اصطدما ببعض الصحفيين الراغبين في الشهرة واعتلاء السلم الوظيفي يطاردون الأسرة، وينبشون في الماضي الخاص بالعائلة، فكل شيء عن حياتهم فتشوا فيه من بحث وتنقيب، وراحوا يكتبون عن كل شيء لم يكن الزوجان يتخيلانه أن تلوكه ألسنة المحروسة بأكملها، وبالتالي كانت الفضائح أكثر بكثير مما يتوقع أفراد العائلة أنفسهم، فمعظم أسرارهم كشفت من خلال ريان الذي أصبح بين يوم وليلة الضيف الأشهر للعديد من البرامج الحوارية، ينتقل من برنامج لبرنامج، يتكلم ويتحدث عن يونس لا يرتجي شيئًا مما يفعله سوى تشويه سمعته لاعتلاء مكانة كبير العائلة، بل وازداد ضراوة في الهجوم عليه لدرجة اتهامه علنًا أنه القاتل الحقيقي لحماده نظرًا للخلافات المتكررة بينهما بسبب الميراث الذي ادعى أنه أعطاه له، وهذا كذب وافتراء مؤكدًا أن القرية بأكملها تشهد على كلامه إن كان صادقًا أم كاذبًا، ورغم كل ذلك التشويه التي نالته أسرة يونس لم يتراجع الوزير عن فكرة الزواج من نجوى، بل إنه زاد من تصميمه للارتباط بها.

الشيء الوحيد الذي لم تكتب عنه الصحافة هو عامر، فقد اختفى بمجرد تناول الصحف لسيرة حياة الأسرة والبحث عن أسرارها والتفتيش في دفاترها سواء القديمة أم الجديدة، فمن ناحية عامر خاف من انكشاف أمره، فتقوقع على نفسه وعاد لممارسة هوايته المفضلة بالتجول بمنظاره داخل حجرة ناهد يتألم، لكنه رغم ذلك كان راضيًا أن يراها وحده من بعيد دون أن تراه، راضيًا أن يكلمها وحده من خلال منظاره دون أن تتحدث معه.

وارتضى رغم معاناته أن يقول لها كلمة أحبك دون أن تسمعه، والتي كررها على مسامعها مئات المرات وهو جالس معها.

لم يكن ليفعل ذلك إلا لخوفه من اكتشاف أمره؛ حيث أنه شعر بالذنب في حقها وأنها لا تستحق كل ما فعله بها.

لكن على الجانب الآخر، لم ترضَ ناهد بما فعله بها عامر من ابتعاده المفاجئ حيث جعلها ذلك الابتعاد في حالة مزاجية سيئة، فقد دبت الغيرة في قلبها وبدأت تفتعل المشاجرات بينها وبين أختها نجوى بسبب ودون سبب، واتهمتها صراحة بأنها السبب في هروب عامر واختفائه المفاجئ بسبب ما تكتبه الصحف والمجلات يوميًّا عنها وعن الوزير، وزادت من اتهامها بأن الأسرة كلها لم تسلم من ذلك الهجوم الضاري بسبب تعلقه بها، ولم يهدأ لها بال ودأبت في البحث عن عامر في كل مكان تواجدا فيه سويًّا أو غيره من الاماكن المشابهة، والتي ظنت أنه بدأ يتردد عليها، كاد يجن جنونها وسألت عنه كل من يعلم بعلاقتهما، ورجت العاملين وهي تذرف الدموع أمامهم إن عرفوا عنه أي شيء فليخبروها على الفور. ومع مرور الوقت، بدأت حالتها النفسية تزداد سوءًا، وبدأت عصبيتها تزداد وتيرتها، وتجنبًا لافتعالها المشاجرات معها لم يكن في وسع أختها نجوى أن تفعل لها شيئًا سوى تعهدها لها بأن تسخر

كل إمكاناتها للبحث عن عامر حبيب القلب، بل والاعتذار له ولن تتركه إلا بسحبه من يده والوقوف به بين يديها، واتصلت بخطيبها الوزير وترجته أن يعمل ما في وسعه للعثور على عامر، والذي اختفى فجأة دون أن يعلمهم أي شيء عن حقيقة غيابه التي طالت، طمأنها الوزير وقال لها هذا طلب بسيط وفي غاية السهولة، فمن خلال البحث عن أسماء السفراء السابقين بل ومن مازالوا مستمرين في مناصبهم وعناوينهم أيضًا؛ سيعلمهم بمكان إقامته، يومين فقط أو ثلاثة سيقدم للأسرة تقريرًا كاملًا عنه فيه: عنوانه، وحياته بالتفصيل الممل، وأبدا لها دهشته من عدم تحريهم عنه أو معرفة اسمه بالتفصيل، فأخبرته نجوى أن ناهد صعبة المراس، ولا تدع أحدًا يتدخل في شئونها الخاصة، وأخبرته أنها ووالدتها رأوه فقط يوم خطبته لناهد ولم يروه بعد ذلك، وأن والدها لم يتشرف بمعرفته أو لقائه لظروف خارجة عن إرادته في ذلك الوقت.

وقبل المدة المحددة من قبل الوزير من وعده لنجوى بالبحث والتحري عن عامر، زار العائلة واجتمع بأعضائها- بمن فيهم يونس- وأخبرهم عن نتيجة التحريات والبحث الذي وصله من بعض الزملاء الموثوق فيهم، أطلعهم على الحقيقة المرة التي لم تصدقها ناهد بأنه لا يوجد في تاريخ الدولة بأكملها سفير سابق أو حالي من عائلة اسمها السمالوطي، ولا يوجد ابن لسفير سابق أو حالي اسمه عامر، فلم تصدقه ناهد فيما يزعم وأخبرتهم- وهي ذاهبة إلى حجرتها- أنها لن تيأس من البحث عنه، وستعثر عليه حتمًا، ولو وصل الأمر لحد الزواج منه سرًّا ستتزوجه؛ لأنها تشك في أن معالي الوزير له يد في اختفاء خطيبها وتشك أيضًا تعمده في إخفاء المعلومات الحقيقية التي تؤكد أنه ابن لسفير سابق، وخلال هذا التصميم من جانبها جلس معها يونس منفردين محاولًا بشتى الطرق إقناعها بأن الوزير ليس له يد في اختفاء خطيبها، وأن بالعقل والتروي والتفكير عليها تدارك الأمور وعدم رمي الناس بالباطل؛ لأن الاثنين

الوزير وعامر لم يسبق لهما أن التقيا من قبل، فمن أين لها بهذه الهواجس والأوهام والتي ليس لها أساس من الصحة!.

* * *

لم أسلم أنا الآخر من هجومها الحاد، والذي طاله شخص الوزير، وكذلك لم أسلم من هجوم محمود والذي لم يكن ليتركني لحالي أنفذ ما يحلو لي من تجاوزات تضر بمصلحة البلاد العليا- كما يزعم- فشنّ حملة عنيفة على المشروع الإسكاني الذي حلمت بإقامته في القرية، والذي سيجعلها قطعة من أوروبا، ففي كل مناسبة يخطب في الناس وتحديدًا بعد الانتهاء من صلاة الجمعة، وزاد من شن حملاته علي بأن بدأ يتواجد في الأفراح والمآتم يوعي الناس بخطورة ما أنا مقدم على تنفيذه، ينبههم:

- يا ناس، يا بشر، لن تجدوا أرضًا تزرعونها بعد ذلك، فخلال بضع سنوات قادمة وبتلك الوتيرة التي تنتهك فيها حرمة الأراضي الزراعية بتجريفها وإقامة مبانٍ سكنية عليها؛ لن تجدوا ما تطعمون به أولادكم، وصدقوني ستظلمونهم وستظلمون الأجيال القادمة، انظروا للمساحة المنزرعة داخل قطركم وقارنوها بأعدادكم الرهيبة المتزايدة كل عام عن الآخر بما يزيد عن مليوني نسمة ستجدون أنكم داخلون على نفق مظلم نهايته الجوع والقحط والخراب، يا عالم يا هووه، فوقوا بقى بسكوتكم على الظالم مش بتدمروا قريتكم بس! دا انتم بتدمروا بلدكم الطيبة مصر، اللي والله لحد دلوقت شيلاكم على اكتافها بتطبطب عليكم بتاخدكم في حضنها، رغم نهشكم في لحمها وتحويلها من أكبر سلة من سلال غلات العالم إلى أفقر وأذل خلق الله، والله لو مفقتوش وبطلتوا تنهشوا في لحمها- الأرض الزراعية- لتكونوا خلال سنين قليلة بتحللوا أكل لحم بعضكم البعض زي ما حصل قبل كده أيام الفاطميين، مصر موجوعة يا ولاد، بتئن من بلاويكم بتقولكم

فسادكم زاد عن الحد، واللي بيزيد عن الحد بينقلب للضد، وهو دا اللي الغرب عاوزه، وبيسعي له من زمان الزمن، ليه بقى عشان يكون اعتمادنا عليه كليًّا، وسي مروان بيه بيقلده وبيحول أرضه هو الآخر لمباني خراسانية، وبعده العمدة ريان وهلمّ جرّا، حتى يأتي الدور على مساكنكم ستضطرون تحت تهديدهم لكم بتركها وأنتم تعلمون أن أغلبكم لا يمتلكها، فأرضها كانت هدية لآبائكم متزينة بعقود إيجار.. من أهم بنوده يحق لهم طردكم في أي وقت شاءوا هم، وستطردون إنتم شئتم أم أبيتم، يا ريت تقرأوا في تاريخ بلدكم، وتعرفوا إن مصر منذ فترة ليست بالبعيدة كانت تصدر الفائض منها من المنتجات الزراعية للخارج، وقارنوا كل ذلك بما وصلت إليه البلاد الآن من استيراد معظم السلع الغذائية الأساسية، والتي يعتمد عليها الناس في طعامهم وأولها القمح والأرز، وربط كل هذا بانحسار الرقعة الزراعية بالبناء عليها.

وفي نهاية توعيته لهم، استحثهم بأن يقفوا معه ليعملوا على عدم إقامة ذلك المشروع المزمع إقامته على شريان حياتهم وداخل نطاق زمامهم، ويخبروا صاحبه مروان- اللي هو أنا- أن أختار مكانًا بعيدًا، والأولى بهذا المكان الصحراء الفسيحة لأبني عليها مشروعي، ومن أنهم على استعداد تام للوقوف معي يدعموني بكل ما أوتوا، وإن اضطررتهم للعمل عندي بدون أجر شريطة ترك أرضي تعود كسابق عهدها للإنتاج الزراعي بكافة أشكاله وأنواعه من مختلف المحاصيل، فهم موافقون.

* * *

بدأ الناس يلتفون حول محمود ويدعمونه، خصوصًا المعدمون منهم، أما ذوو الأملاك فبدأوا يعملون ضده والوقوف في صفي، يؤلبون العاملين لديهم ويتهمونه بالجنون لمصلحتهم أولًا وأخيرًا؛ فأرضهم سترتفع ثمنها بدخولها زمام

المباني التي لم يكونوا يحلمون يومًا- وهي البعيدة كل حتى لو تعاقبت الاجيال وراء الأجيال فلن تكون اراضيهم داخل حزام المباني لولا مشروعي والذي به فتحت طاقة القدر لهم من خلاله، فباتوا ينتظرون بفارغ الصبر وضع أول طوبة بناء في أرضي الميتة؛ ليعلنوا بدورهم عن موت أراضيهم للأبد.

وصلتني أخبار ازدياد نشاط محمود الملحوظ من سعيه الدؤوب لإفشال مشروعي وبشتى الطرق، ورغم ذلك لم أكن أبالي بما يقوله أو يشنه علي، ولم ألقِ أيضًا بالًا لما يصفني به ما دامت موافقة الوزير المختص على إقامة المشروع السكني قد تمت، فكل ما كان يفعله محمود لا يعني شيئًا أمام هذه الموافقة إذ كان مبرري الوحيد أن لا شيء يقف أمام الحكومة وتطلعاتها المستقبلية، وأنها مادامت اتخذت قرارًا فلابد من تنفيذه، وبكل ثقة استهللت حملة إعلانية ضخمة في الوسائل الإعلامية بكافة أشكالها وأنواعها... (قطعة من أوروبا- مدينة مروان السكنية المتكاملة المقامة على مائة وخمسين فدانًا، سكن يناسب جميع الطبقات، فيلات- شقق بمساحات كبيرة ومتوسطة وصغيرة، الكل سيجد ما يعادل إمكاناته ودخله الشهري وفي داخل الريف حيث النقاء والصفاء والجو البديع بعيدًا عن الزحام والضوضاء والثلوث السمعي والبصري بكافة أشكاله وأنواعه، قيسوا المسافة في لا تبعد عن العاصمة سوى ساعة من الزمن حيث السيد البدوي سيكون بالقرب منكم يدعو لكم ويبارك خطواتكم، ويتمنى لكم حياة سعيدة هانئة بعيدًا عن أية مشاكل تواجهونها في العاصمة، هيا تقدموا وبسرعة لحجز وحداتكم السكنية).

وبقدر ما كانت والدتي حزينة لما آلت إليه علاقتي من سوء يزداد يومًا بعد الآخر مع الأهالي إلا أنها لم تسعها الفرحة وهي تري إعلانات مشروعي السكني، وشاركتها فرحتها خالتي امتثال وابنتها سلوى رغم معارضة جمالات

الشغالة، وقول رأيها بكل صراحة عندما طلبت منها والدتي ذلك، وأكدت عليها والدتي إن لم تشاركهم فرحتهم فعليها الرحيل وما أكثر الشغالات اللواتي يتمنين العمل لدى مروان ولدها.

* * *

آخر ورقة فكر محمود في استعمالها لإقناعي بالعدول عن إقامة مشروع حلم حياتي هي نعمات حبي الأول والأخير، مر عليها في حانوت زوجها، سلم عليها واطمأن على حالها وحال مخيمر المريض طريح الفراش، داعب ابنها المولود حديثًا، وعرف منها أن مخيمر صمم على إطلاق اسم مروان عليه كما أصر على تسمية ابنه البكر منها بسليمان، ترجاها محمود أن تذهب لي وتعمل على إقناعي لعلني أستجيب لتوسلاتها في أن يرحم إخوتها الصغار الذين يتألمون من الجوع لجلوس- عائلهم- والدها عن العمل، كان محمود يعلم أن نعمات داست على قلبها وارتضت بنصيبها وأنها لم تعد تفكر في شخصي وكل ما تفكر فيه الآن إطعام طفليها بعد مرض مخيمر وجلوسه في البيت انتظارًا لانقضاء أجله في أي وقت؛ حيث إن حالته تزداد سوءًا من يوم لآخر.

وتحت إلحاح من محمود جاءتني نعمات متعمدة اصطحاب ولديها معها؛ كي لا تضعف أمامي وتعود وقد أقنعتها بما أفعله وما أدعيه من أن الخير سيعم على الجميع، قابلتها والدتي بالأحضان والقبلات وأخذت منها ولديها وأجلستهما على ركبتيها وكأنهما حفيديها، ودار حوار صغير بينها وبين نعمات ترامت مقتطفات منه إلى سمع خالتي امتثال، فحشرت أنفها فيما لا يعنيها وحاولت بشتى الطرق العمل على طرد نعمات قبل مجيئي ومقابلتي لها، خافت من أن أحن لحبي القديم وأنسى وأهمل ابنتها حيث إنني بدأت

في الآونة الأخيرة معاملتهما معاملة حسنة، والابتسام في وجهيهما ليس إلا لجعلهما يقفان في صفي وتأييدهما لما أقدم عليه متناسيًا تمامًا البغض البادي على وجهي عند رؤيتها في كل مرة كنت أراها فيها.

* * *

نهرت والدتي أختها امتثال، وأمرتها هي وابنتها سلوى أن يذهبا لمساعدة جمالات الشغالة في إعداد الطعام؛ لأن نعمات ستتغذى معهم اليوم، استشاطت خالتي غيظًا من تصرف والدتي نحوها هكذا وبهذه الطريقة الفجة في الكلام، وحنقت على نعمات ورمتها بنظرات مليئة بالكراهية، لكنها- رغم ذلك- امتثلت لأمرها، وبخطوات متخبطة تجعل من يراهما لا يستطع إمساك نفسه من الضحك ذهبت ومن ورائها ابنتها، رأيتهما ولم أستطع إمساك نفسي عن الضحك رغم خسائري المتوالية في البورصة، وعدم تحملي أي كلمة من أي شخص إلا أنني ورغم كل هذا ضحكت، ظنًّا أن شجارًا نشب بينهما وبين والدتي بسبب إلحاحها المتكرر في طلبها بتزويج سلوى مني، ضربت كفًّا بكف، وقلت.. همّ يبكّي وهمّ يضحّك، وناديت على والدتي والتي نادتني بدورها قائلة لي:

- تعالى يا حبيب قلبي، أنا هنا.

ظننت أني سأجدها بمفردها، وأنها تنادي علي وتعلمني بأمر شجارهم، تقدمت بخطواتي رغم التواء رقبتي للخلف متابعًا التصرفات الهوجائية لخالتي وابنتها

ولم تنتهِ ضحكاتي رغم اقترابي منها، تنحنحت والدتي كي أنتبه لضيفتها الجالسة بجوارها، شدتني من ذراعي، فقلت لها وأنا ألتفت نحوها:

- بشويش يا ماما على البدلة..

انقطع كلامي عائدًا من حيث أتى لداخل جوفي مصطحبًا معه ضحكتي البريئة التي مازالت كما عهدتها نعمات علي، وبرؤيتي لها بلعت ريقي وتناسيت أمر ما كان يضحكني، ووقفت نعمات وتقدمت مني، وتناست هي الأخرى أمر والدتي وولديها، بل وأمر مخيمر وأمر ما جاءت من أجله، وأمام هذا الموقف بين الحبيبين اللذين لم تحنِ الفرصة لأن يلتقيا ويتعاتبا على سلبيتهما وتسليمهما للأمر الواقع لدرجة أنهما قد تناسيا- تقريبًا- أمر حبهما لولا هذا اللقاء الذي جمعهما من جديد جاعلًا دقات قلبيهما تدق اشتياقًا واتّقادًا لذلك الحب الذي مايزال يحن لما مضى، ولم يكن أمام والدتي تجاه ما تراه من تلاقينا إلا أخذ الطفلين الصغيرين وتخلي لنا المكان.

امتدت الأيادي وتشابكت، وكادت الشفتان المقتربتان لأقرب نقطة للتلاقي أن يتعانقا في أحضان مطولة، لولا تنبيه صدَرَ من فم والدتي الواقفة بعيدًا تريد الاختباء لكنها شغوفة متطلعة لما يحدث، وبنبرة هادئة ناعمة قالت لنا: عيب، انتبها لتصرفاتكما وإلا عدت وجلست معكما، فلم نعرها انتباهًا واقتربنا أكثر حتى كاد التلاقي الوشيك بين القلبين اللذين أصبحت دقاتهما متصاعدة، ويكادان يسمع صداهما في أرجاء المكان من حولهما، أفاقت نعمات من أحلامها التي هجمت عليها فجأة وهي صاحية مازال النهار لم يرحل بعد، فقد تذكرت مخيمر المريض والذي ائتمنها على تجارته وماله، ولم يأخذ بنصيحة المقربين بأن يرسل لأولاده ليقوموا بهذه المهمة بدلًا منها، وتذكرت أيضًا أنه لم يصدر منه تجاهها أي سوء أو أصابها بضرر منذ زواجها منه، وأخيرًا تذكرت ولديها وتعللت بالبحث عنهما في لحظة اقترابنا الأخير الموشك على التصاقنا ببعضنا البعض؛ حيث أنا الحبيب الذي تمنته أن يكون والدًا لولديها، ابتعدنا لخطوات نبحث عن أماكن جلوسنا، وجلسنا نحن

الحبيبين متقاربين لحد الالتصاق، وأيدينا مازالت متشابكة تأبيان الفراق.

* * *

(٣٢)
بلاغ للنائب العام ضد وزير الإسكان

يبدو أن قرار فتح ملف تجاوزات وزارة الإسكان إثر حملة شعواء من الصحافة على الوزير؛ قد حان موعدها، ففي تطور لم يكن متوقعًا استدعت نيابة أمن الدولة العليا فتحي إبراهيم صاحب شركة الفتوح للاستشارات والمحتكر لأغلب الأعمال الإنشائية التابعة للوزارة في ظل فساد صريح وواضح لم يجرؤ أحد على التحدث فيه من قبل رغم معرفة الجميع به، وعلى مدار عدة أيام أجري التحقيق معه حول وقائع استغلال النفوذ، والذي ارتضى أن تكون لأخته ضرة مقابل مصالحه مع الوزير، هذا غير فضائح رشوة الوزير نفسه في قضية مقاولات كبرى لإرساء مشروعات صرف صحي لشركة بعينها مقابل الحصول على نسب وعمولات بصورة غير مشروعة، ورشاوى أخرى رصدتها الأجهزة الرقابية بالصوت والصورة، هذا غير مفاجآت أخرى كشفها التحقيق معه عن كمّ وحجم المخالفات في قطاع الإسكان والاستشارات الهندسية، وهو الأمرالذي بات من خلاله تهديدًا قويًّا ونذيرًا لوزير الإسكان في انتظار أخذه الإذن بالرحيل من منصبه بعد أن أصبحت تجاوزات وزارته مادة مشتعلة للغضب الشعبي الواسع، وخاصة مع بدء التحقيقات مع شقيق زوجته وأطراف أخرى تسلطت الأضواء بأقوالها على الصراع الدامي في سوق الاستشارات، والذي كان يحسم دائمًا لصالح مكتب الفتوح.

وفي تطور مفاجئ، تقدمت نقابة المحامين- ممثلة في نقيبها- ببلاغ إلى النائب العام ضد شخص الوزير دعت فيه إلى محاكمته، وقال البلاغ إن الوزير

نهج سلوكًا فى وزارته مخالفًا للدستور، كأنها عزبة أو تكية خاصة به وبأصهاره، فبدلًا من أن يفسح المجال للمهندسين المخلصين للوطن لتقديم خدماتهم أفسح الطريق أمام مجموعة من أصدقائه وأصهاره فى إشارة إلى قيامه بإسناد أعمال هندسية إلى مكتب شقيق زوجته، فيما أشارت النقابة فى بلاغها إلى العديد من المخالفات التى ارتكبها الوزير والتي فجرتها إحدى الصحف مطالبة بضرورة مخاطبة وزير العدل بإعداد مذكرة وإرسالها إلى مجلس النواب لرفع الحصانة عنه حتى يمكن استجوابه فيما يشير إليه البلاغ من اتهامات، وكذلك استدعاء جميع شهود الإثبات ليتم إحالته إلى إدارة الكسب غير المشروع وتطبيق قانون من أين لك هذا عليه، بعد حصر كل أمواله وممتلكاته له ولزوجته وصهره.

وبالفعل، وتحت الضغوط المتزايدة حدث استجواب في مجلس النواب لوزير الإسكان، وأثناء مناقشته فيما وجه إليه من اتهامات شن بعضٌ من النواب وأغلبهم من الفلاحين هجومًا حادًّا عليه، مما أثار حفيظة بعضٍ من النواب الذين لهم مصالح تقتضي الوقوف بجانبه حمايةً لمصالحهم، وهم بالطبع ينتمون لحزب الأغلبية الحاكم، رغم أن دوائرهم تقع في قلب الريف الذي يئن في كل وقت وحين من تصرفات وفساد هؤلاء النواب الذين لا تهمهم غير مصالحهم مثلي عن طريق كسب ود الناخبين من خلال إمدادهم بكافة المرافق لمبانيهم المخالفة من كهرباء ومياه وصرف.. الخ، دون مراعاة لما يسببه فسادهم من القضاء على الرقعة الزراعية.

معركة حامية لم يخسر الوزير فيها شيئًا رغم ما اتهمته الألسن صراحةً بالفساد فدفاعه كان واقعيًّا لرئيس المجلس ورئيس الحكومة المتابع تطورات الموقف أولًا بأول، والذي كان حاضرًا لجلسة من الجلسات يتابع الموقف عن

قرب، بعد أن بات مادة رئيسية في الصحف والبرامج الحوارية.

وعندما حان دور رئيس الحكومة للتحدث قال محاولًا تهدئة النواب الثائرين:

- نخسر كل يوم آلاف الأفدنة من أجود الأراضي الزراعية سنويًّا بالبناء عليها رغم القوانين الصارمة التي تحول دون منع ذلك، لكن الناس لديهم مئات الأساليب والحيل التي تساعدهم وتحفزهم في المضي نحو مسعاهم، فكل الناس تعودت على الاستخدام للباب الخلفي بعيدًا عن القوانين التي تساعدهم وتوعيهم على حفظ حقوقهم وحقوق الأجيال القادمة من الضياع، أما هذا الرجل والذي بسببه وبسبب مشروعه السكني «قاصدًا شخصي، وظني أن هذه الزوبعة ما قامت إلا من أجل مشروعي، وأخذ يكمل كلامه» أتى من الباب الأمامي، قدم كل ما يفيد أن الدولة ستستفيد استفادة عظيمة من مشروعه.

وفي أواخر كلامه، قال متحديًا النواب الغاضبين ليزيدهم غضبًا فوق غضبهم..

- ورغم كل هذه الزوبعات التي تثيرونها وتتهمون وزير الإسكان من خلالها بالفساد فإنها مجرد مائة وخمسين فدانًا لن تقدم ولن تؤخر، والقرار يعود لكم، حكموا العقل وصوتوا للمصلحة العليا للبلاد وليس للقلة التي لا يهمها إلا مصالحها فقط، وصدقوني فالموضوع برمته كما أكرر مجرد زوبعة في فنجان ستنتهي مع البدء الفوري في تنفيذ المشروع، لذلك أطالب الجهات المعنية أن تزيح كل العراقيل وتسخر كافة الإمكانات لإقامة هذا المشروع، وشكرًا.

وبمجرد انتهائه من كلمته هذه، قامت شبه ثورة من جانب أغلب النواب الرافضين لكلامه، واشتدت رحاها داخل أروقة المجلس وتهديدهم بالاعتصام حتى يعتذر الوزيرعما اتخذه من قرار، وكذلك تراجع رئيس الحكومة عما قاله والذي انسحب من الجلسة فور رؤيته لمشاهد الغضب التي طالت الوجوه من حوله، ورغم كل ما شهده المجلس من غضب الكثيرين من النواب إلا أن الموافقة بتنفيذ المشروع كانت بالموافقة من ثلثي الأعضاء..

"من يوافق على إقامة المشروع؛ فليتفضل برفع يده- موافقة".

وخرج الوزير منتصرًا بل الحكومة بأكملها ممثلة في رئيس وزرائها الذي من داخله كان يعلم أنه يرتكب خطأ سيكلفه حتمًا منصبه، وأن كل ما قاله أكد حتمًا الأقاويل والاتهامات التي زادت عن حدها في الآونة الأخيرة بأن وزير الإسكان تلقى رشاوى عديدة من تحت الترابيزة لتنفيذ هذا المشروع، بل ومشاريع عديدة أخرى نفذت وغيرها تنتظر دورها وقادمة في الطريق، وفورًا استدعي وزير الإسكان إلى مكتبه، وقال له:

- ما الذى يمنع الأجهزة المعنية من التحقيق فى البلاغات والمعلومات التى كشف عنها بعض نواب المجلس فى حق شخصك، والتي تطورت إلى بلاغ ضدك تقدم به ما يقارب الخمسين نائبًا من مختلف القوى السياسية للنائب العام، هذا غير صداع نقابة المحامين المتمثلة في نقيبها، والذي لن تهدأ ثائرته إلا بجعلنا جميعًا خلف أسوار السجون. وأسهب يقول له:

- احتوى البلاغ على معلومات مذهلة تتمثل فى استئثارك بأراض وفيلات وزعتها على عائلتك وأقاربك، هذا بخلاف مشاركتك لرجال أعمال

منحتهم مئات الأفدنة من أراضي الدولة المعدة للبناء، وبالتفصيل جاء فى البلاغ معلومات لو ثبتت صحتها لاكتشفنا أننا أمام عملية فساد كبرى ومنظمة تمت عبر استغلالك لمنصبك.

وأكمل يقول:

- قد تكون الاتهامات لك خاطئة، أو ما فعلته تم وفقًا للقانون الذي سيعفيك حتمًا وقتها من الحساب، غير أن مجمل هذه الاحتمالات لن تظهر حقيقتها إلا بتحقيق تقوم به الجهات المعنية، وبالتالي تضع حدًا للقيل والقال ليس في حقك فقط، وإنما في حق الحكومة التي أنا على رأسها، وبالإضافة إلى ما سبق فإن الصمت على القضية سيؤدي إلى تصويرها كما لو كانت معركة ثأرية بين هؤلاء النواب وبين شخصك، والحقيقة أنها تخص الرأي العام بأكمله، رأي عام يريد إجلاء الحقيقة، والتأكد من أن هناك من يحاسب الفاسد على فساده، وأنه لا تستر على أي مسئول استثمر منصبه لمصالحه الخاصة.

خلال ذلك اللقاء، لم يكن في مقدور وزير الإسكان التحدث أو الدفاع عن نفسه، فكل الأمور كانت واضحة لرئيس الوزراء، وكان يعلم بفساده، ونظرًا لأن موضوع إقالته والإتيان بوزير آخر مكانه لم يكن بيده، بل بيد الآمر الناهي رئيس الدولة، لكنه يعلم من داخله أن الأمور تطورت وأصبحت في يد الرأي العام الذي قرر قرارًا لا رجعة فيه، لذلك أمر الوزير بعدم تقديم مبررات أو الدفاع عن نفسه أمامه، والذي قال له في نهاية اللقاء:

- عليك بذل الجهد من خلال الطرق المشروعة بإخراج نفسك بريئًا من كل التهم الموجهة لك قبل أن تغرق المركب بمن فيها، وحتمًا عندما يحين الغرق سيعمل الباقون على إلقائك في المياه لتغرق وحدك دون مد يد العون

لك.

وقال له بعدما قام من مجلسه، ووقف خلف كرسيه:

- "ما يثير العجب أننا شاهدنا فى سنوات سابقة عملية إسراع لا مثيل لها فى إحالة مسئولين كبار سابقين إلى المحاكمة مثل الوزير العلاني في عهد حكومة الدكتور الفلاني، وأنصف القضاء هؤلاء، وبالتالي أعاد لهم الاعتبار، وصمتت لغة الهمس والغمز فى حقه، فلماذا لا تتبع نفس الأسلوب؟!".

* * *

لم يهنأ بال رئيس الوزراء عند هذا الحد، وتهديده المباشر لشخص الوزير من أنه وقت الجد سيضحي به دون شفقة أو رحمة لمجهوداته، بل إنه اجتمع بمجلس الوزراء وتحدث، ونبرة الانفعال تسيطر على كل كلمة تخرج من فمه:

- أبدًا، لن أخسر معركة، ولن تضطر الحكومة لأن تنحني أمام قلة مغرضة هدفها الأساسي إثارة القلاقل وتشويه سمعة الحكومة.

وأنه يؤيد وزير الإسكان حفظًا لماء الوجه فقط، وشدد على أنه لن يمتثل لمطالب الثوار والمتجمهرين المطالبين بعدم تنفيذ المشروع متعللًا:

- إننا لو رضخنا وتراجعنا أمام ثورتهم هذه؛ فسنجد كل يوم من يخرج علينا بأنه لا يعجبه ما نتخذه من قرارات هي في صالح تسيير شئون المواطنين بلا شك، وسنجدها هوجة ثورات تتجدد كل يوم والآخر، وسيعم الخراب وقتئذ، إن لم نستطع كبح جماح أي من تسول له نفسه العبث بأمن ومسيرة التقدم التي تخوض غمارها الدولة الآن.

وجاء ذكر شخصي على لسانه من أني رجل أعمال غبي حيث أني لم أعمل على كسب ود الأهالي من حولي، وكان معه الحق في ذلك؛ حيث أكمل يقول:

- أصابه الكبر والغطرسة والأنانية وتناسى أنه منهم «وهذا كلام صحيح» وخلال وقت قصير جدًّا سيعود إليهم خالي الوفاض دون شركاته ومشاريعه وأحلامه، التي كان يمني نفسه بتحقيقها، صدقوني سيعود مرتديًا جلبابه كما كان.

كل ما قاله كان واضحًا عليه الانفعال والغضب نظرًا لأن الهجوم طال شخصه هو الآخر، لكنه عندما سمع لصوت العقلاء من الوزراء الجالسين هدأ ووافقهم على ما أجمع عليه الباقون، وفي نهاية الاجتماع أصدر قراره الذي كان فحواه:

- «أيها السادة الوزراء، ستعمل الحكومة على عدم إقامة هذا المشروع دون أن يشعر أحد، وأنا بنفسي من سأتخذ هذا القرار فقد أصدرت تعليماتي خلال جلسة الاستراحة لجميع البنوك بعدم تمويل المشروع، وكما تعلمون تصلكم أخباره».

قاصدًا شخصي وبالطبع يحدثهم عن خسائري المتكررة في البورصة وفقداني رصيدًا كبيرًا من أموالي كل يوم. وانتهى الاجتماع على أثر هذه الكلمات.

* * *

انصرف جميع الوزراء ما عدا وزير الإسكان، فقد أمره رئيس الحكومة بأن ينتظر لأنه يريده في موضوع هام، قال له:

- صدرت أوامر من رئيس الجمهورية شخصيًّا بقطع علاقتك بالفتاة التي تهيم بها حبًّا، والتي بسببها نخسر من رصيد احترامنا لدى الشعب مع طلعة شمس كل يوم جديد.

وأكمل متصنعًا عدم معرفته باسمها، يسأله:

- واسمها إيه؟

رد عليه الوزير، وهو يكاد يخرج الكلمات من فمه بعد حشرجتها بالداخل:

- اسمها نجوى.

- آه نجوى، هي فعلًا بنت تتحب، لكن القرار صدر ولابد من تنفيذه اليوم قبل الغد، كفاية فضائح يا سيادة الوزير أولادك وزوجتك وبيتك أولى بيك منها، وصدقني لو تدهورت صحتك لن تجد نجوى بجوارك، وسترحل مع أول شاب يقع نظرها عليه وتتركك وحيدًا، ووقتها ستكون فقدت كل شيء.. بداية من المنصب الوزاري ثم الأولاد ومامتهم التي بدأت معاك من الصفر.

وسكت منتظرًا سماع تعقيب على كلامه من الوزير، لكن الوزير صامت لا يرد ولا يصد، فقال له:

- ورانا مشاغل كتير يا معالي الوزير لازم نقوم بيها يوميًّا، وأولها العمل على إرضاء الجماهير، وأخذهم في صفنا من خلال الطبطبة عليهم، وقول لهم معلش.. بكره الحياة هتبقى وردية وأحوالكم هتتحسن، ونعدكم بحل جميع مشاكلكم في أقرب وقت ممكن، شريطة أن تقفوا معنا في مواجهة قوى الشرالتي تعمل في الظلام على زعزعة أمن واستقرار البلد ولا تريد خيرًا لنا ولكم، وتذكر يا معالي الوزير أن هذا دورنا المكلفين به، والذي اعتلينا مناصبنا من أجله، ولأجل هذا السبب لازم أسمع رأيك قبل ما امشي.

جاء رد الوزير مقتضبًا عندما قال وهو يتجرع مرارة الهزيمة التي ظهرت على حاله:

- سأكون عند حسن ظن سيادة رئيس الجمهورية، وحتمًا سأقطع علاقتي بها فورًا.

(٣٣)
صدمة لقاء الحبيب

لاحظت فريدة تردد ناهد المستمر على حجرة أخويها ياسر ووليد، سواء كانا موجودين أو في ظل غيابهما، طردت الظنون والشكوك لعدم ظهور أي علامات أو أعراض للإدمان عليهما كما أخبرها وحذرها الطبيب المعالج من أن أعراض الانسحاب قد تبوء بالفشل، «وهذه الأعراض هي التي تظهر على مدمن المخدرات عند التوقف عن تناولها، وهي مرحلة طيبة في الأساس ذلك أن جسد الإنسان في الأحوال العادية، إنما يتخلص تلقائيًّا من السموم، ولذلك فإن العلاج الذي يقدم للمتعاطي في هذه المرحلة هو مساعدة هذا الجسد على القيام بدوره الطبيعي، وأيضًا للتخفيف من آلام أعراض الانسحاب مع تعويضه عن السوائل المفقودة، ثم علاج الأعراض الناتجة والمضاعفة لمرحلة أعراض الانسحاب أو الانسحابية من المخدرات، هذا وقد تتداخل هذه المرحلة مع المرحلة التالية لها وهي العلاج النفسي والاجتماعي، وفورًا تتحسن الحالة الصحية للمتعاطي بعد مرحلة أعراض الانسحاب من المخدرات».

طردت فريدة أوهامها وظنونها، وبدت سعيدة فرحة لتردد ناهد على حجرة أخويها أمر ينسيها- تدريجيًّا- موضوع الخروج يوميًّا للبحث عن خطيبها الضائع عامر، ولم يكن لديها أدنى شك في أن التوأمين عادا مرة أخرى للإدمان، لكن الأمر الخافي عليها هو أنهما عادا بالفعل لممارسة عادتهما المفضلة بالتعاطي، وكانا أكثر حرصًا هذه المرة على ألا يراهما أو يعلم بسرهما أحد من أفراد الأسرة، وأن الوحيدة التي اكتشفت سرهما هي ناهد عن طريق الصدفة،

فذات مرة وأثناء سيطرة الملل على كيانها قررت القضاء عليه بالقراءة عن طريق الاطلاع على كتب المواد التي يدرسها الأخوان، بحثت ونقبت في أركان الشقة جميعها عن كتاب يسلي وحدتها، ولما لم تجد داست على نفسها ودلفت إلى حجرتهما لأخذ أحد كتيباتهم، صدمت لما رأت بضعًا من تذاكر الهيروين والعديد من الحبوب المخدرة مخبأة بين طيات الكتب، لم تشأ إعلام أحد ولا حتى صاحبي الشأن نفسيهما، لم تحاول مواجهتهما وهي في حالتها النفسية السيئة الشديدة، فقط احتفظت بكل ما وجدته، وعن طريق الفضول جربت كحب استطلاع ليس إلا، ورويدًا أنهت على كل ما كانت تحتفظ به، ولما انتهى ما كانت تحتفظ به اضطرت لمواجهة شقيقيها بأنها اكتشفت أمرهما وخيرتهما بأن يشركاها في التعاطي، وإلا أخبرت والديها، ووقتها سيعودان مرة أخرى للمصحة، فوافقا التوأم على طلبها ليجرفهم التيار معًا، ويصبحوا متلازمين لا يفرقهم الا النوم، للدرجة التي جعلتها تصر على مرافقتهم وهم يشترون تموينهم اليومي من المواد المخدرة، فحاولا إقناعها بأن المكان الذي يشتريان منه ليس ببعيد، فقط يجتازون الجانب الآخر من السور المجاور للسكك الحديدية، وعلى مقربة منه حيث المنطقة الشعبية يسلمون ويستلمون.

* * *

ولأول مرة في حياتها تدخل المنطقة الشعبية التي لطالما نظرت لها من شباك حجرتها باحتقار واشمئزاز، وهم في طريق عودتهم بعد شرائهم للمخدر صدمت بسيارتها شابًّا يحمل صينية شاي على يده، لتتهشم جميعها بعدما هوى الشاب بجسده على الأرض، فقام من سقوطه رغم إصابة كاحل قدمه ليعاتبها ويصب جام غضبه عليها، وأمام هذه المشهد لم تصدق ناهد ما رأته عيناها وقالت لنفسها تتساءل: هل هو هذا عامر خطيبها الذي اختفى فجأة

من حياتها كما ظهر، أم أنه شبيه له؟ لم تكد تصدق عينيها وهو واقف أمام مقدمة السيارة يعاتبها، ومن جانبه عامر لم يدرِ ماذا هو فاعل بعدما ترجلت من السيارة، وأرته وجهها، فتمنى لو انشقت الأرض وابتلعته قبل أن تراه بلباس عمله، أو أنها أنهت على حياته وأراحته من هذا العناء الذي يثقل كاهله في تلك اللحظة التي لم يكن يظن أن ما بينهما من حب سينتهي بهذا الشكل الدرامي.

وأمام مشهدهما الدرامي هذا، تجمع المارة حولهم وكادوا يفتكون بالتوأمين، يحاول بعضهم فتح أبواب السيارة التي أغلقت بعناية على من بداخلها، تاركين أختهم بالخارج تلاقي أي مصير يواجهها، كل هذا ودموع ناهد تغطي على كل ما يجري حولهم، متمنية انشقاق الأرض وتبتلعها وألا ترى عامر الذي تأكدت أنه هو في هذا الموقف، تمنت الموت قبل أن تعرف من أنه سوى مجرد نصاب لا يختلف كثيرًا عن أمير زوج أمها السابق، وأنهما صنعا من عجينة أو شكّلا من طينة واحدة.

وللهروب من نظرات عينيها كانت الفرصة أمام عامر مواتية للفرار من هذه المواجهة المحتومة والمؤجلة منذ هروبه من حياتها وتركها تعاني هجران حبها له، إلا أنه تماسك، وأول ما فعل هدأ من روع الناس بعدما طمأنهم بأنه بخير، وترجاهم الابتعاد عن السيارة، بعدها أمر ناهد بلهجة آمرة أن..

- انطلقي بسيارتك وإلا حطمها هؤلاء الذين لا يعرفون طريقًا للتفاهم مع من يستقلون مثلها.

* * *

تخيلت ناهد أنها بلعت كمية لا بأس بها من حبوب الهلوسة التي

اشترتها لتوها فجعلتها يتهيأ لها كل ما رأته، وأن الشاب الذي رأته ليس بعامر حبيبها، إنما هو شخص شبيه له؛ لذا عليها أن تسترد وعيها لتتأكد من صدق حدسها أم كذبه، أعطت لنفسها مهلة ثلاثة أيام رفضت خلالهم تعاطي أي مخدر منتظرة لأن تفيق الإفاقة الكاملة لتواجه المصير المحتوم، وعندما جاءت ساعة الحسم انطلقت بسيارتها متخطية السور الإسمنتي والسكك الحديدية، وتوقفت في نفس مكان الحادثة، بحثت بعينها عن مكان تركن فيه سيارتها وترجلت بعدها على قدميها تقدم ساقًا وتؤخر الأخرى، مشت ولم تعرف إلى أين، تساءلت من يا ترى سيدلها على عامر؟ وهل فعلًا اسمه عامر أم أنه غيّر اسمه كما عمل على تغيير جلده وهو جالس معها، تذكرت أكواب الشاي التي تحطمت على مقدمة سيارتها فتنهبت أنها عليها التوجه إلى أقرب قهوة والبحث عنه، سألت ولم يخب ظنها؛ فأقرب قهوة على بعد خطوات منها، إنها إذًا ليست ببعيدة عندما طمأنها من أوقفته في طريقها، لكنه أكد عليها وهو يرحل عنها أن القهاوي هنا للرجال فقط وليست للجنس الآخر، فهي محرمة عليهم في مثل تلك الأماكن التي لا تزال تضع قيودًا صارمة على تحركات المرأة، وكان ظن الذي سألته منه أنها ستجلس وترتشف الشاي بجانب حجرين شيشة كما يحدث في المناطق السياحية التي اعتاد رؤيتهم فيها كخان الخليلي والحسين..... وصلت للقهوة كما وُصفت لها، بحثت بكلتا عينيها في كل شبر من أرجاء القهوة خائفة إن تخطت بخطواتها للداخل من حدوث مكروه لها، مستشفة ذلك من كلام الرجل الذي اهتدت من خلاله لمكان القهوة.

تفحصت كل الترابيزات والجالسين حولها، اطمأنت هنيهة واستدارت لتعود من حيث أتت، لكن صوتًا ناداها.. عاوزه مين يا آنسة؟ فأجابته دون تردد:

- شخص بيشتغل هنا اسمه عامر.

- قصدك عامر البنهاوي؟

انقبض قلبها، وقالت بتبرم غير مصدقة لسماع أذنيها اسمه كاملًا:

- أيوه.

- هو شغال هنا بس للأسف مجاش من أربعة أيام، ربنا يبعد عنك، أصله حصلتله حادثة ورجله في الجبس.

تماسكت ناهد وهي تسمع تلك الكلمات، وسألته والألم بداخلها يعتصرها من هول المفاجأة التي تأكدت من صدقها، وأنها كانت بالفعل في كامل وعيها عندما رأته ولم تكن تحت تأثير المخدر التي لم تتعاطاه منذ ذلك اليوم، والذي بسببه اكتشفت من خلاله حقائق كثيرة، قالت للرجل والدموع تنساب من بين جفنيها:

- طب ممكن أعرف عنوانه لو سمحت؟

أشار لها الرجل لأعلى، والذي اتضح لها فيما بعد أنه صاحب القهوة، وقال لها:

- أنه يسكن بالدور الأخير من تلك العمارة، وبالتحديد على السطوح.

شكرته ناهد والتي صدمتها مفاجأة كلامه عن عامر من أنه خطيب ابنته المنتظر، وأن ما حدث له من حادثة إنما لأن عين الحسود لم تكن لتتركه في حاله، وودعها بعد محاولته معرفة سر سؤالها عنه، لكنها قالت له وهي تحاول ما في استطاعتها منع دموع عينيها من النزول.. أنها أخت واحد صاحبه وعادت لشقتها مفضلة احتفاظها بسرها لنفسها، والذي زلزل كيانها وعدم

البوح به لأحد.

* * *

(٣٤)
المصائب لا تأتي فرادى

وصلت معدات شركة المقاولات التي تعاقدت معها لتنفيذ مشروعي السكني إلى أرضي فجرًا والناس نيام كما أوصيت ونبهت خوفًا من اعتراض الأهالي، وتحديدًا محمود الذي كان في يوم من الأيام صديقًا لي، لكن كل ما يتمناه المرء لا يدركه، علم الأهالي وعلى رأسهم محمود والذي بدأت أخشى تصرفاته لأنه السبب الرئيسي في تأليب الرأي العام على مشروعي هذا، حضروا إلى أرض الموقع ومنعوا العمال بالقوة من مزاولة مهام عملهم، وبالتالي وصلني الخبر سريعًا وأنا من كنت منتظرًا ومتأهبًا لهذه اللحظة، انتقلت على الفور للموقع تحيط بي مجموعة كبيرة من «البودي جاردات» ورجال الأمن، أمرتهم بإطلاق الأعيرة النارية فورًا على من يجرؤ ويتقدم أكثر من اللازم للإضرار بالموقع، وتقدمت نحو محمود وأصبحت في مواجهته مؤكدًا له: إن لم تتراجع يا محمود؛ سأضطر لقتلك وقتل كل من في القرية جميعًا، لكنه كان أذكى مني وامتص غضبي وهو يذكرني بالأيام الخوالي، مشيرًا لي بمكان شجرة الجميز التي كانت شامخة في يوم من الأيام، وزهوها بجلوسنا تحت ظلها، وترجاني بالذهاب لأسأل جذعها الذي يشهد على كلامه؛ فهو الحكم علينا الآن، نظرت إلى الجذع وتصنعت عدم الفهم، وقلت له: شكلك اتجننت يا محمود، هو في جذع شجرة بيتكلم! لم يعلق محمود على كلامي حتى لا يعطيني فرصة لإثبات أني على حق، وهو ومن يحيطون به على باطل، وظل محمود مكانه صامتًا لا يريد التزحزح ولو لخطوة للوراء رغم الأسلحة النارية التي أحاطت به من

كل جانب وابتعاد الأهالي متراجعين خوفًا على حياتهم التي لا يملكون غيرها لإطعام أولادهم من خلالها ولو اضطرتهم الظروف الآن وفي هذه اللحظة الحاسمة لأن يطلبوا مني انضمامهم إلي، ووقوفهم في صفي تحت وطأة ظروف البطالة التي أصبحوا يعانون منها.

* * *

كانت ابتسامة ثقة تخرج من فم محمود؛ جعلتني أحاول جاهدًا معرفة مصدرها ولم أنتظر طويلًا؛ حيث رنات تليفوني أخبرتني من خلال أول مكالمة أتلقاها مع بزوغ أول ضوء شمس بانهيار البورصة والتراجعات الحادة لأسهمها، وبذلك فقد خسرت معظم أموالي، وتوالت المكالمات لتعطيني الصفعة الثانية وفيها خبر انسحاب جميع البنوك من تمويل مشروعي الضخم، ثم المكالمة الثالثة وفيها خبر إقالة وزير الإسكان من منصبه رغم تركه لنجوى، وتأكيده مرارًا أنه بريء من الموافقة على إقامة مشروعي، ومكالمة رابعة وأخيرة تلقيتها من أن أعدادًا غفيرة من المعارضين لمشروعي قادمة من العاصمة في الطريق إلي، وأغلبيتهم من بعض أحزاب المعارضة والنشطاء السياسيين الذين نجحوا في شحن هذا الحشد الهائل والإتيان به إلى حيث أقف مكاني، وآخر شيء لم أكن أتوقعه هو إلقاء القبض علي من قبل قوات الأمن بإذن من النيابة لمحاولتي البناء على أرض زراعية، وهذه مخالفة صريحة للقانون.

* * *

اقتدت حيث مقر سراي النيابة، وخلفي محمود الذي لم يكن ليتخلى عني وأنا في عز محنتي، رغم معارضته الشديدة لكل ما كنت أفعله، ربت على كتفي وقال لي:

- لن أتخلى عنك، وسامحني، ما كنت أريد أن تصل بك الأمور لهذا الحد، لكن أنت من فعلت بنفسك كل ما يحدث لك الآن من مصائب.

وأمام رئيس النيابة، حاولت الإنكار من ارتكابي لأي جرم شنيع بتبوير أرض زراعية بالبناء عليها، وقلت له:

- الرأي العام يعرف منذ فترة بهذا الموضوع، وأني لم أتقدم خطوة واحدة لتنفيذ مشروعي إلا بمباركة الحكومة الممثلة في شخص وزير الإسكان، وقدمت كل المستندات الدالة على صدق كلامي.

فخرجت بكفالة مالية كبيرة أظنها كانت آخر ما معي من أموال والدتي التي سبقت وتنازلت لي عنها وأنا متجه إلى بورسعيد، واستدعي الوزير الذي أصبح وزيرًا سابقًا بعدما أقيل من منصبه، وتوالت التحقيقات بعد ذلك مع بعض المسئولين الفاسدين في قضية تشعبت وتفرعت لكثرة من أحيلوا بسببها للمحكمة، وتقديمهم كبش فداء لحفظ ماء وجه الحكومة فأصبحت بذلك قضية رأي عام.

وفي ثاني جلسة لمجلس النواب تُعقد بسبب تجاوزات الوزير، كان التصفيق الحاد لقرار إحالة مخالفاته للنيابة العامة بعد إقالته من منصبه؛ حيث أمر المستشار العام الأول لنيابة الأموال العامة بحبسه، بل زاد عليه بأن أصدر قرارًا بحبسي أنا الآخر مرة أخرى ١٥ يومًا على ذمة التحقيقات، مع مراعاة التجديد لي.

حيث واجهني المستشار رئيس النيابة هذه المرة بوزير الإسكان بالجريمة التي ارتكبناها في حق الوطن بالمخالفة الصريحة بالبناء على أرض زراعية، ومن خلال تحريات المباحث وأقوال لجنة الفحص بوزارة الإسكان التي أكدت أنها

لم تصدر أي قرارات إلا بموافقة الوزير، لكن بالطبع أنكر الوزير جميع التهم المنسوبة إليهم مؤكدًا أنه ليس المسئول عن تلك الواقعة.

ومن خلال سير التحقيقات، اكتشفت أنني متهم بتسهيل الاستيلاء على المال العام، وإهداري ما يقارب الثلاثين مليون جنيهًا لصالح إحدى شركاتي بالمخالفة للقانون، وهذا لم يحدث بالطبع؛ فقد علمت أنها تهمة لفقت لي لإطالة مدة حبسي.

ومن جهة أخرى، أكد المستشار المحامي العام لنيابة الأموال العامة العليا، أن النيابة مازالت تعكف على فحص الأوراق والمستندات، كما تواصل الاستماع إلى شهادات وأقوال عددٍ من الموظفين بشأن المخالفات المنسوبة للوزير مشيرًا إلى أنه لن يتم استجوابه إلا بعد انتهاء النيابة من فحص المستندات المذكورة.

واستمعت نيابة الأموال العامة العليا مرة أخرى إلى أقوال عددٍ من المسئولين بوزارة الإسكان بشأن المخالفات في قضية الوزير، وكذلك إضافة أقوال أحد موظفي الوزارة، والذي سعى بنفسه لتقديم مستندات تكشف تورط مسئولين بالوزارة، وعلى رأسهم الوزير في ارتكابهم تلك المخالفات، والتي تكشفت حقائقها أثناء التحقيق من أن الوزير وافق بالأمر المباشر على تخصيصه ودمجه قطع أراضٍ لأولاده وأقاربه وبعض أعضاء مجلس النواب ورجال أعمال دون وجه حق.

* * *

وهكذا لم يكد الرأي العام يبدأ في تنفس هواءٍ نقيٍّ، إلا ويفاجأ بأن الهجوم الضاري على الوزير قد أتى بثماره وكشف عن بؤرة ظلت متوطنة تنخر في عظامنا طيلة اثني عشر عامًا هي مدة قضاها الوزير في منصبه ليحجز بذلك

مقعدًا متقدمًا جدًّا في قائمة الفساد الحكومي.

ورغم أن تقرير الرقابة الإدارية جاء متأخرًا بعد هدوء الرأي العام، والذي مل من سماعه لأخبار هذه القضية يوميًّا على مدار عدة أشهر، إلا أن التقرير قدَّم أكثر من ٦٠ مستندًا بخط الوزير وعدد من رجال الأعمال تثبت أنه خصص أراضي الدولة بالمحسوبية والرشوة والمجاملة لأفراد عائلته ولعددٍ من رجال الأعمال ومسئولين كبار جدًّا في الحكومة والنظام بالمخالفة لقانون هيئة المجتمعات العمرانية وقرارات رئيس الوزراء.

وذكر التقرير أن الوزير استغلَّ منصبه الوزاري طيلة ١٢ عامًا في تخصيص أراضٍ له ولأسرته وأصدقائه وعددٍ من رجال الأعمال مقابل رشاوى مادية عبارة عن خمس شقق من أحد رجال الأعمال ومبالغ مالية في صورة شراء عقارات مملوكة لأسرته بأغلى من سعرها؛ حيث يمثل فارق السعر مبلغ الرشوة.

وكشف التقرير- أيضًا- عن أن الوزير خصص ١٥٠٠ فدان من الأراضي لرجل أعمال ومقاول دون مزاد، في مخالفةٍ للقانون، مقابل بيعه لرجل الأعمال قصرًا يعود إليه بمبلغ يزيد عن السعر الحقيقي.

وأورد التقرير- أيضًا- تفصيلات بشأن حصول زوجته وأولاده على قطع أراضٍ تملكها الدولة بأسعار بخسة، إضافةً إلى تجاوزاتهم على مساحات الأراضي والتي تقع في مدن عمرانية جديدة.

وأضاف أنه على سبيل المثال قدَّم ابن وزير الإسكان- عندما كان قاصرًا- طلبًا لوالده الوزير بتخصيص قطعة أرض فضاء بإحدى المدن الجديدة للبناء عليها، وقد وافق الوزير على تخصيصها بمساحة ألف متر، وعندما قام مسئولو هيئة المساحة بقياسها كتبوا أن مساحتها زادت إلى ٢٥٠٠ مترًا، وعند تسليمها

على الطبيعة تبيَّن زيادة المساحة مرةً أخرى إلى ٤٥٠٠ مترًا مرة واحدة، وبمزيدٍ من البحث والتحري تبيَّن أن الوزير قام بدمج ٤ قطع في قطعة واحدة، وجعل القطع الأربع تحمل رقم القطعة التي قدَّم نجله الطلب برقمها.

وأوضح التقرير في نهايته أن الوزير كي يتحايل على القانون أنشأ لجنة تخصيص لمدة ٣ سنوات قامت بتخصيص الأراضي لزوجته وأبنائه بالمخالفة للقانون، ولم تُسدد زوجته ولا أبناؤه ثمن الأرض التي حصلوا عليها بسعر بخس إلا بعد ٣ سنوات، على الرغم من أن سعر المتر- وقت التخصيص- كان يفوق ذلك الثمن أضعاف أضعافه في القطع المجاورة.

* * *

لم يكن يتصور أقرب المتفائلين بنظافة يد الوزير أنه لم يورط نفسه في كل ذلك الفساد الذي طفا على السطح فجأة من خلال قضية تواطئه معي بالبناء على أرض زراعية، إنما لأنه كان يريد إسكات أولاده بل وأخذهم في صفه كما فعل مع خالهم ومباركتهم له على الزواج من نجوى، ذلك الزواج الذي لم يتم بل إنه تمادى في فساده وغيه بأن خصص لزوجته- أم أولاده- أراضي وعقارات مثلهم كي يسكتها هي الأخرى ولا تثور ثائرتها عندما يصلها خبر زواجاته المتكررة عليها.

ولأن النظام لم يغضب عليه، وفي نفس الوقت لم يحمه، فالنظام كان يحمي نفسه، بالتستر على فساده؛ لأن محاكمته تعني محاكمة مسئولين كبار حاليين وسابقين، لذلك لم يتم حبسه، رغم حبسي وأنا الذي أرتكب مخالفة وحيدة، بل كان يتم سؤال الوزير في نيابة الأموال العامة في بعض القضايا ويعود لمنزله آمنًا مطمئنًّا؛ لأن قضيته أكبر من شخصه، فهي تخص رؤوسًا لا زالت كبيرة في الدولة والحكومة، وهي من أعطت- أيضًا- أمرًا بإغلاق ملف هذا الوزير نهائيًّا، وضرورة أن يحفظ

النائب العام التحقيق في القضية بناءً على تعليمات من رئيس الجمهورية، بل إن مسئولًا كبيرًا لا يزال في منصبه اجتمع مع أحد رجال الأعمال المتورطين في القضية، وقال له «لا تقلق؛ ستحفظ القضية، فنحن لا نحمي الوزير، ولكن نحمي أنفسنا».

وبالفعل، تم تشكيل لجان من خبراء وزارة العدل، بعد كل ما تم إثباته من مخالفات صريحة مثبتة بالوثائق والمستندات؛ لفحص الوقائع المنسوبة للوزير السابق، وكتب الخبراء تقارير عن أن الوزير لم يرتكب أية مخالفات، وكان هذا أمر في منتهى التبجح.

* * *

(٣٥)
الصديق وقت الشدائد

طلبت والدتي من محمود الوقوف بجانبي وعدم تركي في هذه اللحظات الصعبة من حياتي، معترفة له أنها كانت تعلم أني على خطأ منذ إقدامي على تنفيذ هذا المشروع السكني، الذي لم أجنِ من ورائه سوى الخراب الذي عمّ على الجميع بسببه، وأنها لم تحاول مناقشتي أو كانت تخشى مناقشتي أو مجادلتي، بل إنها خافت أن تقول لي في وجهي إني مخطئ، فقد التزمت الصمت تدعو ربها في كل وقت وحين أن يثنيني عما أفعله، وأمرٌ آخر توسمت فيه خيرًا وهو أن يهديني وأن يعيدني إلى رشدي وصوابي، ولأن محمود بالشخص الوفي الذي قلما يجود به الزمان، أعطته الإذن بالتصرف كيفما يشاء في ممتلكاتها وممتلكات ابنها الغائب، فكان أول شيء فعله محمود بأن نادى في الأجرية والعمال بأن يبدؤوا في تهيئة الأرض المشتاقة للون الأخضر الذي كان يكسوها قبل هذه الفترة السوداء التي حلت عليهم تجهيزًا يليق بها كما السابق لإنباتها.

* * *

(٣٦)
الحب قتل كبريائي

وكعادة ناهد التي لم تشأ إفشاء سر عثورها على عامر في المنطقة القريبة منهم فهي دقائق سيرًا على الأقدام وتكون معه، انطوت على نفسها، أصبحت قليلة الكلام، ذبل وجهها ووزن جسمها في نقصان مستمر، فقدت شهيتها للطعام، ضاعت الابتسامة من شفتيها، معظم أوقاتها أصبحت تقضيها حبيسة الجدران الأربعة، جالسة أمام الشباك تتطلع للمنطقة الشعبية القابعة في الجانب الآخر تتأمل مبانيها القديمة المتهالكة المتراصة كعلب السردين، لا يوجد بها أي شيء يشجع على الحياة بداخلها، رد عليها عقلها الباطن في لحظة شرود دائم بأنهم إذًا أهل هذه المنطقة ميتون ما داموا هكذا مهملين من قبل الدولة التي لا تولي أهمية إلا للمناطق كالتي تقطنها فقط، ردت على عقلها الباطن تسأله: وماذا عن عامر؟ رد عليها: إذًا هو ميت مثلهم، ما فعله معك ليس له تبرير إلا بتطلعه للثراء السريع.

سألته: وماذا عن الحب؟

قال: كلام زائف.

قالت: لكن إحساسي يخبرني أنه كان صادقًا عندما كان يقول لي حبيبتي ناهد، نعم إنه يحبني وأنا أحببته، ومازلت أحبه وسأظل أحبه.

رد عليها عقلها الباطن بانفعال: رغم ما فعله وما اكتشفته من حقيقة مرة عن عمله وفقره.

قالت: رغم ما فعله.

قال بتصميم: رغم خداعه لك.

أكدت عليه: رغم خداعه لي، لقد أحببته، وأيضًا هو أحبني بصدق.

قال: وماذا عن مواقفك السابقة من رفضك لمروان ابن العم؟ وصفعك لوالده الراحل!

قالت: كنت طائشة، لم أكن أعرف الحب بعد.

قال: ورد فعل والدتك عندما تعلم، ألم تحسبي حسابًا لذلك؟

قالت: ليس لها علي أي سلطان، وإن ضغطت علي سأذكرها بوالدي وكيف تزوجته، إن الفرق بيني وبينها أني سأتزوج عن اقتناع من عامر، وسأعيش معه فوق السطوح بكامل إرادتي، أما هي فقد أوقعها عنادها في شر أعمالها.

قال: إذًا اتخذت القرار المناسب.

قالت: نعم اتخذت القرار المناسب ولا رجعة فيه، وسأتزوج من عامر مهما تكن العواقب؛ فهذا مكتوب ومقدر، والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين.

قال لها: لكن لا تنسي أمر خطوبته من ابنة صاحب القهوة.

قالت: حبي له سيجعله يتخلى عنها، ولن أجعل أحدًا يهزم إرادتي، حتى لو كنت أنت يا إحساسي أول هؤلاء.

خمسة أيام من التفكير ومحاربة النفس اللوامة، توصلت ناهد لهذا القرار وهو الذهاب لعامر والعفو عنه ومسامحته.

* * *

ذهبت إليه، لكن هذه المرة تخلت عن سيارتها، تخطت المزلقان كغيرها من آلاف البشر العائشين تحت خط الفقر والمارين من هذا المكان كل يوم بحثًا عن لقمة العيش التي بات العثور عليها صعبًا هذه الأيام. لم تكن في حاجة لأن تسأل عن عنوانه؛ لأنها حفظته عن ظهر قلب، لم تنسَ أن تشتري أكياسًا من الفاكهة صعدت بها لأعلى السطوح غير متبرمة من عدم وجود أسانسير يرفعها لأعلى، كانت سعيدة وهي تصعد درجة درجة لأعلى، تمني نفسها رؤية الحبيب الذي سلبها لبها رغم كذبه عليها، وعلى السطوح وجدت نفسها داخل ما يشبه شارعًا صغيرًا يترامى على جوانبه حجرات من الصفيح مكتوب عليها بالبنط العريض اسم صاحب كل حجرة، توقفت أمام حجرة عامر البنهاوي، خبطت بيدها على الباب، فسمعت من يقول لها: عامر في الحمام العمومي منتظرٌ دوره، ادخلي استريحي البيت بيتك يا بنتي.

لم تكذب ناهد خبرًا ودخلت حجرته بأمر من جارته، وضعت أكياس الفاكهة جانبًا، ووقفت أمام صورة لها بالحجم الطبيعي معلقة على إحدى الجوانب وبجوارها صور لعامر بأحجام مختلفة، جلست على سريره، تحسست مكان نومه، لم يكن يعنيها حقارة المكان الذي قلما وصفته بذلك، فكل ما كان يعنيها حقًّا.. هل يحبها حقًّا كما تحبه؟ وقد وجدت الإجابة في صورتها التي لا تدري متى؟ وكيف؟ ومن أين حصل عليها؟ وجدت المنظار على أطراف المخدة، تناولته ومثلما يفعل عامر قلدته، تطلعت من خلاله على الجانب الآخر الذي تقطنه، ترامى إلى نظرها شباك حجرتها المفتوح، فعلمت كيف استطاع عامر أن يصل إليها.

أحست بأنفاسه الساخنة تلفح ظهرها، تماسكت رغم ما سببه لها من آلام بسبب بعده عنها وكسره لشوكة كبرها، إلا أن حبها الشديد له جعلها تنسى كل ذلك، اعتدلت ونظرت إليه باسمة، وهي تقول له: إذًا، هذا هو السبب في

تعارفنا، وأسقطت المنظار في راحة يديه.

* * *

(٣٧)
عودة الأمور لنصابها

صدر قرار من المحافظ بإقالة ريان من منصب العمودية وبقاء المنصب خاليًا لحين تعيين شخص غيره؛ نظرًا لوصول العديد من الشكاوى التي يتضرر فيها الأهالي من تصرفاته الهوجاء هو وولداه، والتي فاقت عن الحد خاصة في معالجته للأمور الهامة، والتي تخص القرية وتقاعسه كذلك في حل المشاكل المتعلقة بالري والكهرباء، وخلافه الشديد الذي فاق الوصف من خلال توزيعه مياه الري على الفلاحين حسب مزاجه الخاص، هذا يروي أرضه، وهذا ليس له الحق، مع أن الأرض عطشى، والزراعات توشك على الذبول؛ فالهلاك ودخوله في خلافات متكررة مع يونس بخصوص هذا الموضوع، لذلك فإن يونس هو من سعى لاطاحته من منصبه من خلال علاقاته، ولم يكن ليهدأ له بال إلا عندما بعث بمن يأتي له بصورة من قرار الإقالة وتعليقها أمام بيته ليعلم الجميع.

* * *

وخلال الأفراح التي عمت القرية عند سماعهم لهذا القرار، فوجئوا بخبر وفاة مخيمر، فودعوه إلى مثواه الأخير، وفضلت نعمات بعد رحيله العودة لبيت والدها وتسليم كل تركته لأولاده الكبار، والذين كانوا على خلاف دائم معه بسبب زواجه منها، أرسلت لهم عندما أسلمت روح مخيمر نفسها لبارئها، وقالت لهم: لا أريد منكم شيئًا، المهم ألا تنسوا أخويكما الصغيرين مروان وسليمان، مرّوا عليهما واسألوا عنهما؛ فالظفر لا يخرج من اللحم، كما يقول المثل.

* * *

حزن يونس لرحيل مخيمر، اعتزل الناس، حبس نفسه داخل قصره وأهمل تهذيب ذقنه، وترك شعر رأسه دون عناية، فأصبح أشعثَ أغبرًا، اتصلت به فريدة وهو في حزنه الشديد هذا، وقالت له: أرجوك يا تلحقني يا متلحقنيش، أولادك في خطر، ويحتاجونك للوقوف بجانبهم، فخرج من محبسه مجبرًا تلبيةً لنداء المسئولية مرة أخرى، خرج من محبسه ليتخذ قرار إرسال التوأم للمصحة النفسية مرة أخرى، عازمًا ألا يخرجا منها إلا وقد شفيا تمامًا من إدمانهما، هذا غير ترحيبه بقرار ناهد بالزواج من عامر، منبهًا عليها قبل موافقته على زواجها من عامر بأنها ستعيش مع من اختارته زوجًا لها في مسكنه المصمم من الصفيح، وأن يكون في علمها أنه لن يساعدها، وعليها أن تتأقلم مع حياتها الجديدة ما دامت قد اختارت الطريق بإرادتها وهي في كامل وعيها دون تأثير أو ضغط من أحد، فوافقت ناهد وبكل سرور وسعادة تهيأت لاستقبال دنيا غير التي كانت تعيش بداخلها.

لكن فريدة كان لها رأي آخر؛ حيث إنها حاولت أن تثنيها عن قرارها لكن يونس كان له رأي مخالف تجاه ما نبست به شفاه فريدة، حيث امتدت يده عليها وصفعها على وجهها قائلًا لها يتوعدها: من الآن فصاعدًا الكلمة لراجل البيت وليس للزوجة أن تبدي رأيها فيما اتخذه الزوج من قرار، فرحت فريدة بما فعله تجاهها ورغم الصفعة التي هوت على خدها؛ فقد تناست أمرها وتناست شأن ناهد وعامر فهو يخصهما وحدهما، وازدادت سرورًا عندما أكد لها يونس أنه سيعقد قرانه عليها بشرط ألا تعصي أوامره من الآن فصاعدًا، فقالت له موافقة، وكان أول قرار يتخذه يونس تجاهها أن تنسى أمر شقتها نهائيًا، وأنها ستكمل باقي حياتها معه في الريف، المكان الذي ولد ونشأ وتربى

وترعرع فيه، وكانت المفاجأة الحقيقية للجميع أن أهدى الشقة لناهد وعامر ليتزوجا فيها. وزادت فريدة على قراره هذا بأن أهدتهم سيارتها، فغمرت السعادة الحبيبين ناهد وعامر.

أما بالنسبة لنجوى، فلم تجد أمامها غير العودة مع والديها مفضلة العيش معهما انتظارًا للزوج المنتظر، والذي لن تجد أفضل من اختيار والدها له، ولم يدم انتظارها طويلًا، فقد اختار لها محمود أفضل شباب القرية؛ حيث بعث له وفاتحه في موضوع زواجه منها عندما كانا يطلع منه على آخر الأخبار المستجدة في قضيتي، قال له: لك عندي هدية أرجو أن توافق على قبولها ولا تخذلني فيها، عليك أن تحافظ عليها وتشيلها في عينك فهي قطعة مني. ووافقت عليه نجوى دون أي شروط كما فعل والدها، فقط قالت: موافقة يا بابا، تلتها زغرودة من فم فريدة التي كانت لأول مرة في حياتها تزغرد، وكانت زيجة وش السعد على محمود ونجوى، فقد سعى يونس من خلال علاقاته المتشعبة في مسعاه جاهدًا في تعيين محمود لمنصب العمودية.

* * *

وبعد براءتي وخروجي سالمًا مما نسب إلي من قضايا، وخلال تلك الفترة العصيبة التي كنت أحاول خلالها إخراج نفسي منها بالشكل اللائق أمام أهل القرية آملًا أن يسامحوني فيما ارتكبته ضدهم من تجاوزات؛ مللت من تصرفات خالتي امتثال وإلحاحها الدائم علي في الرايحة والجاية بالزواج من ابنتها سلوى، اعترفت لها بالحقيقة التي أفاقت عليها وقررت بعدها الرحيل وعدم العودة مرة أخرى من أني لا أحب ابنتها، ولن أحبها، ولن تكون زوجتي في يوم من الأيام، وعليها أن تكف عن إلحاحها هذا الذي لن يجدي معي نفعًا، ولسبب آخر وهو أن سلوى تقدم لها عريسان في آن واحد يرجوا أن يتزوجها

أحدهما، وصدمتها عندما قلت لها إنهما التوأم سمعان وخلفان أولاد ريان، ضحكت والدتي عندما سمعت ذلك، وقالت لأختها فعلًا والله، المثل اللي بيقول الطيور على أشكالها تقع، لذلك رحلت خالتي امتثال وابنتها، وتركتا سمعان وخلفان في خلاف وشجار طويل بسببها، وريان حائر بينهما لم يتخذ قرارًا بعد في أيهما يحق له الزواج منها.

* * *

(٣٨)
كل دا من ترتيبي أنا

عدت أنا ومحمود لجلستنا المفضلة كسابق عهدنا، لكن هذه المرة ليست تحت ظل شجرة الجميز التي كانت شامخة بعلوها مزهوة باخضرارها، لم يتبقَّ منها إلا جذعها، نظرنا إليها وأجهشنا بالبكاء لفقدها، وبعد عتاب لم تدم مدته بيننا تذكرنا الأيام الخوالي، وما كان يدور خلالها من أحاديث الحب والعشق والهيام بيني وبين نعمات، قلت له:

- فاكر يا صديقي العزيز محمود..

ضحك محمود حتى بدت نواجزه، وقال لي:

- لم ولن أنسى أبدًا ما حييت موقف غيظك وغضبك من كلامي تجاه زواجك من نعمات، وقسمك لي بألا يمر اليوم إلا وأهل البلدة يعلمون بأمر خطبتك منها، وتركك لي تشق طريقك وسط الحقول قاصدًا بيتها وأنت حافي القدمين.

ابتسمت وأنا أتذكر هذا الموقف، لكن محمود استفزني بعدم إمساك نفسه عن الضحك، وهو الأمر الذي أغاظني منه، وبسببه هببت واقفًا وأقسمت له بألا يمر يومنا إلا وأنا عاقد قرآني عليها، وتركته قاصدًا بيتها كما المرة السابقة، فازدادت ضحكاته وقهقهاته وهو يراني أكرر نفس المشهد حافي القدمين، لكنه هذه المرة لم يشأ تنبيهي وتركني أُكمل طريقي إلى حبيبتي، وهناك أمام بيتها لم أُعطِ لنفسي الفرصة بالتمهل قليلًا حتى تخرج علي والدتها

لتقول لي:

- تفضل يا ابني، البيت بيتك، إحنا في ديك الساعة لما تزورنا!

دلفت إلى الداخل، وناديت بأعلى صوتي على نعمات، التي خرجت بمجرد سماعها مناداتي لها، وقلت لها بمجرد خروجها إلي:

- تتجوزيني يا نعمات؟

فقالت لي بعد وقوفها أمامي وجهًا لوجه:

- مستنية مجيئك في أية لحظة.

ونظرت لوالدتها والتي أتت هي الأخرى مهرولة من الداخل عند سماعها لصوتي، وقالت:

- زغردي يا أمي.

لكن والدتها صمتت ولم تستجب لندائها، فقط قالت:

- لن أزغرد قبل سماع زغرودة صادرة من فم والدتك الحاجة خيرة.

تململت قليلًا، بعدها لملمت شتات نفسي، وأنا أقول لها:

- زغردي يا مرات عم؛ فأمي لن تعترض على زواجي من نعمات.

ردت علي عيشة:

- اسمع زغرودتها أولًا.

فإذ بزغرودة يهل صداها من داخل إحدى الحجرات، ولفتني السعادة عندما اكتشفت أن من تزغرد هي والدتي، والتي قالت لي وهي تحتضنني:

- كنت أعلم بمجيئك إلي هنا اليوم لطلبك يد نعمات للزواج، فقلت

أسبقك وأشاركك فرحتك، ما أنا أمك برضك واللا إيه!

قبلت يدها، وأثناء همي برفع وجهي لإرسال ابتسامة الرضا لمحبوبتي نعمات، سمعت ضحكات محمود التي لم تنقطع بعدُ، فنظرت خلفي لأجده خلف عمي نجيب يقول لي ينبهني وفردتي حذائي بين يديه من أني نسيتهما كالمرة السابقة، ويقول وهو فرح مسرور:

- كل دا من ترتيبي أنا.

الحمد لله

تم الانتهاء من المراجعة النهائية للرواية ثاني أيام عيد الفطر المبارك، والموافق الخميس ليوم السابع من يوليو سنة ٢٠١٦ في تمام الساعة الخامسة وعشر دقائق مساءً.

****

الفهرس

مقدمة .....
1. البداية 9
2. من أنا؟ 17
3. حياتي كما أردتها 21
4. البوح بالسر 46
5. شيال الهموم 51
6. المواجهة والرفض 53
7. لا كان على البال ولا الخاطر 61
8. قرار الرحيل 67
9. ميتم دا واللا فرح 69
10. أصبحت حرًّا 80
11. عُد وإلا 82
12. بداية الشر 86
13. يا ليل طول شوية 95
14. العين بالعين، والسن بالسن، والبادي أظلم 101
15. غيبتك طولت يا صاحبي 106

16. قلبي وربي غضبانين عليك ليوم الدين 112
17. وأخيرًا أصبحت حرة 115
18. فكرة الزوجة الثانية 119
19. دوام الحال من المحال 124
20. إدمان وطلاق 131
21. عودة غريبة 133
22. الغريمان وجهًا لوجه 138
23. الجانب الآخر المنسي 144
24. «شبر ونص» بقي العمدة 158
25. خيانة 165
26. اتسرقنا يا عمدة 172
27. مفاجأة لم تكن متوقعة 176
28. البحث عن قتلة الشر 190
29. إحنا اتنين يا صاحبي، مش واحد 193
30. أرجوك خليك جانبي، ومتتخلاش عني 196
31. النبش في الماضي 202
32. بلاغ للنائب العام ضد وزير الإسكان 213
33. صدمة لقاء الحبيب 221

34. المصائب لا تأتي فرادى 227
35. الصديق وقت الشدائد 234
36. الحب قتل كبريائي 235
37. عودة الأمور لنصابها 239
38. كل دا من ترتيبي أنا 243